BESAN:BESO:

مَازِلتُ حيًّا

رواية

نورا الزهيري

مازلتُ حيًّا

رواية

نورا الزهيري

اسم العمل: مازلتُ حيًّا

نوع العمل: رواية

المؤلف: نورا الزهيري

المراجعة اللغوية: أ/ عبد الحميد محمد علي

التحرير الأدبي: أبد الحاج

تصميم الغلاف: براءة عصام

تصميم قالب داخلي: روان النمكي

إهداء

إليكَ أهدي روايتي...

وأقول كلمتي...

إلى ذلك الألم المُستحكم بتلابيب أفئدتنا، لا بأس وإن حللت اليوم بوادينا المُفعم بالأمل.

لا بأس وإن جردتنا من كافة وعُودنا.

لا بأس وإن غدوت بيننا ذو سلطان ومجدٍ مُخلد؛ ففي الغد -حتمًا- لا بُد راحل، ثُم أليس من العهد.. ما طغى شيءٌ إلا وانجلى.

لا أعرف كيف أفعلها، أبكلمات فقط يكون الثناء والشكر أم بِقَسَمٍ أني لن أحيد يومًا عن الحق؟ أم بولاءٍ لِمَن علمني كيف أكتُبها بحروف كُنت دومًا أجهلها؟

شُكرًا أستاذي/ أحمد أبو زيد.

شُكرًا مُعلمتي ومُرشدتي/ أبد الحاج.

وإن ملكـــتُ مجــامع الكَلِــمِ فلــن أُوفيكمـــا حقكمـــا بصدق.. فَشُكرًا لكما.

المقدمة

قـد نُـلام.. قـد نَجلـد ذواتنـا علـى شـيء لـيس بأيـدينا تغييـره إلا بِقَـدَرٍ قُـدِّر لنـا. الخيـر والشـر بكينونتهمـا ومَاهِيَّتهمـا الجِـدُ مُبهمـةٍ مـا همـا إلا نقيض مـا يـراه الآخـرون بنـا؛ فرؤيتنـا للشـر فـي حقيقـة الأمـر نـابعٌ مـن نظرتنـا المحـدودة نحـو مـا نمـر بـه بربـوع حياتنـا، إذ أننـا دائمًـا مـا ننظـر للأشـياء مـن منظـورٍ واحـدٍ ليتبـين لنـا بنهايـة دَربنـا زيـف مـا نحيـاه بطمـس عقولنـا بسـراديبٍ مُظلمـة ظنناهـا دومًـا ملجأنـا بلحظـات ضـعفنا.. أمـا وإن صـارت الحقيقـة بائنـة مـن جميـع جوانبهـا، لتبـدو جَليَّـةً دون انتقـاص حقهـا؛ فـلا شـك إذًا أن مـا مضـى ومـا سـوف يـأتي مـا هـو إلا خيرٌ قُدِّر لنا.

نورا الزهيري

(الفصل الأول)

رحيل

إنما الحياة خُطوة تتبعها خُطى نحو الفضاء الرحب لتحقيق انتصار وسط صِراعات جسام. كونك المنتصر أم المهزوم، الأمر سِيَّان.

نسمات الصباح الأولى بصفائها ونقاءها أسرعت تعانقه بينما يخطو بجوار والدته ممسكًا يدها، حاملًا حقيبته التي تكاد تخلو إلا من بعض الطعام، قلمه، وكراسته، سائرين نحو الروضة بآخر شارعهم الذي يسكنون فيه...

أمام بوابتها وقفت مُعلمته الثلاثينية لاستقبالهما متهللة الوجه، بقوامها الممشوق وملابسها المتناسقة الألوان من بنطال أسود فضفاض يجعلك للوهلة الأولى تظنه "جيب"

وبلـــوزة بلـــون الســـماء ذات كُمـــين طـــويلين، وحجـابٍ مميـز يجمـع بـين اللـونين؛ قـد أضـفت ملامحهــا الهادئـــة شــيئًا مــن الوقــار عليهــا، صــافحت والدتــه بحــرارة وأثنــت علــى صــنيعها بإلحاقــه بروضــتها الخاصــة، والتــي قــد بــدأت عملهـا منـذ سنتين فقط، ثـم مالـت للأمـام تُرحـب به قائلة:

- أهـــلًا يـــا صـــغيري، هـــلا أخبرتنـــي باسمك؟

فُتنـت هـي بِخصـلات شَـعره الحريـري التـي قـد أخفـت جـزءًا مـن وجهـه الملائكـي بدرجـة كـادت تُعيقــه عــن الرؤيــة بصــورة واضــحة، وكلمــا أعــاد تلــك الخصــلات للخلــف بأناملــه الصــغيرة تعــود وتنفــر مجــددًا، لتســتقر أمــام عينيــه السوداوين.. وكأنما تُعانده.

تطلع لوالدته فيما لا يزال متشبثًا بها، تعلقت عيناه بنظراتها الحانية، يترقب ما ستفصح عنه عيناها الساحرتان اللتان تُنافسان السماء في زُرقتها واتساعها، مُترددٌ هو.. مضطربٌ، يود سؤالها هل يفعل؟ أمام هذا وذاك أَبت شفتاه الإفصاح عما يختلج في صدره، أدركت ما يريد فأومأت له باسمة أن أجل؛ عاد يتطلع لمُعلمته مرة أخرى، وقد عاد الهدوء يتخذه مستقرًا له؛ ليُجيبها:

- كريم.

- وأنا حنين. أتمنى ان نُصبح أصدقاء.

ثم عادت تُحدث والدته مطمئنة إياها:

- لا تقلقي أستاذة مريم، سيكون بخير، لا تشغلي بالك مطلقًا.

فـــدنت والدتـــه تُعانقـــه، مَسَّـــدت وجنتيـــه براحتيهـا مـراتٍ متتاليـة، ناصـحة إيـاه أن يكـون مُطيعًـــا لمُعلمتـــه، وألا يُرهقهـــا، قَبَّلـــت راحتيـــه الصـــغيرتين كســـنواته الأربـــع قبـــل أن تـــنهض لتذهب مسرعة لعملها.

لبُرهـةٍ مـن الـزمن أخـذ يَرقبُهـا، بينمـا تحـث الخُطـــى نحـــو ناصـــية الشـــارع. يراهـــا ملكـــةً بثوبهـــا الرمـــادي وحجابهـــا البنـــي الـــذي أضـــفى عليهـا شيئًا مـن الجمـال بقامتهـا المتوسـطة، لـم يـزل يتبعهـا بنظراتـه إلـى أن شـعر بيـد مُعلمتـه تتشبثُ بيده، تحثه على الخُطى معها قائلة:

- هيا لندخل، فلدينا الكثير من اللعّب.

مـا إن دَلِفـا للـداخل حتـى تـنفس مِـلء رئتيـه، فمـن الوهلـة الأولـى بـدا المكـان رائعًـا؛ الكثيـر مـن الـورود بمختلـف أنواعهـا وألوانهـا تَزخـر

بهـا حديقـة روضـته هـذه، الأطفـال فـي كـل مكـان مــن حولــه، يلعبــون ويلهــون بســعادة غــامرة، زيهـم الموحـد قـد أضـفى بريقًـا مميـزًا بعيـونهم، يَشِّــعون حيويـــة وبهجـــة بكـــل مـــا يفعلونـــه، تـــرافقهم معلمـــاتهم للحـــرص علـــى ســـلامتهم داخـل وخـارج روضـتهم المُكونـة مـن طـابقٍ واحـد مُقَسَّـمٌ لـثلاث حجـراتٍ دراسـية متجـاورة بالإضــافة لمكتــب المــديرة، تُحــيط بــه حديقــة غَنَّــاء تتوســطه اســتراحة واســعة قــد انقســمت جــزئين، وُضــع بأحــدهما منضــدتان خشــبيتان كبيرتــان لتناســب عــددهم عنــد تنــاولهم الطعــام معًـا بينمـا الجـزء الآخـر قـد وُضـعّت بـه بعـض الوســادات الإســفنجية التــي يســتخدمونها عنــد ممارسـة رياضـتهم الصـباحية برفقـة مُعلمـاتهم،

بينمـــا المطـــبخ ودورات الميـــاه قِســـمٌ مُنفصـــل ليس بالقريب أو البعيد، بل بين بين.

دخـــل كـــريم لصـــفه رفقـــة أقرانـــه، وللوهلـــة الأولـى بُهِـرَ كحـالهم بمـا وجـده، فجدرانـه الأربـع تزخــر بكثيــر مــن الألــوان الزاهيــة، تبعــث فــي الـــنفس هـــدوءاً وتفـــيض بالأمـــل، عـــن يمينـــه عُلقـــت صـــور لشخصـــيات كرتونيـــة يعشـــقها كميكـــي مـــاوس وتـــويتي، يُقابلهـــا علـــى الحـــائط الآخـــر ورود مختلفـــة الأشـــكال والألـــوان، فـــي حـــين كـــان هنـــاك جانـــب خـــاص يحـــوي مكتبـــة بأجمـــل القصـــص والرســـومات الملونـــة التـــي قضـــى بينهـــا يومـــه الأول مُفعمًـــا بالحيويـــة والنشـــاط وكثيـــر مـــن الضـــحكات؛ لكنهـــا لـــم تَـــدم فمـــا إن انتصـــف النهـــار وتجهـــزوا لتنـــاول غـــذاءهم تتوســـطهم معلمـــاتهم حتـــى غفـــا فـــي

مجلســـه، لـــم ينتبـــه لحالـــه إلا حينمـــا مســـحت مُعلمتـــه بيـــدها علـــى رأســـه، تُـــداعب خصـــلات شـعره البنـي المُنسدل علـى جبهتـه، عـاجزة عـن إخفاء ما بدا عليها من قلقٍ متسائلة:

- كريم، أأنتَ بخير؟

ففـتح عينيـه رويـدًا، رويـدًا لينفـذ ضـوء النهـار علـى استحياء إليهمـا فيمـا يميـل برأسـه نحوهـا، تطلـع إليهـا بعينـين مُـرهقتين كحالـه ثـم عـاد ليُغلقهمـا فـي وداعـة، فكـم كـان شـديد الـوهن، لـم يملك من أمره شيءٌ حينها...

(...)

بِخُطـوات مهرولـــة وأنفـــاسٍ لاهثـــةٍ ووجـــه يتصـــبب عرقًـــا وصـــلت مـــريم لعملهـــا مُتـــأخرة، نصف ساعة ولا بُد أن المدير قد لاحظ غيابها ويَعُـــد العـــدة كـــي تُـــلام بالتقصـــير كأقرانهـــا،

صـارت متيقنـة أن مـا جـال بخاطرهـا بـات واقعًـا مـا إن رأت زميلتهـا نجـاة بقامتهـا المتوسـطة تُهـرول نحوهـا مضـطربة تسـألها عـن سـبب تأخرهـا؟! وقفـت هنيهـةً تلـتقط أنفاسـها فيمـا صـاحبة العيـون الأربـع كمـا يـدعونها تُقبـل إليهـا؛ فنظارتهـا الطبيـة لا تكـاد تُفـارق عينيهـا البُنيتـين لتُعينهـا علـى الرؤيـة منـذ نعومـة أظفارهـا، أخبرتهـا أن المـدير قـد اكتشـف أمرهـا وطلـب رؤيتهـا بمجـرد وصـولها فأومـأت برأسـها أن أجـل، أسـرعت مهرولـة، تحـث الخُطى لمكتبها بداية.

وضـعت حقيبتهـا علـى كرسـيها الخشـبي، تناولـت ملفًـا مـن كومـة ملفاتهـا المتراصـة علـى مكتبهـا ثـم ذهبـت مسـرعة، بقلـب مضـطرب كاضطرابها.

طرقت الباب ثلاث ثم دلفت إليه، رأته جالسًا خلف مكتبه الذي يتوسط الغرفة مُرتديًا بذلة سوداء قاتمة اللون تتوافق مع خصلات شعره التي قد تسلل الشيب إليها كسنواته الستون؛ لتبدو خطوط الزمن جليةً في ثنيات وجهه ومنحنياتها لتُفصح عن كثير من الأزمات والصفعات التي تلقاها ليبقى عزيزًا، شامخًا. اقتربت لتضع الملف على المكتب أمامه بينما يتناول حبة دواءه لضبط مستوى السكر لديه قائلة:

- رزقك الله الصحة والعافية سيدي، هذا ملف الحسابات الخاص بآخر شحنة دواء وصلت إلينا مؤخرًا.

فرمقها بنظرة عِتاب قاسية فيما يهم بفتح الملف ليطَّلع على ما بداخله فاعتذرت:

- آسفةٌ لتأخري...

سألها بعد صمتٍ قد طال معتقدة أنه سيُوبخها مثلما يفعل مع كل مُقصرٍ بعمله:

- ما الذي حدث؟

فقالت مستفهمة:

- بشأن ماذا سيدي؟

- لِمَ تأخرتي؟ لا أعرف عَنكِ التقصير مُطلقًا.

- كريم، هذا يومه الأول بالروضة وكان عليّ مرافقته؛ لذا كان ما حدث.

تهلل وجهها طربًا وعاد إليه هدوءه فخير بُرهانٍ على تجاوز ما حدث ابتسامته تلك التي تُنير وجهه الخمري رغم عدم اهتمامه للتطلع بوجهها، عاهدته ألا يتكرر هذا ثانية، ثم

خرجـت مطمئنـة الفـؤاد لتواصـل عملهـا الـذي ينتظرها أكوامًا عالية.

مـا إن جلسـت خلـف مكتبهـا حتـى اقتربـت نجـاة منهـا، يعلـو وجههـا الفضـول لتعـرف مـا حدث، لم تتوانَ لحظة عن سؤالها:

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

- كيف لا شيء؟!

عنـدما لـم تلـقَ إجابـة اتخـذت الكُرسـي المقابـل مستقرًا لهـا، تُمعـن النظـر إليهـا، ترقـبُ حركاتهـا وسـكناتها لعلهـا تسـتنبط مـن ملامـح وجههـا الهادئـة ولـو النـذر القليـل ممـا حـدث، لـف الصـمت أركـان المكتـب لحظـات مـرت علـيهن كـدهرٍ كامـل مـريم كعهـدها مُنكبـة علـى أحـد

الملفات تُدقق حساباته لعل خطأ ما قد نفر بلحظات شرودها؛ مُسببةً أزمة حادة لن يتوانى السيد/ كمال عن انتهازها، بينما نجاة ترمقها بنظرات ثاقبة، تود لو تنفذ لأعماق ما يدور بِخُلدها بوقتٍ كهذا، فتطلعتْ مريم إليها باسمة وقد عاهدت نفسها ألا تُجيبها. قالت لها وقد نزعت البسمة عن وجهها:

- لا شيء، يعني لا شيء.

لم تلق إجابتها ترحيبًا يُذكر، بدا هذا جليًا بامتعاض وجهها الذي استحال بياضه لُحمرةٍ شديدة، لحظات صمت سرعان ما انقشع هدوئها بسيل جارف من التساؤلات إلا أن مريم استوقفتها قائلة:

- ألا تـرين مـا أنـا فيـه، وأكـوام الملفـات هــذه تتــاديني لأُنهيهــا خــلال ســاعة واحــدة، يُمكننا التحدث حينما أنتهي منها جميعها.

فنهضـت ومـا تـزال ممتعضـة لتعـود إلـى مكتبهـا لتواصل عملها فيما تتذمر قائلة:

- أنــتِ دائمًــا هكــذا، لا تــرغبين بالتحــدث معي وتتحججين بالعمل.

فحدجتها بنظرة غاضبة، تُجيبها:

- نجــاة، كفــى ثرثــرة وابــذلي مزيــدًا مــن العمل.

- حسنًا، حسنًا.. ها أنا ذا أفعل.

ثـم ضـحكتا سـويًا لحـديثهن الـذي لـم يخلـو يومًـا مــن التظــاهر بــاللوم والعتــاب وادعــاء الضــيق لكلماتهما التي تكون ألغازًا في أوقات عديدة.

بـدأ هـذا قبـل ثـلاث سـنوات حينمـا جئـت للعمـل هـا هنـا، كمحاسـبة بـأكبر شـركة أدويـة بـالبلاد؛ حينهـا كـان كـريم قـد تجـاوز عامــه الأول بأيـامٍ قليلــة ويخطــو خطواتــه الأولــى بالحيــاة، طِفــلٌ مُفعــمٌ بالطاقــة والنشــاط، كتلــة ضـئيلة مــن الجمــال والضــحكات التــي أنــارت دربــي لأســير دون تردد أو خوفٍ مما هو آت.

أمـا الآن فأظنـه قـد حـاز العديـد مـن الصـداقات وأبهـر الرفـاق، كـل الرفـاق بعفويتــه، تلقائيتــه، انطلاقــه الــدائم لــتعلم المزيـد عــن الحيــاة وأن حنـين قـد أحبتـه مـا إن نظـرت إليـه، مُعتقـدة أنـه هــادئٌ علــى الــدوام فــلا تــدري مــا يُخَبئــه لهــا بحقيبتــه ولــن يضـعها جانبًـا مهمـا كـان، أجـل، أعنــي دميتــه المفضـلة، تلـك الدميـةَ البشـعة التــي

يراها هو فائقة الجمال، ليتني أراها مثله بعينيه الجميلتين.

استغرقت بتفكيرها، ولم تنتبه لمديرها المباشر الواقف أمامها الآن ممتعض الوجه، أسودًا، أقرب ما يكون لظلمة الليل، ذا نظراتٍ حادة تكاد تصفع وجهها، يطلب مِنها أحد الملفات التي لم تنتهِ منها بعد. أعاد سؤاله مراتٍ متتالية بينما ما تزال في شرودها، إلى أن انتبهت لصيحات نجاة بها:

- مريم، ماذا بكِ؟

فتطلعت نحوها منزعجة لارتفاع صوتها؛ لتفاجأ أنها تُشير صوب شيء ما أمامها تودها رؤيته وما إن فعلت حتى وقفت مضطربة. كاد قلبها أن يتوقف لمفاجأةٍ كهذه، تعجز عن سؤاله، منذ متى تقف هنا؟ ودونما

ينطق بحرف واحد بحث بذاته عمَّا يريد، تناوله في غير صبرٍ وانصرف غاضبًا فاستوقفته قائلةً:

- لكني لم أُنهيه بعد...

فتطلع إليها دونما يُدير كامل جسمه ليُجيبها بطريقة ألزمتها الصمت في مكانها:

- أعلم هذا؛ لذا سأُنهيه بنفسي.

ثم واصل سيره حتى توارى عنهما مُتجهًا لمكتبه، ضحكت نجاة عن غير قصد لحالةِ مريم التي سرعان ما حدقت بها مُتصنعةً الغضب فأشارت إليها ولا تزال ضاحكة:

- هيا، واصلي عملِك، فلديك الكثير اليوم.

- هكذا إذًا...

عنـدها رن الهـاتف الوحيـد بالغرفـة والـذي طالمـا قبـع كجثـة هامـدة فـوق مكتـب نجـاة إلا بأوقـاتٍ كهـذه، تناولـت سـماعة الهـاتف بيمناهـا ومـا إن ألصـقتها بأُذنهـا لتُجيـب المتصـل حتـى تنـامى لسـمعها ذاك الصـوت الجهـوري الـذي يُصـيبها بـالتوتر دائمًـا فهبـت واقفـة، مُضـطربةً، تُجيبه متلعثمة:

- أجل سيدي، سأُخبرها في الحال.

ثـم رَنـت بنظرهـا نحـو مـريم وقـد غـدت منهمكـة بالعمـل علـى أحـد الملفـات التـي أمامهـا غيـر عابئـة بمـا يـدور مـن حولهـا، أشـفقت عليهـا؛ تـرددت كثيـرًا، كيـف سـتُخبرها؟ لكنهـا لا بُـد فاعلة، قالت مترددة:

- مـريم، الأسـتاذ كمـال يطلـب حضـورك لمكتبه في الحال.

(...)

فـــي دروب العمـــر نمضـــي، أيهمـــا الخيـــر وأيهمـــا العســـير؛ وإن تعثـــر النـــبض واســـتمات القلـــب رغبـــةً ورهبـــة؛ لتحقيـــق المصـــير؛ فـــلا بُـــد، حتمًا سنجد السبيل.

هنـــاك بأقصـــى الصـــعيد نهـــض باســـل ذو التســـعة أعـــوام مُبكـــرًا، صـــلى الصـــبح، بَـــدَّل ملابســـه، تـــيقن مـــن جـــدول دروســـه ثـــم وضـــع كُتبـــه بحقيبتـــه. قَبّـــل والدتـــه فَرِحًـــا وانطلـــق مُهـــرولًا، دون أن يتنـــاول فطـــوره كعادتـــه، لـــم يشـــأ انتظـــار نبيـــل ككـــل يـــوم؛ لـــئلا ينكشـــف أمـــره ويعـــرف مـــا يُخبئـــه متجـــاهلًا حـــديث والـــده إليـــه ليلتـــه الماضـــية فبينمـــا كـــان بغرفتـــه يُطـــالع إحـــدى موســـوعاته الفرعونيـــة فيمـــا هـــو جـــالسٌ خلـــف مكتبـــه إذ فـــوجئ بـــه يـــدلف إليـــه تمـــام الثامنـــة،

جـذب كرسـيًا آخـر كــان بزاويــة الغرفــة بجـوار نافذتـه المُطلـة علـى الشـارع الرئيسـي؛ ثـم جلـس بجانبــه باســمًا وأخــذ يُقلِّــب صــفحات كتابــه، يُخبــره بمعلوماتــه التــي لا تنتهــي عــن إرث أجـدادهما، فوالـده موسـوعة فـي حـد ذاتـه؛ يكـاد يعـرف كـل شـيء عـن كـل شـيء، وأي شـيء يسأل عنه.

- أُحبك أبي.

هكـذا أخبـره فـي ثنايـا حـديثهما الـذي لـم ولـن يَمـل منـه مطلقًـا، فقبَّلـه بجبهتـه وقـال فيمـا يُغـادر غير ناسيًا:

- مـا حـدث اليـوم لا أُريـده أن يُعـاد، أفهِمـتَ ما أعني؟

فأومأ برأسه أن أجل.

انتبـه مـن شـروده أمـام بوابـة مدرسـتهم، بحـث عنـه بـين أقرانـه فلـم يجـده، تـأخَّر الوقـت كمـا صـديقه، لرُبمـا حَـزِن لذهابـه دونـه وقـرر البقــاء بالبيــت مُغاضــبًا.. حَــدَّث ذاتــه بتلــك الكلمــات فيمــا هــو واقــفٌ فــي الصــف بــين زملائــه، متراصـين بطـابور الصـباح وقـد عـلا صوته شيئًا حينها:

- لعلــه لــن يــأتي، لا بــأس ســأمُر عليــه عند عودتي.

عنـدما صَـدحت حنـاجرهم بتحيـة العلـم، أبصـر نبيـل قادمًـا مُطـأطِئ رأسـه آسـفًا؛ لتـأخره، اعتـذر لأسـتاذهم عـن فعلـه الـذي كـان وأقسـم ألا يُعـاد مجددًا، ثم هرول ليقف في الصف صامتًا.

بــدأوا بالســير بِخُطــى ثابتــة، صــفًا واحــدًا لا اعوجـاج فيـه إلا أن صـديقه هـذه المـرة تخطـى

القاعـدة، تجـاوز زميلـين اثنـين كانـا يفصـلانهما، أحدهما عن الآخر، ليسير بجواره متسائلًا:

- لِمَ لمْ تنتظرني؟ أفعلتُ شيئًا أغضبك؟!

فرمقــه بنظــرةٍ جانبيــةٍ ثــم عــاد ينظــر أمامــه مواصــلًا ســيره صــامتًا، بــرغم كونهمــا يجلســان متجـاورين إلا أنهمـا لـم يتحـدثا؛ كلمـا هَـمَّ نبيـل لسـؤاله عـن السـبب ادَّعَـى انشـغاله بشـيء مـا، كـي لا تتهـاوى قسـمات وجهـه الحـادة وتنكشـف حيلته.

دقائق ودخل معلمهم، لتبدأ حصتهم الأولى، خَطَّ بطباشيرته الملونة تاريخ اليوم على جانبيَّ سبورتهم السوداء التي نال منها الزمن، تلاها (تعبير) في المنتصف، ثم استدار إليهم وبصوته الجَهوري حيَّاهم قائلًا:

- صباح الخير يا أولادي.

وبصوت واحد:

- صباح الخير أستاذ صادق.

مُعلم اللغة العربية هذا العام لصفهم قد أتى اليوم متوسمًا الخير بغدٍ مُشرق بانتظارهم، وقف أمامهم لبعض الوقت صامتًا؛ كي ينال انتباههم بطول قامته وجسمه النحيل، ببشرته القمحية وعينيه البنيتين الواسعتين قد جعل العيون والأذهان مُعلقة به.

ما إن تيقن أن الجميع بات مُنتبهًا له حتى أخذ يُحدثهم عن أول درس، ليس من المنهج بأي حالٍ؛ لكنه من القيم والقواعد التي عليه ترسيخها بأذهانهم، اتجه نحو السبورة ثانية وبطباشيرته التي لم يزل ممسكًا بها، خط أسفل العنوان الرئيسي عنوانٌ آخر:

(صــديقـــــي) ثــم اســتدار إلــيهم واضــعًا إياهــا على المكتب أمامه متسائلًا:

- مَن منكم سيُخبرني بمعنى هذه الكلمة؟

مُشيرًا بسبابته نحوها...

لــم يُبــد أحــدًا تجاوبًــا، كــاد باســل أن يُفصــح عمــا بداخلــه لــولا أنــه تــذكر، يعــرف الإجابــة ولا يمكنــه ذِكرهــا، يجــب ألا يُفصــح عــن سِــره لليــوم فقـــــط، ســـيُخبر نبيـــــل، الأســـــتاذ، ســـيُخبرهم جميعهم؛ لكن فلينتظروا للغد.

بعــد صــمتٍ ســاد أرجــاء الفصــل هــا هــي الكلمات تخترق آذانهم:

- صديقي، هو أنا.

التفـــت الجميـــع نحـــو نبيـــل ســـاخرين مـــن إجابتــه، لا يُــدركون مــا تحملــه كلماتــه القليلــة

هـذه مـن بـالغ الأثـر عكـس أسـتاذهم الـذي فَهِـم مـا خلـف كلماتـه وخطـى باسـمًا نحـو نبيـل الـذي وقـف فـي الحـال احترامًـا لمُعلِمـه، لينشـأ بينهمـا هذا الحوار، إذ قال المُعلم:

- أيُمكنـك توضـيح الأمـر لـي؟، أعتقـد أنـي لم أفهمك جيدًا.

وبأنفاسٍ تختنق أجابه واجمًا:

- عنـدما أكـون صـادقًا، مُخلصًـا فـي كـل مـا أفعلـه، سـيكون صـديقي كـذلك، فأنـا مـرآةٌ لـه، وهو لي كذلك.

حقيقـةً، بُهـر الجميـع بكلماتـه! لـم يتوقـع أن تكـون إجابتـه بهـذه السلاسـة التـي كانـت عليهـا؛ عنـدها صـفق زملائـه، يسـبقهم أسـتاذهم الـذي عاد يسألهم:

- ألدى أحدكم غير ما قال نبيل؟

كان يومًا رتيبًا دون حديثهما، بدا نبيل واجمًا؛ لكنه أبدًا لن يُخبره.

بانتهاء يومهما الدراسي حمل باسل حقيبته فوق ظهره وانطلق مهرولًا، حاول صديقه مجاراته واللحاق به دون فائدة، ناداه فلم ينتبه، فقد كان هو كل ما يُشغل باله.

وقف نبيل حائرًا من حاله وقد ظن أنه سيفعلها ويذهب بمفرده متجاهلًا وعده لوالده؛ حث الخُطي كي يمنعه من ارتكاب حماقة أُخرى قد تجعله مُعاقبًا، وصل لحافة النهر وقد غدت (المعدية) راحلة.. ودونما تفكير قفز...

بهذه الأثناء كان باسل يتنقل بين المحلات لاختيار هدية مناسبة لصاحبه، يُدرك تماما

مــدى عشــقه لكُــرة القــدم وللنــادي الأهلــي خاصــةً؛ لــذا قــرر مفاجأتــه بــذكرى مــيلاده وإحضــار شــيئًا مميــزًا، حَــدَّث ذاتــه فيمــا يبحــث عَمَّا يُناسبه:

- آسفٌ يا صديقي، أرجوك سامحني...

مضـــى الوقـــت ســـريعًا، كانـــت الســـاعة تـــدق الثالثــة عصــرًا فيمــا يُهــرول عائــدًا، بيمنــاه كُــرة قــدمٍ فــي جرابهــا، لــم ولــن يلمســها أحــد قبلــه، وبيــده الأخــرى تــي شــيرت لاعبــه المُفضــل قــد غدا لــه، سيســعد جــدًا وسينســى مــا حــدث؛ واثــقٌ من هذا فدائمًا ما يغفر زلاته التي لا تنتهي...

عــاد لبيتــه فلــم يجــد أحــدًا علــى غيــر عادتــه، فوالدتــه التــي نــادرًا مــا تخــرج لــم تكــن بانتظــاره، قــال فــي ذاتــه: لعلهــا ســبقتني لبيــت نبيــل كمــا حــدث بــالمرة الســابقة، لا بــأس ســألحق بهــا؛

بـدل ملابسـه، حمـل هديتـه، هـرول مسـرعًا كـي يُفاجئه، ليضحكا سويًا ويمرحا معًا.

أمـام منزلـه وقـف بُرهـة يلـتقط أنفاسـه ثـم طـرق بـابهم، فعلهـا ثـلاث دون إجابـةً، انتظـر كثيـرًا وبينمـا هـو كـذلك لـم يَبـرح مكانـه، إذ تنـامى إلـى أُذنيـه همسـات عـدد مـن الجيـران فيمـا هـم مُقْبِلـون عليـه، مستبشـرين لرؤيتـه بينهم وقد كانوا قبل قليل يقفون أمام بيت جارٍ لهم فتطلـع إلـيهم غيـر آبهًـا ثـم عـاد يـدق بـاب صديقه بقوةٍ...

- نحمد الله أنكَ بخير.

قـال أحـدهم، فتطلـع إليـه غيـر مُـدرك، جـال ببصـره بُرهـة بيـنهم ثـم بـادرهم بأنفـاسٍ مضطربةً كفؤاده:

- أين نبيل؟ أين ذهبوا؟ أما من أحدٍ هنا؟!

هـرول باكيًـا دون وِجْهَـةٍ، لا يعـرف مـن أيـن يبـدأ، أيـن عسـاه يجـده؟ ولِـمَ يحـدث هـذا بـذكرى مولده؟

سـار شـاردًا؛ فـذكرى مـا حـدث أمـس مـا زالـت تُـداعب مُخيلتـه إلـى أن قادتـه قـدماه لمكانهمـا السِـري، حيـث يُمارسـان طقوسـهما بـالقفز لمركبٍ دائم التحرك دونهما.

فعنـد ذلـك الموضـع بالـذات رأى أُشخاصًـا كُثـر، قسـمٌ مـنهم يبكـي بينمـا الآخـرون يواسـونهم، لـم يُمعـن النظـر كثيـرًا فمـا لبـث أن لَمَـحَ أحـدهم، وقـف مشـدوهًا، عـاجزًا عـن التفكيـر، فـذاك والـده لـيس ببعيـد عنـه، يترقـب النهـر فـي اضـطرابٍ وقلـقٍ شـديدين، وتلـك والدتـه واقفـة بجـواره، لا تنفـك باكيـة. اقتـرب منهما، كاد قلبه أن يقف لرؤيتهم ها هنا:

- ماذا يجري؟

انطلـــق ســـؤاله دون إرادتـــه فالتفـــت الجميـــع نحوه وهرولت والدته جَزعةً تُعانقه:

- الحمد لله أنك بخير.

لـم يفهـم، عـاد خطـواتٍ للخلـف بقلـبٍ تتسـارع خفقاتـه، رافضًـا مـا تبـوح بـه نظـراتهم، بأنفـاسٍ مضـطربة هـا هـو يَرقُـبُ عَينـيَّ والـده الـذي بـدا سـاكنًا رغـم صِـراعاتٍ جَمَّـة بداخلـه، قـد غـدا بصره مُعلقًا بصغيره غير مُصدقٍ.

سـاد الصـمت بيـنهم ومـا إن حـثَّ الخُطـى إليـه حتـى انتبـه لوالـدا نبيـل مـن خلفـه، جالسـين علـى ضـفة النهـر يـتملكهم الأسـى، لا تُفـارق أعيـنهم أولئـك الغواصـون الـذين يبحثـون فـي الميـاه بجِـدٍ عـن أحـدهم، التفـت لوالدتـه التـي عـادت تُعانقـه

علَّهـا تُطمئنـه، ويـا ليتـه مـا فعـل، رَبِتـت علـى كتفه، تذرف الدمع، منتحبة، تواسيه..

- حبيبي، أنا حقًا آسفه...

لـم يفهـم، تطلـع إليهـا بعينـين شـاردتين تغزوهمـا العبـرات دون رحمـة، لـم يُـدرك أنـه مَـن كانـت تعنيـه بكلماتهـا حتـى لحظـتهم هـذه؛ رآهـم يُخرجـون رفيـق دربـه وقـد غـدا مفارقًـا فمَن يصل لتلك النقطة لا يعود مُطلقًا.

تسـارعت الأيـادي تحملـه فـي جـزع؛ انـدفع باسـل نحـوه فَزِعًـا، قـد سـقطت هديتـه لتسـتقر بـالنهر وكأنمـا تُودعـه، ليسـقطا معًـا ولـم يـزل متشـبثًا بـه، لـم ولـن يُصدق أنـه وبتلـك البسـاطة قـد رحـل، قبلمـا يمنحـه فرصـة ليُخبـره أن صداقتهما لن تندثر.

رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك، صديقك.. نبض فؤادك، قد يظن الآخرون أنكما شخصين، جسدين، روحين تآلفتا واجتمعا للمُضي قُدما متشابكي الأيدي دون خوفٍ مما هو آت؛ لكنهم لم يُدركوا ولن يفقهوا أنكما روح واحدة قد وزعت على جسدين اثنين؛ ليفترقا بقدر ما تفترق الدروب وتبتعد الأزمان، حتى ما إن تعودا وتجتمعا من جديدٍ في ثنايا الزمان والمكان، لا تفترقان.. إلا باجتماع روحكما بوداع أحدكما يومًا ما.

نحيب والدته لا ينقطع، عاجزة هي عن ضمه لمُصابها، رافضة ما غدا حقيقة:

- لا، نبيل لم يَمُت، أعيدوا إليَّ ابني.

أُجهش الجميع بالبكاء عدا باسل الذي ضمه إلى صدره وقد غدا متشبثًا بيديه، يُريد

تـدفئتهما بعـدما تسـللت البـرودة إليهمـا، يُهدهـده تـــارة.. وتـــارة أُخـــرى يُمســـد رأســـه بيـــدين ترتجفين، صـارخًا وباكيًـا؛ لتسـتقر عَبَراتـه علـى وجنتـــيّ صـــديقه، هـــي الأخـــرى تُودعـــه، إلَّا أن لحظـات بُكـاءه لـم تَطُـل، بعـدما لمـح ذلـك الجُـرح الغـــائر بجبينـــه إثـــر ارتطـــام رأســـه بحافـــة (المعديـــة) لحظـــة قفـــزه، قَبَّـــل موضـــع جُرحـــه بقلـــبٍ يرتجـــف مُـــدركًا مـــا حـــدث؛ صَـــدَق حينمـــا قـال أنـه سيكون يومًـا مـا قَاتِلـه، فهـا هـو اليـوم قـد أتـى مسـرعًا، لـم يحتمـل؛ مَـال عليـه، همـس بأُذُنه، صَرخ في ندم:

- أنا آسف.

بتلـــك اللحظـــة جـــاء والـــديهما، كـــل منهمـــا يهـــم بحمل صغيره فصرخ آسفًا:

- أنا السبب.

دنـا الإثنـان منـه، بـادر والـده بتهدئتـه ريثمـا يتمكن والد نبيل من حمله فأَبَى وصاح باكيًا:

- ابتعدا.

متطلعًـا لصـديقه، يكـاد لا يـراه لعبراتـه التـي تنهمر، مستطردًا ما بدأ:

- أرجـوك أبـي، لـن أفعلهـا ثانيـة، فقـط أعده إليَّ.

فأجابه باكيًا:

- يكفي...

حُمـل نبيـل بعيـدًا، وسـط صـرخات صـديقه التـي لـم تنقطـع، رغـم محاولاتـه المسـتمرة للتنصل من والده الذي قال آسفًا:

- أرجوك بُنَيّ، هذا لن يُعيده، لقد رَحل.

(الفصل الثاني)

نبض

بانتهاء دوامها في تمام الرابعة عصرًا نهضت مريم تحث الخُطي للخروج؛ لاصطحاب صغيرها من الروضة، لم تنتظر نجاة كعهدها، اعتذرت منها، لا يُمكنها اليوم فأشارت بيدها باسمة تُجيبها:

- لا عليكِ، هيا اذهبي.

لم يكن هذا سببها الوحيد للذهاب دونها، لم تشأ التحدث عما لاقته من مديرها اليوم، تعلم جيدًا أن صديقتها الوحيدة لن تتركها حتى تُفصح عما يُؤرق بالها ويُضيق صدرها؛ قررت الفِرار مِن جِدال لن تكون الرابح به؛ لكن ما لم تعلمه هي أن صديقتها تُدرك كل شيء، قرأت في عينيها ما عجز لسانها عن

الإفصـــاح بـــه، رأت دموعهـــا المقيـــدة وقـــد أرغمتهـا صـاحبتها علـى البقـاء حبيسـةً داخـل حـدود مقلتيهـا، فــ مـريم كعادتهـا تـأبي الإفصـاح بضعفها...

حاملــةً حقيبتهــا الســوداء بمــا تحويــه مِــن ملفــاتِ عملهــا، هــا هــي تحــث الخُطــى نحــو الشــارع، تـذوب فـي ثنايـا ازدحامـه الـذي تشـتهر بـه مـدينتها القـاهرة، لعلهـا تتناسـى ضـغوطاتٍ تُثقـل كاهلهـا يومًـا بعـد آخـر، آملـة بغـدٍ مُشـرقٍ لوحيدها...

دقـت السـاعة الخامسـة والنصـف مسـاءً بينمـا تخطــو نحــو الروضــة بخُطــى واثقــة، حقيبتهــا بيمناهـا وبيـدها الأخـرى تحمـل أغـراضٍ قليلـة قد اشترتها بطريقها.

مضــت بــالممر الرئيســي للروضــة تُطــالع أزهــارًا علــى جانبيــه بديعــة الأشــكال والألــوان ، مُحدثــةً ذاتهــا هــا قــد وصــلت بينمــا تعتلــي ثــلاث درجــات لتــدلف إلــى ممــر جديــد، ولا يفصــلها شــيءٌ عــن صــغيرها الــذي وصــله نســيمٌ رائــعٌ مُحمــلٌ بــأريج زهورهــا مــن خــلال البــاب المفتــوح لمكتــب حنــين ذو الجــدران الورديــة المُزينــة بصــور الصــغار مِمَّــن تخرجــوا بالعــام الماضــي مــن روضــتهم هــذه، علــى أريكتهــا كلاســيكية الطــراز بألوانهــا المزركشــة أبصــرت حنــين جالســة بجــوار مكتبتهــا الصــغيرة بمــا تحويــه مــن كُتبهــا المميــزة، تُطــالع كتابًــا بينمــا كــريم جــالسٌ برفقتهــا، هــادئٌ علــى غيــر عادتــه، شــاردًا قــد مَــلَّ مــن الانتظــار، مــا بيــده حِيلــةً، رحــل الجميــع

سـواهما. فاقتربـت تُصـافح مُعلمتِـه، آسـفةً علـى تأخرها بينما لم يُبدي صغيرها تجاوبًا:

- لا بأس، مُطلقًا.

- أرجو ألا يكون أزعجك.

- لا، لا، قد كان هادئًا.

تطلعـت إليـه غيـر مُصـدقةً، أتتحـدث عنـه أم عـن طفـلٍ آخـر غيـر الجـالس هـا هنـا، أمامهـا؟!
دنــت منــه، أمســكت بيديــه وترقبتــه فــي حِنــو بــالغٍ، واضـعةً رأسـه بـين كفيهـا، تُمعـن النظـر بعينيه قائلة:

- هيا بُنَيّ؛ كي لا نتأخر.

انتبـه مـن شِـروده، ليجـدها أمامـه، تُحـدق بـه والبسـمةُ تعلـو وجههـا ليـزداد إشـراقًا، عانقهـا بقوة لاشتياقه لها، هكذا أخبرها:

- لِمَ تأخرتِ! اشتقتُ إليكِ كثيرًا.

احتوته بذراعيها، هامسة:

- هيا إذا.

عــاد رفقــة والدتــه للبيــت ومــا إن دَلــفَ لغرفتــه حتــى أوى لفراشــه وقــد بلــغ الإرهــاق مِنــه منــزلًا؛ فجــاءت تســأله بعــدما لاحظــت شحوب وجهه:

- أأنتَ بخير؟

إلا أنهــا لــم تلقــى إجابــةً فتحســست جبينــه، قــد كــان يتصــبب عرقًــا رغــم ارتفــاع حرارتــه؛ أصــابها الإضــطراب حينمــا أدركــت الســبب لِمَــا بــدا عليــه مــن شــحوب وجهــه، هرولــت تُحضــر دواء خافضًــا لحرارتــه، اعتــاد تناولــه بأوقــاتٍ كهــذه، لــم تمضــي غيــر لحظــاتٍ وعــادت لتمنحــه

بعض السكينة؛ علها تُخفف ما به من ألم، تناول دواءه دون جدالٍ ثم عاد يستلقي بِفِرَاشِه مجددًا، مَال برأسه يُخبئ وجهه بالوسادة، يَود النوم لكَّنَ آلامه تُأبى الإنصياع لرغباته.

ضمته إليها إلى أن غفا بين أحضانها بعدما جفاه النوم في فراشه، قَبَّلت رأسه، وضعته في فِراشه، دثَّرته جيدًا ثم مضت مُتألمة لتألمه.

إحساس بالذنب يَفتك بها؛ معتقدة أنها السبب فيما أصابه لانشغالها عنه في أيامها الماضية.

خرجت على أطراف أصابعها لئلا تُوقظه، تَحث الخُطى نحو منضدة خشبية تتوسط غرفة معيشتهم فملفاتها لم تزل أكوامًا فوقها،

تأملتها شاردة بأحداث يومها انتهاءً بلقائها والأستاذ/ كمال بمكتبه، فلدى دخولها بادرها بابتسامةٍ فاترة لم تتجاوز حدود شفتيه؛ أدركت ما يجول بخاطره، رغم ذلك اقتربت بخطى واثقة تنظر لذلك الملف الذي قد وضعه من يده للتو على المكتب الفاصل بينهما بحركة غاضبة، قبلما ينطق بحرف ها هي توضح ما كان يجهله:

- دكتور حسين، مَن طلب مِني ذلك، ما كان باستطاعتي مُخالفة أوامره.

فنهض غاضبًا يضرب سطح مكتبه بكفه قائلًا:

- ولِمَ لم تُخبريني بذلك آنفًا؟ ألم أُخبرك ألا تفعلي شيء، أيَّ شيء دون الرجوع إليَّ.

- فعلــت ذلــك؛ لكنــك لــم تكــن بالمكتــب حينها.

فأشار إليها ولا يزال بقمة غضبه:

- أتعلمــين أنــكِ بفعلتــك هــذه قــد تجــاوزتِ حدود وظيفتك.

فقالت في إباء:

- لا سيدي، لم أفعل ذلك بإرادتي، بل كان بِنَاءً على طلب صاحب هذه الشركة؛ أبدًا، لم ولن أتجاوز حدود وظيفتي.

انتبهـت مـن شـرودها وتلـك البسـمة تُـداعب شـفتيها، مذهولــة لكلماتهــا التــي نبعـت منهـا دون تردد، متجاهلة نتيجة فعلها.

ســاعات مــن العمــل الــدؤوب إلــى ان تملكهــا الإرهــاق والتعــب الشــديد لانكفائهــا عليهــا

سـاعاتٍ طـوال؛ رغبـت وبشـدة بإنهائهـا؛ فزوجهـا لا يرغـب برؤيـة مثـل هـذه الملفـات بمنزله، يَمقتُ هذا وبشدة.

طالمـا أخبرهـا.. أن البيـت للـدفء ولا شـيء غيـره، بعيـدًا عـن ضـغوطات الحيـاة برتمهـا الكئيـب وروتينهـا المُمـل الـذي لا مفـر منـه إلا هـا هنـا؛ فـالمنزل نبـع الهـدوء، الطمأنينـة، السَكّن...

شـرعت بجمـع ملفاتهـا الواحـد تلـو الآخـر فـي تمـام الثامنـة لـيلًا؛ لتضـعها جانبًـا كـي لا ينتبـه لوجودهـا ثـم أسـرعت لمطبخهـا لِتُعـد طعامـه قبلمـا يعـود مـن عملـه مُرهقًـا كعادتـه، كانـت بـين الحـين والآخـر تـدلف لــ كـريم، تبقـى للحظـات مسـتندة علـى بـاب غرفتـه، تترقـب أنفاسـه بينمـا يغُـطُ فـي نـومٍ عميـق، تُسـاورها الشـكوك؛ لكـن

سـرعان مـا تطردهـا خـارج عقلهـا؛ لتـذهب مُسرعة.

(...)

بقلـبٍ مضـطرب ووجـه قلـقٍ عـادت لتُوقظـه، تخشى إزعاجه وتأبى تركه نائمًا، فماذا تفعل؟

دار هـذا الحـوار بخُلـدها بينمـا تخطـو نحـوه متـرددةً إلـى أن وقفـت عنـد رأسـه تتأملـه أثنـاء نومـه شـاردة، تكـاد دموعهـا أن تنهمـر أنهـارًا فمقلتيهـا مُحملـةٌ بسـيل جـارف مـن الـذكريات التـي تـأبى مفارقتهـا، قـد عـادت لماضـيها الـذي رحل ولن يعود، فالموتى لا يعودون...

لـولا نـداء زوجهـا الـذي عـاد لتـوه مـن العمـل لظلـت حبيسـة ذكريـات ظنـت عبثًـا انـدثارها، وضـع حقيبتـه علـى المنضـدة الرُخاميـة بجـوار

الباب وأخذ يبحث عنها في جنبات المنزل مناديًا:

- أين أنتِ حبيبتي؟

- هنا، بغرفة كريم.

خرجت تستقبله باسمة الثغر؛ ليلتقيا عند الباب، رغم ما بذله من جُهد طوال يومه من الثامنة صباحًا حتى العاشرة ليلًا، ما زالُ أنيقًا كعادته، قامته المتوسطة تَبعث في قلبها قدرًا عظيمًا من الرضى فكم هما متوافقان بأمورٍ شتى، عينيه الضيقتين، جسمه النحيل نوعًا ما، بذلته الرصاصية التي اقتنتها هي له منذ يومين فقط أضفت عليه اتساقًا واضحًا، خُصلات شعره القصيرة تنافس الليل بلونها، قسمات وجهه الصغيرة وإن بدت مُرهَقه فبسمته لا تنقطع، سَعِدَ لرؤيتها، قَبَّلَ جبهتها

ثُم عاد ينظر بعينيها ليكون أسيرهما دقائقه التالية، فدائمًا ما يقع صَريعًا لسحرهما الذي لا ينتهي؛ وضعت كفها موضع قلبه، تُبادره مستبشرة:

- كيف كان يومك؟

دونما يرفع بصره عنها ها قد وضع يده على راحتها، كأنما يرجوها أن تبقى هنا، يشعر بالطمأنينة بقربها:

- بخير، وأنتِ؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب دونما تنطق بحرف؛ حينها انتبه لهدوء منزلهم وصمته القاتم؛ فسألها:

- ما الأمر؟! أين اختبأ؟ لِمَ لم يستقبلني كعادته؟

ظـل يَرقبهـا بعينـين مضـطربتين وقلـب كـاد أن يُصـرع؛ للحظـات صـمتها التـي تجـاوزت المـدى، قسـمات وجههـا لا تخلـو مـن القلـق، لاذت عينيهـا بـالفِرار بعيـدًا كلمـا التقـت بنظراتـه الحـائرة، رَبَـتَ علـى كتفهـا مطمئنًـا فبادرتـه وفـي مقلتيها سيلٌ جارفٌ مِن العبرات، كاد ينهمر:

- حرارتـه مرتفعـة، منحتـه دواءه؛ لكـن بلا جدوى.

- لا بأس سيكون بخير، لا تقلقي.

كـان هـذا آخـر مـا ينتظـره بليلتـه هـذه، سـار إليـه جلـس بجانبـه علـى حافـة فراشـه، مسَّـد بيـده علـى رأسـه فيمـا هـو نـائمٌ، قَبَّـل يديـه، طبـع قُبَّلـة بـين عينيـه ثـم طمأنهـا باسـمًا رغـم مـا يُكابده من آلام لحال صغيره:

- سيغدو بأفضل حالٍ في الصباح.

تطلعت إليه تود تصديقه؛ لكن كيف وحالته هذه التي تراها بأُم عينيها؟ فَهِم ما يجول بخاطرها، فقال متصنعًا بسمة علها تُذهب ما يؤرق بالها:

- إنه بخير، صدقيني سيغدو كذلك.

ثم نهض إليها يحثها على الخروج آخذًا بيدها:

- هيا حبيبتي، لا تنزعجي بهذا القدر، تعلمين أنه قويٌ كوالده وسيتجاوز أزمته هذه.

وأطفأ نور غرفته وخرجا معًا...

- ثوانٍ وسيكون طعامك جاهزًا

هكـذا أخبرتـه فيمـا تمضـي مُسـرعة لتُحضـر الطعـام بينمـا دخـل هـو لغرفتـه، يُبـدل ملابسـه بأخرى مُريحةً عن تلك التي دائمًا ما تقيده.

....*..*

جافاها النـوم، جلسـت بجـواره فيمـا هـو فـي نومـه تمـده بكمـادات ميـاه بـاردة لعَلَّهـا تُخفـض مـن حرارتـه وتُـذهب آلامًـا تفتـك بـه، تـدعو الله أن يحفظه.

استيقظ كـريم عنـد بـزوغ الفجـر فَزِعًـا، يكـاد يغـرق عرقًـا، يرتجـف؛ لشـدة مـا لاقـاه مـن إحسـاس بـالبرودة أصـابت جميـع أوصـاله، ليُفاجـأ بهـا بجانبـه تقـاوم آلام ظهرهـا لبقائهـا طـوال ليلتهـا جالسـة بجـواره؛ ارتعـدت حـد المـوت فيمـا يـئن ألمًـا لِمُصـابه إلـى أن غلبـه النوم من جديد بين أحضانها؛ لشدة إعيائه.

استيقظ عند السابعة ليُفاجأ بذاته لا يزال بين أحضانها فيما هي نائمة بجواره قريرة العين والفؤاد بعدما انخفضت حرارته، قَبَّلها في وجنتيها ضاحكًا ما إن رآها تفتح عينيها لينفذ ضوء النهار إليهما؛ فتطلعت إليه دَهِشة، تسأله:

- كريم! ماذا تفعل هنا؟!

قَبَّلها مجددًا ثم هرول خارجًا وضحكاته الآسرة تملأ فضاء بيتهم.

اعتدلت بجلستها متثائبة، لتتضح لها ملامح غرفة كريم من سرير ضئيل لا يتسع إلا لصغيرها ودولاب من جزئين بلون أُرجواني، لُصقت به مكتبة صغيرة تحوي قصصه المُصورة وجميع ألعابه، من خلفهما جدران فيروزية تعشق لونها؛ عندها تذكرت ما كان

باللیلـــة الماضـــیة، بدایـــة مـــن مرضـــه حتـــى لحظتها هذه.

(الفصل الثالث)

ثنايا الذكريات

ليست واثقة إذا كان ما فعلته صائبًا أم لا، لا بُد من ذهابها للعمل فماذا ستفعل؟ كان عليها اصطحابه للروضة برغم ما بدا عليه من وَهَّن، أوصت حنين عليه، أخبرتها بما أصابه أمس وناولتها دواءه، لتمنحه إياه في موعده؛ فبادرتها حنين ببسمة حانية اعتلت وجنتيها عَلَّها تُطمئنها قائلة:

- لا بأس أستاذة مريم، سيكون بخير، لا تشغلي بالك مُطلقًا.

صافحتها مودعةً ثم أخذت بيد كريم ودلفا لصفه معًا ليكون بين أقرانه، يمرح ويتعلم معهم أشياء جديدة سيسعد بها.

تمـــام العاشـــرة صـــباحًا قالـــت المعلمـــة بوجـــهٍ بشوش:

- هيـــا يـــا صِـــغاري، قـــد حـــان موعـــد الحكاية.

بينمـا حنـين جالسـة بحـديقتها تستنشـق عبيـر زهورهـا إذ بالصِـغار يصـطفون بصـفوفٍ ثـلاث ويُقبلــون نحوهــا فــي تنــاغم ظــاهرٍ تُــرافقهم معلماتهم لسماع قصتهم من البداية.

التفـوا مـن حولهـا فـرحين فشـاركتهم بهجـتهم ضـاحكة مستبشـرة وجلسـت بيـنهم، حاملـةً بـين راحتيهـا كتـاب الحكايـا بمـا يحويـه مـن قصـص جميلـة ذات مغـزى وغايـة، رسـوماتها الملونـة تأخذ عقولهم ليسبحوا في دنيا الأماني.

قالت باسمة:

- والآن يــا صِــغاري ســأحكي لكــم قِصـــة جميلة، عنوانها (الصديق الكاذب).

كـان يـا مـا كـان فـي سـالف العصـر والأوان، كان في صديقين اثنين هما (ماهر، باهر).

مــاهر يــا صِــغاري كــان دائمًــا مشــاغب، يُثيــر المتاعـب والخـوف بقلـوب رفاقـه، ظنًـا منـه أنـه بـذلك سينال وُدَهم ويكـون القائـد، كـان يملـك كـل شـيء يرغـب بـه؛ فوالديـه يحرصـان دائمًـا علـى تلبيــة مُـرَادِه؛ لكـن أتعلمـون مـا حـدث بعـد ذلـك، لــم يملــك صــديقًا واحــدًا فقــد نبــذه الجميــع، لــم يرغبـوا بمرافقتــه يومًــا ولــو دقــائق، أوتعلمــون السبب؟

قالوا جميعًا بصوت واحد:

- لأنه مشاغب.

- لـيس هـذا وحســب يـا أحبـابي، فهنـاك المزيد عن باهر.

فقال أحدهم:

- ماهر.

- ماذا؟!

- ماهر وليس باهر.

تطلعـت حنـين نحـو صـاحب الصـوت وإذا بهـا تُفاجـأ بــ كـريم بوجهـه الباسـم وعينـين حـائرتين تبحث عن جوابٍ، فأردفت قائلة:

- أجـل يـا صــغيري؛ لكنــي ســأُحدثكم الآن عن باهر.

كــان بــاهر محبوبًــا مــن الجميــع، الصــغير والكبير، أوتعلمون السبب؟

فأومـــأوا برؤوســـهم علامـــة الســـلب ليكـــون جوابهم:

- لا.

- أحــبَّ الجميــع دون مقابــل، كــان مَرحًــا، صــادقًا، بشــوش الوجــه، يســاعد الجميــع عــن طيب خاطر فمَلكَ قلوبهم دون منازع.

وهــذا مــا أثــار غضــب مــاهر، لــم يشــأ بــأن يكــون الخاســر، لــذا خطــط لشــيء ســيء ليكــون الفــائز؛ ادَّعــى يومًــا أن تلــك الدُميــة التــي يملكهــا صـــديقنا بـــاهر هـــي بالأســـاس مِلـــكٌ لـــه وأن صــديقهم هــذا قــد ســرقها منــه بعــدما ألــح عليــه بمشــاركته باللعِّــب، وأنــه قــد خبأهــا أيامًــا عديــدة، ولم يُبدها إلا اليوم، اليوم فقط.

فتطلــع الجميــع غيــر مصــدقين نحــو بــاهر الواقــف أمــامهم هــا هنــا، لا يملــك مــن الكلمــات مــا يُــدافع

بـه عـن ذاتـه ودُميتـه الصـغيرة؛ ليغـدو باكيًـا فابتعد الجميع مُصدقين حديث ماهر.

- كاذب.

التفـت الجميـع نحـو بـاهر مـن بيـنهم ذاك المُخـادع، ظنًـا مـنهم أنـه تحـدث أخيـرًا؛ لكـن مـا لـم يعلمـه الجميـع بمـا فـيهم بـاهر أن هنـاك شـيئًا مـا يحـدث هـا هنـا سـيكون حـديث القاصـي والداني؛ فدُميته تلك قد قالت لتوها:

- كـاذب، لـم أكـن يومًـا ملكًـا لـك، بـل لصديقي باهر.

- وهل تتحدث الدُمى؟!

كان كريم مَن سألها مُندهشًا فأجابته باسمة:

- لا يـا صـغيري، الـدُمى لا تتحـدث؛ لكـن فـي قصـتنا هـذه عنـدما يكـون أحـدهم كـاذب، قـد

خدع الجميع بحديثه وصار المظلوم غير مُدافع؛ فدميته ستتحدث وتقف بوجه الظالم كأسدٍ كاسر، لتحمي صاحبها من إنسانٍ غادر، ارتضى الكذب كي لا يكون الخاسر.

انتهت الحكاية وعادوا جميعًا لصفوفهم تسابقهم ضحكاتهم، جلسوا بمقاعدهم بينما هرول كريم لحقيبته وأخرج رفيقه الذي ما كان غير دُمية سوداء اللون كثيفة الشعر تُثير الرعب بمَن يُبصرها للوهلة الأولى؛ شعر بهدوء شديد بين أحضانها، ليُغمض عينيه قائلا:

- أحقًا ستدافع عَني.

عند الظهيرة، كادت حنين أن تنسى لولا ذاك الإتصال الهاتفي الذي تلقته من مريم لتُذكرها بموعد دواءه؛ نهضت في الحال

حاملة قنينة دواءه وذهبت إليه بصفه فما كان بين أقرانه، سألت مُعلمته حائرة:

- أين كريم؟!

فتطلعت حولها غير مُدركة، لتقول حينها مُشيرة بيدها نحو كُرسيه الشاغر:

- لا أدري!، كان هنا منذ ثوانٍ.

عادت حنين للبحث عنه خارج صفه، فعلت بالصفين الآخرين قبل حديقتها تُرافقها إحدى مُعلماته إلى أن وجدته باكيًا ليس ببعيد عن مكتبها فهرولت إليه جزعة، تخشى أن يكون مُصابًا بضررٍ بالغ، دنت منه وسألته بينما تُمسد بيدها على رأسه مستفهمه:

- ماذا حدث حبيبي؟ أبكَ شيء؟ أخبرني.

تطلع إليها في براءة ودموعه ما تزال تنهمر، يُمعن النظر بعينيها وكأنما يراها للمرة الأولى ليقول في ألم:

- فاضل، رَحل.

- ومَن يكون فاضل هذا؟ أهو شخصٌ أعرفه؟

فأومأ برأسه أن لا، ثم عاد لبكاءه الذي كان فوضعت رأسه بين راحتيها لتقول حازمة:

- توقف عن البكاء، وأخبرني مَن يكون فاضل هذا؟

- أعتقد أنه يبحث عن هذه.

جاءها الصوت من خلفها فنهضت لترى مَن تكون صاحبته؛ لِتُبصر مُعلمته والتي رافقتها

للبحث عنه منذ دقائق، تخطو نحوها حاملةً بين راحتيها دُميةً صغيرة أصابتها بالفزع.

(...)

لم يكن يومها جيدًا على الإطلاق، ابتداءً من مرض كريم ووصولها مرةً أخرى متأخرة، إلى تنقلاتها بين مكاتب الشركة كي تُنهي عملها الذي لا ينتهي، انتهاءً بتذمر رئيسها المباشر دونما سبب.

أفكار عديدة تزاحمت بعقلها مُسببة لها الضيق فيما هي جالسة خلف مكتبها تؤدي مهام وظيفتها، لم تكن بشوشة الوجه كعهدها، بل لازمتها طوال اليوم نظرة متشائمة جعلتها بلحظة ما عاجزة عن التنفس، بينما نجاة بين الفينة والأخرى ترمقها بنظراتٍ حائرة، تود سؤالها والتخفيف

عن كاهلها وبذات الوقت تخشى جوابها، واثقةٌ هي بعدم إفصاح صديقتها عما يؤرقُ بالها؛ لكنها ما إن رأتها شاحبة الوجه عاجزة عن التنفس حتى هرولت إليها فَزِعَة، لمساعدتها:

- مريم، ما بكِ؟

إلا أنها لم تُجب فبلحظةٍ ما كادت تفقد وعيها لولا نجاة التي أبت استسلامها، لحظاتٍ انقضت عليهن كدهرٍ بقدر ثقلها إلى أن عادت الدماء لتتدفق بعروقها، مُعلنة زوال ما بها، لتعاودها أنفاسها وينتظم نبضها.

جلست نجاة على كُرسيّ بجوارها تلتقط هي الأخرى أنفاسها بعدما رأتها باسمة رغم مُصابها، ليحل الهدوء ضيفهما دقائق فقط؛ فهاتف مريم أعلن عصيانه وعلا رنينه بما

يثيـره فـي الـنفس مـن ضـجر، تناولتـه بيمناهـا مـن فـوق مكتبهـا بينمـا ترمـق صـديقتها فـي تردد قائلة:

- مَن يا تُرى؟!

أجابت:

- مساء الخير، مَن معي؟

تنـامى إلـى سـمعها ضوضـاء شـديدة، لـم تتبـين مـن صـوت مُحـدثتها التـي عـادت تُكـرر جملتهـا سوى:

- أسـتاذة مـريم، أرجـو أن تَلحقـي بـي فـ كريم، ليس بخير مطلقًا.

رغـم انهيارهـا وانزواءهـا بعيـدًا.. بأنفـاسٍ متـرددة ودوار كـاد يصـرعها موضـع قـدميها

لخفوت نبضها، ليُحال وجهها أسودًا كليلةٍ مُظلمة، ها قد نهضت.

قد نُصرع، قد نُلام على أحداثٍ، ليست من صُنع أيدينا؛ لكننا نلقى كل الضجر من أُناسٍ ظنناهم يومًا ملجأنا إن حل الألم.

لقنتها العنوان فيما هي شاردة بحال صغيرها؟ لم تمنحها فرصة لتسألها فَمُحدثتها قد أغلقت هاتفها دون تردد، أعادت الاتصال بيدين ترتجفان فلم تُجيبها، فعلت مراتٍ عديدة دون فائدة؛ فُزعت نجاة لحالتها التي غدت عليها، مضطربةً هي، جزعةً، خائفة، مترددة. سألتها:

- مريم، ما الأمر؟ ماذا بكِ؟

ومريم ما تزال في اضطرابها تسير يُمْنَة ويسرة غير مُدركة خُطوتها التالية، أخذت

حقيبتها وهرولت مسرعة دون الالتفات لنداءات نجاة، تُذكِرُها أنها ما تزال الثانية عشر والنصف.

وصلت للمستشفى غير متيقنة إذا ما كان العنوان صائبا، بحثت كثيرًا، هرولت هنا وهناك بغير وجهة إلى أن قادتها قدماها لإحدى غرف الكشف؛ لتُفاجأ به ممددًا على أحد الأسِرَةَ فاقدًا للوعي فيما أحد الأطباء قائمًا يفحصه، شرع بقياس نبضه ومن ثم حرارته آمرًا الممرضة بمنحه المغذي لتفعل من فورها، فها هي قطراته قد بدأت تصل لوريده علَّها تنقذه بينما حنين جالسة على كُرسي بجواره، ممسكة يده، شاردة الذهن، واجمةً، باكية فيما ممرضةٌ أخرى قد خرجت لتوها حاملة عينة من دمه إلى المختبر.

عــادت ببصــرها نحــو نافــذتها؛ لِتُفاجــأ بـــ حنـين قـد نهضـت فزعـة بينمـا الطبيـب يُحـدثها بوجــه جِـدُ قلـقٍ، فهرولــت نحــو البــاب يســبقها تمــزق فؤادهــا لحــال صــغيرها، تجاوزتــه بــذات اللحظــة التـي تطلـع فيهـا للممرضــة آمــرًا إياهــا باستدعاء د/ مراد، فهرولت مُلبية:

- ما الذي يجري؟

كــان سـؤالها بــذات اللحظــة التــي ضـمت فيهـا كـريم لصـدرها فيمـا هـو فـي سُباتٍ غيـر مُـدرك لِمَــا يــدور مــن أحــداثٍ جِــدُ قاســية، ومــا كــاد الطبيب يسألها:

- مَن أنتِ؟

حتـى أقبـل الـدكتور/ مـراد مهـرولًا نحـو الصـغير غيــر آبهًــا بمَــن كــان حاضــرًا تتبعــه ذات الممرضــة التــي هرولـت لاسـتدعائه آنفـا، فحـص

نبضـه، حرارتـه، تطلَّـع لبؤبـؤى عينيـه برهـة ثـم أبعـد أناملـه لتعـود جفونـه وتسـترخي مُخفيـةً طيـف ضـحكاتٍ كانـت تسـتوطنهما، شـرع بفحـص ذراعيـه، سـاقيه، جسـمه؛ ليُصـعقوا جميعًـا بتلـك الأثـار الداميـة التـي لـم تتـرك موضعًا بجسمه النحيل إلا وجعلته موطنًا.

تطلـع نحـو السـيدتين الـواقفتين بجانبـه، بينمـا كانتـا تتطلعـان للصـغير عـاجزتين عـن اسـتيعاب ما يرونه بأُم أعينهن:

- أيكما والدته؟

تعلقـت الأبصـار بـ مـريم علهـا تملـك إجابـة حـول مـا أصـاب صـغيرها، بعينـين زائغتـين قـد سـال دمعهـا تطلعـت نحـو الطبيـب بعـدما أعـاد سـؤاله عليهـا؛ لتتبعثـر حـروف سـؤالها لشـدة اضطرابها:

- ما هذا؟ ماذا أصاب صغيري؟

- اهدئي سيدتي، لعله أمرًا عابرًا.

فتعلقت بكلماته، مُتمنية صدق حديثه:

- أحقًا.

فاستطرد موضحًا:

- بحـول الله سـيغدو كـذلك، فقـط لنتأكـد؛ علينا إخضاعه لعدة فحوصات.

قـال كلمتـه فيمـا يحثهمـا علـى مرافقتـه فتطلَّعـت لـ حنـين التـي بادرتهـا بالشـد علـى يـديها مُطمئنـة إياهـا بينمـا أسـرعت الممرضـة بـدفع الصـغير علـى سـريره النقـال لغرفـة الفحـص، راجـين المـولى - عـز وجـل - أن يكـون إنـذارًا كاذبًا.

أُجريـت فحوصـاتٍ جِـدُ قاسـية لــ كـريم، جعلـت مـريم بِحالــة يُرثـى لهـا مـن البكـاء والـذُعر، بـل كـادت أن تُجـن فيمـا تتطلـع إليـه عبـر النافـذة الزجاجيـة لغرفـة الفحـص، آلمهـا بحـق فكيـف لصغيرها أن يحتمل!

(الفصل الرابع)

وإن غدوت راحلًا

- ستمضي الحياة.

كلماتٌ جِدُ مؤلمة نبعت من والديه ليغدو باكيًا؛ كيف سيفعل وصديقه رفيق دربه قد رحل؟! ألا يملكان قلبًا نابضًا! كيف يفعل وقد رحل مَن رحل! أَنَى له ذلك وفي القلب غُصَّة لم تزل!

أَبَى وداعه، لم يذهب لآخر لقاء بينهما على أرضهم الطيبة، قال متألمًا:

- كيف لي أن أفعل وأنا قاتله، أنا المُلام وإن قالوا غير قولي، لن يعود بينهم...

بذهاب والديه لوداع صاحبه، عاد من جديد لينزوي بغرفته، بعيدًا، وحيدًا، باكيًا، شاردًا

بأحـــداث يـــومٍ قـــد مضـــى، إذ بانتهـــاء يومهمـــا الدراســـي الأول عنـــد الواحـــدة كعهـــدهما منـــذ أن التحقـــا بهـــذه المدرســـة قبـــل أربـــع ســـنوات قـــد خلـــت هـــا همـــا يُهـــرولان للقـــاء والـــده بـــالبر الغربـــي لمدينتـــه، محبوبتـــه، كمـــا يُحـــب أن يـــدعوها دائمًـــا: الأقصـــر محبـــوبتي، بمعالمهـــا وتراثهـــا الـــذي لا مثيـــل لـــه غيـــر هـــا هنـــا، بالتقـــاء عـــالمين مختلفـــين علـــى هـــذه الأرض الطيبـــة، بشـــعبها وعبقهـــا البـــاقين هنـــا منـــذ قـــديم الأزل، بنيلها الفياض بالخير دائمًا.

أســـرعا الخُطـــى بأيـــادٍ متشـــابكة كـــي يصـــلا قبـــل رحيـــل (المعديـــة) نحـــو آثـــار أجـــدادهما؛ قفـــزا إليهـــا وقـــد انطلقـــت دونهمـــا كعهـــدها، نجحـــا بـــذلك وإن غـــدا أحـــدهما متـــرددًا، فـــ نبيـــل بـــدا فَزِعًـــا، مضـــطربًا مـــا إن لامســـت قـــدماه أرض المعديـــة،

قد تسارعت أنفاسه دون إرادته فـ (الأدرينالين) لديه بأعلى مستوياته، لم يملك من أمره شيئا حينها، جلس أرضًا يلتقط أنفاسه واضعًا حقيبته بجواره محاولًا تهدئة أعصابه، عابثًا بِخُصلات شعره الأشعث، مُتطلعًا نحو اللا شيء بعينيه الضيقتين قد ذهبت ابتسامته ماحية بريق بشرته الداكنة، ملامحه الهادئة بدت أكثر رُعبًا وكأنما قد رأى شبحًا يُطارده نقيض باسل الذي أضحى بقمة سعادته ليزداد وجهه اشراقًا بنجاحهما، ليغدو صائحًا:

- فعلناها...

- ستقتلني يومًا بفعلتك هذه.

فوجئ باسل بقوله، رمقه بنظرةٍ حائرة، ليته يعلم ما الذي يعنيه؟ بدا له حينها غاضبًا،

يعتصر فؤاده ألمًا لكلماته هذه، سار إليه ووقف أمامه مستفهمًا:

- ماذا؟!

فنهض مُغاضبًا عاقدًا ذراعيه أمام صدره، مُعرضًا بوجهه قائلًا:

- تعلم أني لا أجيد السباحة مثلك، وفي كل مَرةٍ تُرغمني على القفز من هذه المسافة البعيدة، أما كان بإمكاننا انتظار معدية أخرى؟!

- وتفوتنا متعتنا هذه!

فتطلع إليه مُستنكرًا:

- حقًا، لا يَصح.. أستكون سعيدًا إذا ما سقطت بالمياه وغرقت حينها، أخبرني، أستكون كذلك؟!

تقَبل كلماتـه النابيـة بمرارتهـا وابتعـد، ريثمـا يهـدأ فـلا يُمكنـه مجادلتـه بحالتـه تلـك. يعرفـه جيدًا فهمـا صديقان منـذ ست سنواتٍ خلـت، من يومهمـا الأول بالروضـة وهمـا معًـا، وإن بـدت لحظـتهم تلـك نـذير خطـر إلا أن فـي طياتهـا الحب والود الذي لن ينقطع.

ترجَّـل بمفـرده بـين جنباتهـا لينقضـي الوقـت سـريعًا، كانـت تعـج بالمسـافرين بمختلـف فئـاتهم وأعمـارهم، بدايـة مـن هـذا الشيخ الكبيـر الـذي يتكـئ علـى أحـد أبنائـه لطـول عُمـره وانحنـاء ظهـره مـرورًا بعـدد مـن العمـال والمـوظفين الـذين ينتمـون لـذات العمـل لتوحـد زيهـم، لأولئـك التلاميـذ الجالسـين بأحـد الأركـان يتحـدثون ويتسـامرون فـي مـرح غيـر عـابئين بطـول

طريقهم، انتهاءً بذاك الرضيع على يد والدته وكأنما تحول لكتلة من نور يشعِ ضياءها.

ظل نبيل طوال رحلتهما النيلية هذه متجنبًا إياه، مُتصنعًا الغضب، يُدرك هذا جيدًا، لن يرضى نصفه الآخر بإيلامه وان كان محقًا في كل ما يفعله، باقترابهم من اليابسة، هرول ليقف أمامه مُبشرًا:

- كدنا نصل.

ليدب الذُعر في قلبه وتضطرب أنفاسه ما إن تفاجأ به يتطَّلع إليه بعينين مُغرقتين بدموعٍ توشك أن تنهمر، عانقه بقوة معتذرًا عَمَّا بدر منه آنفًا.. وما إن بادر باسل بحديثه حتى أُجهش باكيًا؛ لتتدثر حروف كلماته، عاجزًا عن البوح بمكنون صدره، وما أن تحدث نبيل ليزيل عنه ولو قدرًا ضئيلًا من اضطراب

فـؤاده حتـى ازداد تشـبثًا بـه وكأنمـا يخشـى وقـعَ كلماتٍ عن فِراقٍ بينهما.

وصـــلا لـــوادي الملكـــات تُســـابقهم ضـــحكاتهم كُـل مِنهمـا يحمـل حقيبتـه علـى ظهـره، يسـيران متجـاورين فـي فخـر وحبـور، بـدا نبيـل أكثـر طـولاً مـن صـديقه المُفعم بالحمـاس والثقـة فيمـا يســير بجــواره، للوهلــة الأولــى تظنــه ســائحًا لعينيـه الأخـاذتين، كأنمـا تنـافس السـماء بلونهـا وصـــفائها، لبيـــاض بشـــرته التـــي لا تتفـــق وخصـال هـذه الأرض الطيبـة، تجـولا معًـا بـين جنبـات تاريخهمـا الـذي طالمـا أبهرهمـا بجديـد أسـراره؛ يبحثـان عـن والـد باسـل الـذي جـاء إلـى هنـــا منـــذ ســـاعات الصـــباح الأولـــى كمرشـــدٍ ســياحيّ لإحــدى الأفــواج القادمــة مــن دولــة

أوروبيـــة لا يـــذكرا اســـمها، فـــذاكرتهما لا تستوعبها مطلقًا.

بحثـا طـويلًا حـد الإرهـاق. التجـول هـا هنـا، بـين جنبـات هـذا الجمـال الآسـر يـدفعك دفعًـا لتجاهل مـا بِكَ من ألـم، بعد سـاعاتٍ مـن البحث المضـني كـاد اليـأس أن يتسـلل لقلبيهمـا لـولا أنـهما سمعا مَن يُناديهما مُتعجبًا:

- باسل، نبيل، ماذا تفعلان هنا؟!

تطلعـا نحـو مصـدر الصـوت، فـإذا بوالـد باسـل يُقبـل نحوهمـا متعجبـا! للوهلـة الأولـى قـد تظنـه بطـلًا لألعـاب القـوى، فكـم بـدا طويـل القامـة، مفتـول العضـلات، عـريض المنكبـين. أضـفت ملامحـه الداكنـة وقسـمات وجهـه الحـادة شـيئًا مـن الوقـار عليـه، بـدا كلاهمـا مضـطربًا فيمـا هـو مُقْبِل نحوهما مُستطردًا:

- ما الذي جاء بكما إلى هنا؟! ألم آمركما بعدم فعل هذا بعدما حدث في المرة السابقة؟!

لم يملك باسل من أمره شيءٌ حينها، خفض رأسه بينما يُجيبه آسفًا:

- أجل.

ثُم سرعان ما رفع رأسه بعض الشيء ليُطالعه خِلسة مُردِفًا:

- لكننا أردنا التعلم منك، فهذا المكان يحوي الكثير من الأسرار التي نرغب بمعرفتها، والعديد من اللغات التي نوَدّ التحدث بها.

فضحك والده لكلماته هذه وبدا نبيل قَلِقًا مما هو آتٍ لفعلهما بعدما غدا مُستفهمًا:

- هل والدتك تعلم بمجيئك إلى هنا؟

كـان الصـمت جوابـه لـولا نبيـل الـذي تحـدث فجـأة لينقذ ما بقى، هكذا ظن حينها:

- لا سيدي، لم يخبرهـــــ...

مـا كـان ليصـمت لـولا أن باسـل وكـزه فـي يـده مُحــذرًا، يعــرف والــده جيــدًا، لــن يهــدأ لــه بــال حتــى يضــمن عودتهمــا ســالمين وان كلفــه ذلــك المزيـــد مـــن الجـــزاءات بعملــــه، حَـــدَّث نفســـه مُعاتبًــا إياهــا، يكفيــه مــا حــدث بســببنا وهــرول عائدًا مُعتذرًا، آسفا ونبيل في أثره:

- آســفٌ أبـــي، أعــدك ألا يحــدث هــذا ثانيـــةً، سنعود للبيت، لا تقلق علينا.

(...)

عـادت بـه تحملـه للبيـت، يلفهـا صـمت يـؤرق قلبهـا، هادئـة هـي، صـامتة علـى غيـر عادتهـا، وضـعته فـي فِراشــه، دثرتــه جيـدًا؛ ليـنعم بنــومٍ هــانئ بعــد فحوصــاتٍ أجهدتــه، ومــا إن همــت بــالخروج حتــى تنــامى إلــى سَــمعها كلمــاتٍ حـررت دموعهـا لتجـد طريقهـا خـارج مقلتيهـا؛ لعَّـل جمـر فؤادهـا أن ينطفـئ، بقـول كـريم الـذي استيقظ لتوه وأبصرها لدى الباب:

- أُحبكِ أمي.

أسـرعت عائـدة، قَبَّلتــه بـين عينيــه، فعانقهـا فـي شــوق لتحتويــه هــي بــذراعيها هامســةً بأُذنــه بينما تُجفف دمعها:

- وأنا كذلك بُنَيّ...

بحلــول المســاء، جلســا معًــا يتنــاولان طعامهمــا شــاردين؛ فمــا مــرا بــه اليــوم كفيــل بجعلهمــا مســتكينين ولا رفيــق لهمــا ســوى الصــمت، تمــام التاســعة خَلَــدَ كــريم للنــوم بينمــا ظلــت والدتــه بجانبــه تترقبــه، تبكــي تــارةً وأُخــرى شاردة وكأنها ليست بحَيّ.

يجــول عقلهــا بعيــدًا بحــديث الطبيــب الــذي عكــف عــن إخبارهــا بشــيء اللهــم إلا كلمــاتٍ مقتضبة، زادتها توجسًا مما يُخبئه الغد:

- ســننتظر نتــائج الفحوصــات ثــم نَشــرع بالعلاج وفقًا لِمَا تُحدده.

لــم يملــك الشــجاعة ليُفصــح عــن شــيء، فكلمــة واحــدةً فــي غيــر محلهــا كافيــة بــأن تعصــف بهــا لكونهــا بمفردهــا أمــام حقيقــةً باتــت وشــيكة وإن

بدت صغيرة؛ حتمًا ستهوي لغياب سَندِها، زوجها بهكذا ظرف.

فمنذ الصباح الباكر سافر للإسكندرية للقيام بمهام عمله كمهندس مدني، يُشرف على إنشاء مبنى ما هناك، ولن يعود قبل يومين، كان هذا أشد ما آلمها، أن تغدو وحيدة في مواجهة مصابها الذي كان، والذي ما زالت تجهله حتى لحظتها هذه، ما بيدها حيلةً.. ستنتظر؛ لَعَلَّ هناك من خير.

أحاطه الظلام دقائق لا يعلم قدرها، ضوضاء صاخبةً تفتك برأسه، تكاد تصرعه غير مبالية، بُكاءٌ وعويلٌ يجهل مصدره؛ لكنه حتمًا بجانبه، يتسلل الخدر إلى أوصاله ليبقى مُكبلا لاشتداد آلامه فيما هو ممددٌ وسط

الحُطـام، وذلـك الضـوء الخافـت المنبعـث مـن تلـك السـيارة التـي اسـتقرت أمامـه رأسًـا علـى عقـب يُـداعب عينيــه؛ لــئلا يســقط فــي بئــر مظلــم، لا عــودة منـــه وإن حـــاول جاهـــدًا، بـــين الـــوعي وفقدانـــه بقـــى زمنًـــا يتهـــاوى بـــين خيالاتـــه المتتابعــة إلــى أن أبصــر زوجتــه تســير نحــوه بِخُطــى وئيــدة، رغــم تذبــذب رؤيتــه اســتطاع رؤيتهــا؛ لتلــك الهالــة التــي تُحــيط بهــا؛ تزيــدها إشـراقًا فـوق إشـراقها، تحملهـا سـنتيمترات عـن الأرض لـــئلا تطأهـــا بأقـــدامها؛ لكنهـــا مـــا إن صارت نُصبَ عينيه حتى تلاشى طيفها.

اسـتيقظ ياسـين فزعًـا، لاهثًـا، يتصـبب العـرق مـن جبينـه؛ ليُفاجـأ بزوجتـه جالسـةً بجانبـه علـى حافـة فِراشـه تُطالعـه بعينـين مضـطربتين ووجـه

شــاحب لحالتــه التــي غــدا عليهــا، تُمســد رأســه بيُسراها ليهدأ قائلة:

- لا بـــأس حبيبـــي، مجـــرد كـــابوس..

وانتهى.

انتظمــت أنفاســه، فعــاد يُغمــض عينيــه مــا إن أدرك أنــه مــا كــان غيــر ســرابٍ يُطــارده، ليُحــال الأمــر حقيقــة بضــحكات صــاخبة عجــز عــن احتمالهــا أو تصــديق مــا تُبصــر عينــاه التــي مــا إن فتحهمـــا حتـــى رآهـــا مُمـــددةً علـــى الأرض أمامــه، قــد تلاشــى نبضــها، وخَفُــت بريقهــا، فيمــا كــريم جــالسٌ عنــد قدميــه مُتطلعًــا إليــه بعينــين داميتين وكدمات شتى تُخفي معالم وجهه.

اســتيقظ فزعًــا، اعتــدل جالسًــا، واضــعًا يــده موضـــع قلبـــه ليســـتكين خفقانـــه؛ لـــئلا يُصـــاب بنوبـــةٍ مفاجئـــة، نهـــض عـــن فِراشـــه وبِخُطـــى

متثاقلــة اتجــه نحــو نافــذة غرفتــه بالطــابق السـادس مـن فنـدق إقامتــه، فتحهـا علـى مصـراعيها ليستنشـق نسـيم البحـر الممـزوج باليود علَّه يستعيد شيئًا من توازنه.

ظل مستيقظًا، عـاجزًا عـن إسكات عقلـه دائـم التفكير، فما رآه بحلمه لم يُفارقه لحظة.

(الفصل الخامس)

حنين

لأيامٍ غدا شرود ذهنه دائمًا؛ فطيف صديق راحلٍ لم يزل رفيق حاضره، رغم محاولات والديه لمواساته دون فائدة؛ فالقلب مُنفطر وكأنما توقف الزمن عند تلك اللحظة التي رأى فيها نبيل ميتًا، تنهمر المياه من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه، فآثر الموت حيًّا على الحياة دونه، عزف عن الطعام، الابتسام، الذهاب لمدرسته، بات سجين غرفته.

عندما تجاوز الحد المدى لم يُطق والده صبرًا أن يراه مستسلمًا للموت يومًا بعد آخر دون المحاولة؛ لا بُد من المجازفة وها قد فعل؛ فذات صباحٍ حمله حملًا رغم صراخه

وضـــرباته المتتاليـــة، أخرجـــه مـــن غرفتـــه، ثـــم المنـــزل وســـار بـــه حتـــى وصـــلا لتلـــك النقطـــة الفاصلة، حيث النهر وذِكرَاه الباقية.

أجلســـه أرضًـــا رُغمًـــا عنـــه متجـــاهلًا بُكائـــه الـــذي لـــم ينقطـــع، مُحـــدثًا إيـــاه بحقـــائق لا يـــود مواجهتهـــا؛ فباسل مـــا إن تنامـــت لأذنيـــه مـــا سَمِعَ من كلماتٍ حتى غدا صارخًا:

- كفى.

واضـعًا يديـه فـوق أُذنيـه؛ كـي يصـمت فمـا فعل، هَـمَّ ليُغـادر إلا أن جسـده الهزيـل أبـى مطاوعتـه بأوقاتـه العصـيبة وتهـاوى بأحضـان والـده الـذي احتـواه بيديـه فـي شـجن، عَلَّـه يسـتكين ويهـدأ بكلمـاتٍ نبعـت مـن صـميم فـؤاده إذ تطلـع بعينيـه قائلًا:

- بُنَـــيَّ، لَســـتَ مســـئولًا عمـــا حـــدث، لســـتَ مُلام لموت نبيل.

- ثِق أننا نُحبك.

جـاء الصـوت مـن خلفهمـا فاسـتدار فزعًـا ليُفاجـأ بوالـــد صـــديقه يخطـــو إليهمـــا باســـمًا مُســـتطردًا حديثه:

- فلـــتعلم أننـــا كمـــا نحـــن، لـــم ولـــن نتخلـــى عنـــك، ولـــو كـــان نبيـــل هـــا هنـــا، لأخبـــرك بهـــذا، فأنتَ الصاحب والرفيق طوال دربه.

فعـاد ليضـع كفيـه فـوق أُذنيـه لـئلا تنفـذ كلماتـه إليهما، صارخًا:

- توقف.

إلا أنـه مـا فعل بـل دنـا منـه يُمعن النظـر بعينيـه الـذابلتين ووجهــه الشــاحب لكثــرة بُكائــه ومــا غدا عليه من وَهَّن، مُردفًا:

- ثُـم.. ألـيس هـذا بقسـمكم الـذي أقسـمتموه ذات يــوم، أن تظــلا مخلصــين، وفيــين مهمــا لاقيـــتم مـــن صـــعوبات الحيـــاة أم أنـــكَ قـــد استسلمت...!

(...)

لـم تخلـو أيامهـا مـن المشـاكل التـي لازمتهـا لتغيبهـا المتكـرر بسـبب مـا فيـه صـغيرها مـن ألـم فخـلال الأسـبوع المنصـرم، لـم يتبـدل حالـه كثيـرًا فهـو كمـا هـو بـرغم تناولـه لدوائـه الـذي منحـه الطبيـب إيـاه ذلـك اليـوم، انتظـرت علـى مضـض لتتبـين نتـائج الفحوصـات فـي حـين غـدا مـديرها دائـم الغضـب، يتـذمر لأتفـه الأسـباب وإن لـم تكـن

لها يد بكثيرٍ من المغالطات والمهاترات التي أُثيرت بالعمل؛ ونجاة كعهدها تحاول معرفة كل شيء، تبغي مساعدتها وإن كانت تجهل حقيقة وضعها، سألتها مرارًا وتكرارًا فكانت إجابتها الدائمة والمقتضبة طوال الوقت:

- لا شيء.

لم تُخبر زوجها بما حدث ولم ينتبه هو للتغير الذي طرأ على كريم من شُحوب وجهه ونُحُول جسمه عن ذي قبل؛ فبالكاد لا يراه، يخرج وبزوغ ضوء النهار فيما لا يزال صغيره نائمًا ولا يعود إلا ومنتصف الليل، تَذكُر أنها حاولت ذات يوم فما أنصت بحرف؛ لِتؤثر الصمت بعدها مُحدثةً ذاتها: لعله

مهمومًا بشيء، لرُبما يملك من المشاكل ما لا يُحتمل.

عندما حان الوقت الذي حدده الطبيب آنفًا، حملت صغيرها وانطلقت للمستشفي مستبشرة مُطمئنة القلب، لَعَلَّ هناك من خيرٍ بانتظارهم؛ لكن سرعان ما عادت تُحدث ذاتها فيما ترتقي درجات سلم المستشفى قائلةً:

- لَعَلَّه الهدوء الذي يسبق العاصفة...

لتعود بعدها مُطمئنة:

- ولَعَلَّها ما كانت بعاصفة.

جلست صامتة، تضم صغيرها إليها تنتظر دورها، بينما هي كذلك إذ أبصرت الدكتور/ مراد، يُقْبِلُ إليها بقامته الطويلة مهرولًا، رغم

سنوات عمره التي لم تكد تتجاوز التاسعة والثلاثون فقط تسلل الشيب لخصلات شعره ليُحال رَماديًا؛ ليُضفي رهبةً فريدة بنفس مَن يُبصره؛ وما إن غدا أمامها، يدعوها لمرافقته بصوته الهادئ:

- أستاذة مريم، تفضلي معي.

حتى نهضت من فورها واضطراب فؤادها يُزداد تَواتُرا، بل كادت تختنق، بِخُطى وئيدةً رافقته لمكتبه، حاملة صغيرها على كتفها فيما يغط في نوم عميق، ترددت كثيرًا بالولوج من ذات الباب الذي دخل منه آنفًا ليستقر بمقعده خلف مكتبه مشيرًا إليها بالجلوس فبادرته متسائلة:

- ما الأمر؟

- لا يُمكننا التحدث هكذا، أرجوكِ إجلسي.

ففعلت على مضض، لعل في هذا انتهاء دوامتها التي تأبى الثبات بغير تحطيمها.

لحظات عاصفة تفتك بنا، أجل أعني تلك اللحظات التي يتحتم علينا أن نصدح بالحقيقة كاملة؛ فتتلعثم حروف كلماتها بين شفتينا، تأبى إخبارنا، أحقيقي ما نحياه أم مجرد تُّرَّهَاتٍ من نسج خيالنا وما حلمنا به بعد سنواتٍ عِجاف صار أثرًا بعد عينٍ، يُغادرنا غير آسف.

قال آسفًا:

- أستاذة مريم، أود مُحادثتك اليوم كوني أخٍ لكِ وليس كطبيب، ما أود قوله أن هذا الأمر جَدُ قاسٍ؛ لكن لا بُد من مواجهته بشكل حازم...

تشبثت بصغيرها وكأنما تستمد قوتها منه، قَبَّلته في مفرق رأسه ثم عادت تتطلع إليه لترى انعكاس وجهها بعينيه الزرقاوين لشدة صفائها. هادئة هي، صامتةً كحجر أصم، تتلعثم حروف كلماتها بين شفتيها بينما يستطرد حديثه بقلب منفطر:

- كريم، مُصاب بـ (لوكيميا)، سرطان الدم.

ظن أنها ستنهار أو ستبكي لهول ما سمعته؛ لكن شيئًا من هذا لم يكن، فقط اكتفت بكلمات أصابته بالصمت:

- ومتـــى ســنبدأ العــلاج؟ أرجــو ألا يكــون اليوم.

- أأنتِ بخير سيدتي؟!

إلا أنهــا وبــرغم عــدم انتباههــا أومــأت برأســها شـاردةً أجل ثـم خرجـت حاملـة صـغيرها الـذي قـد اســتيقظ للتــو مــن نومــه؛ لتُقبِّلــه بــين عينيــه هامسة إليه:

- هيــا بنــا حبيبــي، ســيكون كــل شــيء بخير.

(الفصل السادس)

رَحيلُ نبض

عــاد باســل لمدرســته لإرضــاء والديــه، جاهــد ليتـــنفس مـــلء رئتيـــه والســـير بِخُطـــى واثقـــة متظاهرًا بأن كل شيء عاد بخير.

مضـــى يومـــه الأول ثقـــيلًا بقـــدر مـــا تحملـــه مدرســـته مـــن ذكريـــات كانـــت بـــالأمس القريـــب ســـعيدة، فمـــن الوهلـــة الأولـــى لتخطيـــه البوابـــة الحديديـــة لمدرســـته باتـــت العيـــون مُعلقـــةً بـــه، تهـــامس الأقـــران وغيـــرهم مـــن خلفـــه وأمـــام ناظريه:

- لقد عاد!

ظـن عبثًـا أنهـم سيسـعدون بعودتــه فمــا وجـد غيــر النفــور والهجــر عــدا اثنــين أو ثــلاث فقــط أقبلـوا إليــه فـرحين بعودتــه، عــانقوه فــي شـوقٍ، مســرورين بوجــوده بيــنهم رغــم مــا أصــابه إذ قال أحدهم:

- اشتقنا إليكَ كثيرًا.

وقال الثاني:

- نحمد الله أنكَ بخير.

بينمــا رَبِــتَ الثالــث علــى كتفــه واكتفــى بعناقــه مرة ثانية هامسًا بأُذنه:

- أهلًا بكَ...

فتطلــع إلــيهم بعينــين مُغــرقتين بالــدمع، يُجاهــد آلامــه كــي لا تنجــرف عبراتــه كالســيل، حــاول

عبثًا رسم ابتسامة زائفة على وجنتيه، مُدَّعيًا السرور رغم انفطار قلبه.

في طابور الصباح وقف شاردًا وكأنما ليس بعالمهم يَنعمُ بالنبض، حتى عندما نهره المعُلم ليُردد تحية العلم تطلع للأفق حيث يُرفرف عاليًا وقد لاحت على وجهه بَسمةً خجولة رغم الحُزن الدفين بمُقلتيه إذ رأى صديقه ملتحفًا علمهم باسم الثغر، مشيرًا إليه بيده كي يبتسم واضعًا تلك الإشارة على وجنتيه، هكذا خُيِّل إليه، لتنهال دموعه دون رادع أو خجل مِمَّن باتوا يتطلعون إليه بعيون ملأها الحزن.

داخل صَفه، جلس بمقعده وحيدًا بعدما كانا يتشاركان كل شيء، انقضت الحصة

الأولى، الثانية، الثالثة، يكاد ينتصف النهار وهو كما هو صامتٌ، ساكنٌ، لم ينتبه ولو لحرفٍ واحدٍ مما قيل اليوم، كان بين الفينة والأخرى يتطلع جانبه الأيسر، على مقعده الخاوي لعله يلمح طيفه ليشعر بالدفء؛ لكنه وفي كل مرةٍ يفعل ذلك يجده خاويًا، باردًا دون نبض.

يومين، ثلاث، انقضى أسبوع والحال كما هو، لا جديد يُوحي بالخير؛ ففي كل يوم يفشل عن اليوم الذي قبله برغم ما أُتيح له من تيسيرات بمدرسته والبيت؛ فالحُزن يستوطن قلبه الغَضَّ؛ ليغدو مُتجردًا من كل شيء، لم يَعُد له رغبة بادِّعاء الحياة وقد رحل رفيق الدرب، مَن أخبره دومًا أنه لن يترك يده ، لن

يدعــه يســقط قــط؛ ورغــم ذلــك نكَــثَ وعــوده تلك...

ذات مســـاءٍ أصـــابته حُمـــى شـــديدة جعلتـــه حبـيس فراشــه أيامًــا عديــدة، ولــم تُبــدِ عقــاقيره الطبيــة جــدوى فــي شِــفائه، عجــز والــداه عــن مواســاته أو التخفيـف عنــه رغـم مــا بـذلاه مــن جهــد، ليســتكين قلبـــه وتنـــدثر آلامـــه، قالهـــا الطبيب صَراحة:

- ابنكمـــا لـــيس مُصـــابًا بمـــرضٍ عضـــوي، إنمــا هنــاك مــا يمزقــه ويعجــز عــن تجــاوزه مهمــا بذلتما من جهد.

مُشـــيرًا بيـــده موضـــع قلبـــه، ليســـتطرد نـــاظرًا إليهما:

- لا تُرغمـــاه علـــى فعـــل مـــا يكـــره، فهـــذا أشـــد مـــا يؤذيـــه، ولـــن يكـــون تصـــرفًا رشـــيدًا إن فعلتما.

ســافر باســل رفقــة والديــه للإســكندرية، للبعــد عــن تلــك الضغوضـــات وذكـــراه الباقيـــة ببقائـــه بذات الأرض، قال الطبيب:

- يحتاج للنسيان.

فكانـــت خطتهمـــا الســـفر، ظنًـــا منهمـــا أنهمـــا ســـينجحان بـــذلك، لتتـــدثر ذكريـــاتٍ جِـــدُ مؤلمـــة، لتحـــل محلهـــا ضـــحكات، بســـمات، كانـــت بـــالأمس القريب تملأ حياته طولًا وعرضًا.

انقضـــت الأيـــام دون نتيجـــة، عـــاجزًا عـــن البـــوح بمكنـــون قلبـــه فالصـــمت أضـــحى رفيـــق، بـــات يَلفُـــه دون هَـــوَادَة، لتتهـــاوى أنفاســـه، تـــود

قتلـه ولا رغبـة لـه بـالرفض؛ فلـم يجـدا بُـدًا مـن العودة به للبيت.

(...)

لـم يعـد ياسـين للبيـت منـذ أن أخبرتـه بمـرض ابنهمـا وإصـابته بسـرطان الـدم؛ بـدا مضـطربًا، حزينًـا، عـابس الوجـه، حاولـت مواسـاته فلـم يتقبل كلماتها ودفعها غاضبًا، صائحًا:

- أخبرتِك أنه سيعود.

- ياسـين، أرجـوك.. هـذا لـيس وقتًـا للتـذمر، ثـم مـا بيـدنا حيلـة، فلنتحلـى بالصـبر ليمر بسلام.

ليُجيبها بذات النبرة:

- عـن أي صـبر تتحـدثين، آه، أخبرينـي، كيف لي بفعل ذلك؟ كيف لي بالبدء من جديد!

ثـم انفجـر باكيًـا كمـا لـم يبكـي مـن قبـل؛ حاولـت مواسـاته، اقتربـت منـه تربـت علـى كتفـه، تُجفـف عبراته، تُخبره بخيرٍ قادم:

- سـيكون بخيـر، سـنتجاوز هـذا أيضًـا، أعُدك بذلك.

فأبعـد يـديها لينظـر بعينيهـا غاضـبًا ولا يـزال ممسكًا يدها بقوةٍ، ليقول غير ناسيًا:

- لا، يكفيني ما حدث.

- ماذا تعني؟!

ترقرقـت الـدموع بمقلتيهـا فيمـا تـراه راحـلًا، غيـر عـابئ بصـغيره الـذي مـا كـاد يخطـو خطواتـه الأولـى بالحيـاة إلا وتوقـف كـل شـيء، صـار حبـيس فِرَاشِـه والبيـت، فروضـته مـا عـادت مـن أولوياتـه بهكـذا ظـرف، بـات الأمـر

شـبه مسـتحيلًا؛ فآلامـه تعصـف بـه لأقصـى حـد ليخضـع لجلسـات عـلاج كيمـاوي مـا يزيـد عـن إسـبوعين متتـاليين؛ ليتهـاوى كـل شـيء كخُصـلات شـعره الحريـري التـي تسـاقطت بـين راحتيـة كقطـرات المطـر مُودعـة ضـحكات عينيه.

ساءت حالتـه، بكـى بِحُرقـة؛ يـئن ألمًـا، حُزنًـا، افتقـادًا، شـوقًا ولا يُمكنهـا مواسـاته أو رسـم بسـمة علـى شـفتيه، افتقـادًا ليـدٍ حانيـةً ليسـت بيـدها؛ تَربِـتُ علـي كتفـه، اشـتياقًا لقلـبٍ نـابضٍ يمـده دفئًـا، عَلَّـه يمحـو صـقيعًا يختـرق أوصـاله، يُميـت قلبًـا تهـاوت دفاعاتـه فيمـا لـم يـزل بعيـدًا عنه.

ذهبـت إليـه بِخُطـى وئيـدة، مُرغمـةٌ هـي وكأنمـا غـدت مُكبلـة بالأصـفاد؛ فأمـام هـذا وذاك

وعواصف ذكريات لم تزل تُداعب بريق عينيها وخفقان نبض راحل غير آبهًا مما هو آت، ها هي تشق طريقها نحو مكتبه بينما الجميع منهمكون بأعمالهم، يُهرولون من هذا المكتب إلى ذاك، كُلٌ منهم يسعى جاهدًا لتحقيق ما يربو إليه فيما عداه، كان قابعًا خلف مكتبه لا يبذل جُهدًا سوى نظراته الحائرة نحو اللا شيء، خطت إليه بَخُطى ثابتة إلى أن صارت نُصَب عينيه تترقبه عَلَّه ينتبه من شروده وينظر إليها، يُبادلها بسمةً عابرةً لانفطار قلبٍ يتداعى بأنين الذكريات، عندما لم تلقَ إجابة ببقائها بهذا المكان أفصحت عَمَّا لديها من كلمات:

- ياسين، علينا التحدث، لا يمكنك تجاهلنا هكذا وكأننا لم نعنِ لكَ......؟

فمـا أمهلهـا فرصــة، فبمجــرد عودتـــه لحاضــره الــذي يخشــاه مودِّعًــا مــا كــان مــن سُــبات حتــى غــادر مقــر عملــه فــي الحــال، تاركًــا إياهــا وسـط نظــرات زمــلاءه الآســفة لحالتهــا التـــي بَــدت عليهــا، ومــن يومهــا أقســمت أنهــا لــن تعــود، ستمضي وحدها بالحياة.

عـــادت بحـــذر؛ فبعـــد انقطاعهـــا لإســـبوعين كـــاملين توقعـــت ألا يكـــون لهـــا مكـــان بيـــنهم، لا شـــك لـــديها أنهـــا قـــد فُصـــلت منـــذ زمـــن، أرادت التأكـــد بنفســـها؛ لـــذا لـــم تتـــردد لحظـــة بالـــذهاب، رأتهـــم يتطلعـــون إليهـــا بقلـــق مـــا إن وطـــأت مقـــر الشـــركة بقـــدميها، شـــعرت بـــأعينهم تُلاحقهـــا أينمـــا ترجلـــت؛ فحثـــت الخُطـــى نحـــو مكتبهـــا الـــذي

كـان؛ لتُفاجـأ بـــ نجـاة تسـتقبلها فرحــة، تُعانقهـا ضاحكة لتقول غير مُصدقة:

- مــريم، أيــن اختفيــت الفتــرة الماضــية؟! اتصلت بكِ كثيرًا؛ لكن دون فائدة.

- آسفة، لم أقصد...

- علـــى أيّ حـــال لا بـــأس.. أهـــلًا بعودتـــك، اشتقتُ إليكِ كثيرًا...

- وأنا كذلك.

- إجلسي، فلديَّ الكثير لأخبرك به.

اتخـذت مجلسـها بـذلك الكرسـي عـن يمينهـا فيمـا تتطلـــع إليهـــا دهشـــةً، حـــائرةً، متســـائلة، بمـــا ستُخبرها؟ بقـرار فصـلها، أم بشـيء آخـر يفـوق احتمالهـــا؟ جلســـت نجـــاة علـــى كُرســـي بمقابلهـــا تستطرد حديثها:

- لن تُصدقي ما حدث.

لكـن؛ وقبلمـا تتلقـى صـدمتها الأولـى رأت العامـل قـد جـاء مسـرعًا، يـدعوها فـي الحـال فالمـدير يـود حضـورها؛ أومـأت برأسـها أن أجـل فيمـا تـنهض مُرغمـة؛ لا منـاص، الأمـر لا يحتمـل المـزاح ولا بُـد مـن المواجهـة، تطلعـت لـ نجـاة قلقة فيما تقول آسفه:

- لنـرى مـا سيُفصـح عنـه الأسـتاذ كمـال، أرجو ألا يكون غاضبًا.

- لا عليـكِ حبيبتـي، فقـد رحـل. د/ حسـين مَن طلب رؤيتك.

فقالت غير مُدركة:

- ماذا؟! كيف؟ ومتى كان ذلك؟!

- سـأخبرك لاحقًـا، اذهبـي، هيـا.. لا تجعليـه ينتظر أكثر.

بِخُطى متـرددة سـارت نحـو مكتبـه، طرقـت البـاب ثـلاث ووقفـت تنتظـر حتـى سـمعت صـوته يـدعو الطـارق للـدخول، ففعلـت علـى مضـض، رأتــه جالسًـا خلـف مكتبـه يُمعـن النظـر بملـف أمامـه يعتلـي وجهـه الضـيق والألـم فقالـت وقـد جَفَّ حَلْقُها:

- صباح الخير سيدي، أطلبت رؤيتي؟

فقال غير ناظرًا إليها:

- أجل، اقتربي ، هيا اجلسي.

مشـيرًا بيـده نحـو الكُرسـي الـذي أمامـه، حـائرة هـي، تُريـد اخبـاره؛ لكـن تعجـز عـن البـوح،

تتلعـثم كلماتهــا بــين شــفتيها كلمــا همَّــت بـذلك، فتطلع إليها غاضبًا:

- مـريم، مــاذا أصــابك؟! لِـمَ تقفـين هكـذا! هيا اجلسي...

- أنــــا حقًّــــا آســـــفه، لتغيبـــــي عــــن العمـــــ........؟

فصاح غاضبًا:

- مـريم، كُفِّـي عـن ذلـك واجلسـي، لنـرى كيف سنتصرف في مُصيبتُنا هذه.

فاقتربـــت مُســـرعة، لا تفهـــم عـــن أي شـــيء يتحـدث! تناولـت الملـف مـن أمامـه تُمعـن النظـر بــه، تُقلــب أوراقــه، دقــائق مضــت ومــا تــزال تبحـث بـين ثنايـاه إلـى أن اسـتوقفها عـدد مـا، تطلعت إليه دهشة لتقول غير مُصدقة:

- كيف هذا؟ مَن فعل ذلك؟!

- أتذكرين ذلك الملف الذي أحضرتيه إليِّ وقد غَضِب كمال، بشدة لفعلك دون إخباره، هو ذاته؛ لكن هذه هي المعلومات الحقيقية وليس ما حواه الآخر.

جلست في ذهولٍ، يتملكها الصمت، غاضبةً، تكاد عيناها تذرف دمعًا؛ كيف له أن يسرق ربَّ عمله، مَن كان دومًا عونًا له بكثير من أزماته:

- وماذا سنفعل سيدي؟ كيف سنتجاوز ذلك؟ والأستاذ كمال، ماذا بشأنه؟

- إنه قيد التحقيقات الآن، ما بيدنا حيلة.. سننتظر ما ستنتج عنه تحقيقات النيابة.

هـا قـد رحـل، بـدا ضـعيفًا حينهـا، أجـل، ربمـا لعجـزه عـن مواسـاتها ومـد يـدُ العـون لصـغيرهما قـد فعـل؛ لـيس بمقـدوره أن يُعـاد هـذا أمـام عَينيـه، لـيس قويًـا كمـا يظنـون، ليقـف شـامخًا، آسـفٌ لحالـه، لحالهـا، لحـالهم؛ لا يسـتطيع مداواة آلامه فالجُرح غائر.

عنـدما تأسـرنا الهمـوم، ويرحـلُ الراحلـون؛ ليبقـى مَـن بقـى فـي جحيم السـكون، حينمـا يلـوذ المـدافع إلـى سـراديب الشـجن وذكريـاتٍ لـم تـزل حاضرةً رغم اندثار الزمن.

عنـدما يشـيب الوليـد ويُبصـر مَـن سَكَّن، رغـم خفقـان قلـب انـزوى وتهالـك نـبض غـدا منـدثرًا لفعلهم، يَصيحُ عَبثًا، أما من سبيلٍ لِنَعُد.

عـاد لمنزلـه القـديم يَجُـر خيباتـه وكثيـر مـن الندم، وإن انقضـت سـنوات ظـن عبثًـا انـدثارها؛ ها هي تعود جَليَّةً؛ لتُباغته بضرباتها جُملةً.

علـــى مـــدار أيامـــه المتشـــابهة تظـــاهر باللامبـالاة أمـامهم، أنـه بخيـر، لا شـيء يشـغل بالـه، حياتـه تسـير وِفـق مخططـه، أتقـن فعـل ذلـك عـن جـدارة فَصـدقوا؛ وإن مـات كَمـدًا لـن يعود مُجددًا.

واصـل الليـل بالنهـار، عمـل جاهـدًا، لَعَلَّـه يتناســى مــا عــاد يُطــارده؛ فكــوابيس ليلــه لا تنقطــع، رؤى عديــدة أصــابته بــالهلع؛ ومــن حينها ما عاد شيئًا كما كان مطلقًا.

(الفصل السابع)

موطني

رَسَبَ...

إخفـاق تلـو آخـر، للعـام الثـاني علـى التـوالي يعـود خائبًـا، الرفـاق مـن حولـه يتقـافزون طَربًـا، يضـــحكون ويمرحـــون، يُهنئـــون أنفســـهم وزملائهـــم بنجـــاحٍ بـــات بيميـــنهم فيمـــا باســـل يُحـدق بنتيجتـه عـابس الوجـه، حزينًـا، غيـر مُصـدق، كيـف هـذا وقـد بـذل كـل جُهـده طـوال العـام لينـال الـدرجات العُـلا فمـا وجـد غيـر الرسـوب مُجـددًا، إحسـاس مقيـت يدفعـه للبكـاء في حسرةٍ؛ ورغم ذلك ما فعل.

ترجـل بـين زمـلاءه مطـأطئ الـرأس، خجـلًا، تتـراقص العَبـرات فـي مُقلتيـه تُوشـك أن تنهمـر؛ ليبـدو ضـعيفًا بنظـرهم، خـرج مـن مدرسـته دون

وِجهة، الطرقات ضيقة رغم اتساعها، يكاد لا يرى أمامه فوجوه المارة حوله تتلاشى شيئًا فشيئا، وكل ما يشغل باله: بماذا سيُخبر والديه؟! هل سيثقون به وقد فشل؟ استفاق من شروده ليفاجأ بذاته واقفًا أمام قبر صديقه، لعله يجد في رفقته ما يَرفُق بقلبه المُثقل بالألم.

انقضى النهار بطوله دون انتباهه، ففي بقاءه بهذا المكان يُعيد للنفس بهاءها، يشعر بذلك، فصديقه الغائب ما زال حاضرًا بوجدانه، وإن رحل جسده فروحه، طيفه، همساته، ضحكاته باقية، تلحق به أينما حَلَّ وذهب؛ مال على قبره يهمس إليه وعلى وجنتيه بسمة مترددة:

- صديقي، وإن صِرت تحت الثرى
فأنتَ في قلبي، ستبقى أسير.

دقت الساعة لتُعلنها تمام السابعة ليلًا ولم يَعُد، والدته قلقة، مضطربةً، حزينة لتأخره، لا يَطيب لها مجلس وصغيرها مفقود للحظتها هذه، دموع عينيها أبت السكون بمقلتيها فاندفعت مسرعة، مُرغمة هي على البقاء بمنزلها لرُبما يعود ولا يجدهما، هكذا أخبرها زوجها الذي خرج للبحث عنه منذ الثانية ظهرًا وإلى الآن لم يعُد أو يُهاتفها؛ كي يُطمئنها ويُثلج صدرها.

ساعاتٍ من البحث المُضني دون بريق أمل، رافقه خلالها والد نبيل والأستاذ صادق،

لـم يتركـوا موطئًـا إلا وبحثـوا فيـه راجـين المـولى - عـز وجـل - أن يَـرُده إلـيهم سـالمًا؛ محطـتهم الأخيـرة لا بُـد منهـا إلا أن والـده لـم يستطع، ما كـان ليُصدق أنـه قد يمر ولـو صُدفة من هنـا؛ فقـد كـانوا حينهـا أمـام مركـز الشـرطة التـابعين لـه يتجـاذبون أطـراف الحـديث فيمـا يُحـاولان إقناعـه بمرافقتهمـا، علَّهـم يجدونـه بـين جنبـات هـذا المبنـى الماثـل أمـامهم لأي سـبب كـان، لـم يكـن اعتقـادهم مـن فـراغ ففـي الفتـرة الأخيـرة أثـار الكثيـر مـن القلاقـل التـي اسـتوجبت بقـاءه خلـف القضـبان لسـاعات، إلا أنهما عندما لم يجدا غير الإعراض:

- وعـدني ألا يفعـل، أثـق بـابني تمـام الثقة، لن يخذلني.

حتى عادا برفقته للبحث بمكان آخر يرافقهم الصمت تارة، وتارة أخرى يتحدثون دون ملل، كادوا يقتربون من نهاية الشارع حينما قال والد نبيل آسفًا:

- لو نبيل، بيننا؛ لَعَلِم مكانه في الحال.

واصلا سيرهما غير منتبهين لعدوه بالاتجاه الآخر، لم يُدركا ما فعل إلا حينما لاحظا صمته الذي طال؛ فتطلعا إليه معتقدين أنه ما زال يسير بينهم، لمحاه يعدو دونهم فلَحِقا به، حاولا مجاراته غير مدركين سبب ما فعل! فَهِمَ والده أخيرًا أنه مَن كان يلجأ إليه عند أول عقبة تواجهه، تذَّكر كل شيء ما إن قال والد نبيل كلمته، عاتب حاله وبشدة بينما يعدو لمكان صغيره، كان عليه إدراك ذلك منذ زمن.

اختفى في ثوب الظلام، فذلك الضوء الخافت المنبعث من عامود الإنارة المضاء بالشارع لا يُظهر معالم الطريق جيدًا، تطلعا حولهما، هرولا هنا وهناك دون نتيجة وكأنما قد شُقت الأرض نصفين ليكون بين طياتها.

دقائق قليلة مضت عليهما كالدهر ثقيلةً إلى أن رأوه يُقبل نحوهما حاملًا باسل بين يديه فهرولا إليه في لهفة لحالته التي كان عليها، فقد بدا لهما فاقدًا للوعي إلا أن والده بادرهما مطمئنًا:

- لا عليكما، إنه بخير...

مضى به للبيت لعَلَّ والدته تستعيد روحها التي فارقتها بغيابه لهذا الزمن، فلا شك لديه أنها ظلت تبكي حتى أدمت عيناها، بات متيقنا برؤيتهما وقد استحالتا حمراوين لحظة

هرولتهـا نحوهمـا جَزعـة مـا إن سـمعت وقـع خطواتـه تسـتقبلهما؛ ليتملكهـا ذُعـر شـديد كـاد يعصـف بهـا لرؤيتهـا لوليـدها دون حِـراكٍ بـين يديه، وما إن زاد نحيبها حتى قال مطمئنا:

- لا بـأس، إنـه بخيـر، فقـط؛ يحتـاج للنوم.

ضـمته إليهـا غيـر مصـدقة ثـم شـرعت تُقَبّـل يديـه، ووجنتيـه، تُمسـد رأسـه بيـدين تـرتجفين، لتعـود وتُقَبّلـه بـين عينيـه، بقـي بأحضـانها زمنًـا قبلمـا تضـعه فـي فراشـه وتُـدثره جيـدًا؛ لتَخـرج مطمئنة الفؤاد بعودته...

إلا أنهـا فوجئـت مـا إن دَلفـت لغرفتهـا ورأتـه يجمـع بعضًـا مـن ملابسـه بحقيبـة سـفره، قـد بـدا قلقًـا، مضـطربًا فاقتربـت منـه لعلهـا تملـك مـن الأمـان مـا تمـده بـه؛ لكنـه أبـدًا مـا كـان ليُنصـت،

بـل بادرهـا بقـراره الـذي لا رجعـة فيـه، عليـه المجازفـة وإن كـان الـثمن باهظًـا، قـال غيـر مُداعبًا:

- سنغادر، ما عاد يُمكننا البقاء هنا.

- ولكن.

(...)

لـم تـنم مـن ليلتهـا غيـر سـاعة؛ لتسـتيقظ فزعـة بعـدما رأت كابوسًـا مزعجًـا بمنامهـا، أَبَـت عيناهـا الانصـياع لوهَنهـا وظلـت يقظـة، مـاذا تفعـل؟! كيـف سـتُقنعه بالعـدول عـن قـرار رحـيلهم، عـن ماضـيهم وحاضـرهم ومـا كانـا يأملانـه معًـا علـى أرضـهم، تململـت فـي فراشـها ضَـجِرة، بينمـا زوجهـا يَغُـط فـي نـومٍ عميـق غيـر آبـه لحالهـا، انسـحبت مـن جـواره بهـدوء وحـذر،

لئلا توقظه، تُشفق عليه بعدما لاقاه بيومه خلال بحثه عن صغيرهم...

خرجت من غرفتها بأنفاسٍ لاهثةٍ وقلبٍ منقبض، حائرةٌ هي، تدعو الله أن يلهمهما الصواب في كل أفعالهم، يضيق صدرها برحيل بات مُحتمًا، فماذا هي صانعة؟

تجولت بأنحاء منزلهم تتحسس كل شبرٍ منه باكية، كأنما تستمد قوتها من جدرانه الصماء بما تحفظه من ذكرياتٍ جِدُ سعيدة؛ فعلى تلك الأريكة قُرب النافذة والتي لا تتسع سوى لاثنين فقط، كانا يجلسان حينما أخبرها بترقيته بالعمل، وبهذه الغرفة من خلفها أنبأته بحملها، وبتلك البقعة نُصب عينيها خَطى باسل أُولى خطواته بالحياة على هذه السجادة التي نُسجت خيوطها بِحُب، ذلك

التابلوه الخشبي الذي يُزين مدخل بيتهما بما يحويه من آيات قرآنية نُقشت بماء الذهب بخط عربي رائع على خلفية سوداء لتظهر كلوحة فنية متناسقة الألوان كان أول شيء اشتروه سويًا من أثاث بيتهما الدافئ.

كان عليه الانتظار ليوم وليلة؛ كي ينال تذكرته للسفر بالقطار إلى القاهرة، ألحت زوجته عليه كي يبقى، قالت في أسى:

- عادل، أرجوك لا تفعل، يُمكننا معالجة الأمر، باسل سينسى.

ظل يُحدق بوجهها المضئ كالبدر ليلة اكتماله بينما يتحدثان بشرفة منزلهم يترقبون شروق

الشـمس كعهـدهما منـذ أن كانـا طفلـين صـغيرين وقـد ظنَّـت أنهـا قـادرة علـى إقناعـه ببقـائهم بـين الأهل والأصدقاء بكلماتها فما فعل.

تَـذكُر جيـدًا ذلـك اليـوم الـذي رأتــه فيـه يحتـل مكانهـا الخـاص بالشـرفة يَرقِـبُ شـروق الشـمس قبلهـا، كانـا بِعُمـر العاشـرة حينمـا التقيـا للمـرة الأولــى ببيــت جــدهما لوالــديهما؛ فمنــذ نعومــة أظفــاره رحــل والــده لظــروف عملــه للقــاهرة وبطبيعــة الحــال رافقــه، اقتربــت منــه عاقــدة ذراعيها أمام صدرها غاضبة، قائلة:

- مــاذا تفعـل هنــا؟ انهـض؛ فهـذا مكــاني الخاص.

فتطلع إليها غير مبالي ليقول باسمًا:

- لقد جِئتُ قَبلَكِ

- ولكن هذا مكاني المميز.

فعاد يتطلع للشمس وقد أوشكت لتتجلى أمامهما، قائلًا:

- لا يَهُمني.

لم تُطق صبرًا وغدت حانقة لقوله، بل تأزم جدالهما لتقف أمامه لحظة شروق الشمس فيما يتطاير الشرر من عينيها، تحجب عينيه عن ذلك المنظر البديع وتلك الأشعة الذهبية تغمر الكون بنورها؛ فتطلع إليها غاضبًا لفعلها ورغم هذا قال في هدوء بالغ:

- وإن يكن، لن أتخلى عن مكاني لكِ.

فما كان منها سوى الجلوس بالكرسي المجاور له، صامتة، غاضبة، بينما علامات

النصـــر تبـــدو جليـــةً علـــى وجهـــه بابتســـامة ساحرة، رأتـه جِـدُ عنيـد حينهـا.. واليـوم تحـاول عبثًا:

- ثـم مـاذا بشـأن عَمَلِـك؟ أتتركـه وترحـل، ماذا ستعمل حينها، آه، أخبرني...

فـنهض مـن مجلسـه لحظـة شـروق الشـمس وأشـعتها الذهبيـة تنثـر ضـياءها بـين الرُبـوع فرحـة بمـيلاد يـوم جديـد، تعمـد ذلـك وقـف بوجههـا كحـائط سد يُعيقهـا عـن تحقيـق هـدفها، يُمعـن النظـر بعينيهـا السـوداوين باتسـاعها فـي صمتٍ صـارخ، رغـم مـا يجابهـه مـن عواصـف هوجـاء تفتـكُ بـه، تكـاد تقتلعـه مـن جـذوره، فكـر مَليًـا بإجابتـه التـي لـم تتجـاوز حـدود شـفتيه ولـن يفعل يومًا، اكتفى بحديث ذاته:

لن أفعل، لن أتركه يموت كمدًا وحزنًا، لا يُمكنني احتمال ذلك، كل مكان يُذكره به، البيت، المدرسة، الشارع، الجميع يلومونه على شيء لم يرتكبه، يعجز عن مسامحة ذاته؛ فماذا يصنع؟ ولصمته الذي طال، عادت متوسلة:

- أرجوك لا تفعل.

فأومأ برأسه رافضًا؛ لتنهار في حينها باكية. وضع رأسها بين راحتيه يُهدئ من روعها بعدما رآها جِدُ مضطربةً؛ فعينيها لا تستقران موضعهما وكل ما فيها يرتجف، أشفق عليها وقال آسفًا:

- آسف حبيبتي؛ لكني لا أستطيع البقاء مكتوف اليدين، أعجز عن احتمال فقدانه.

ساد الصمت للحظاتٍ ريثما تستعيد أنفاسها ثم رَفْعَت رأسها، تُطالع عينيه لَعَلَّ الأمان يعود رفيقها.

استيقظ باسل عند الثامنة ليجد نفسه بغرفته وبِفِرَاشِه، حاول جاهدًا تذكر ما حدث الليلة الماضية فما أنصفته ذاكرته؛ فكل ما يذكره جلوسه عند قبر صديقه، بكاؤه الذي طال، همسه إليه بكلماتٍ لا يعرف كيف كانت...

نهض من فِرَاشِه وبخُطى متثاقله سار نحو الخارج، تجاوز باب غرفته الذي كان مفتوحًا بعض الشيء ليجد والدته قد أعدت طعام الإفطار ووضعته على المائدة دون أن تضع

لقمـة بجوفهـا، تنتظـر اسـتيقاظه، تـود مشـاركته في الطعام لتسعد بقُربه ولو دقائق:

- صباح الخير أمي.

- صـباح الخيـر يـا ولـدي، هيـا.. اذهـب وتوضأ؛ كي لا تتأخر عن ذلك.

السادسـة مسـاءً موعـد انطلاقـه، اتخـذ عـادل مجلسـه بمقعـد (101) بجـوار النافـذة بمقصـورة الدرجـة الأولـى بالقطـار المتجـه مـن الأقصـر للقـاهرة، لعَلَّـه يجد فـي ذلـك فرصـة لنجاتـه. بـين الفينـة والأخـرى يرمـق مَـن بجانبـه بنظـرات جِدُ آسـفة فهـذا الشـاب العشـريني لا يبـدو مـن الأقصـر بـأيِّ حـال، فملابسـه الكـاجوال مـن بنطـالٍ جينـز وتـي شـيرت رمـادي كُتبـت عليـه

بعـض كلمـات إنجليزيـة، لا شـك أنـه يجهـل مغزاها، فلـو عَـرِفَ مـا تطلـع إليهـا بُرهـة، شـعره المُصـفف كمـا لـو كـان نجمًـا سـينمائيًا يثيـر فـي النفس اشمئزازها.

عـاد مـن جديـد يتطلـع عبـر نافذتـه الزجاجيـة، ينتابـه السـرور بمراقبـة معـالم الطريـق قبلمـا تصـير خلفـه لسـرعة القطـار الـذي غـدا يشـق طريقـه شـقًا ليصـل فـي موعـده؛ ليشـرع كـل مَـن عليـه بتحقيـق ذاتـه بـين جنبـات العاصـمة كمـا يحلُـم كثيـرون، يـأملون بغـدٍ مشـرق تتحقـق فيـه الأماني.

(الفصل الثامن)

حتمًا حياة

كعادتها، وصلت مريم لمقر عملها تمام العاشرة، الكل سعيد بوجودها بينهم رغم ما أصابها، فخورون بها وبصغيرها الذي غدا مثلًا يُحتذى به في تحمل الصِعاب ومجابهتها، دَلفَت لمكتب مدير الحسابات بِخُطى واثقة، جلست خلف مكتبها فقد تقلدت هذا المنصب منذ شهور خلت، رغم ما تشعر به من الوحدة بين جنبات هذا المكتب شرعت بممارسة عملها في جِدٍ ونشاط، تشتاق لثرثرتها ونجاة بين الفينة والأخرى لتجاوز حاجز الملل الذي يُصيبها أحيانا كثيرة.

سـعيدةً بزملائهـا، تحمـل لهـم جزيـل العرفـان لصـنيعهم؛ لمسـاندتهم رغـم تقصـيرها، مـا زالـت تـذكر ذاك اليـوم الـذي اجتمعـوا فيـه جمـيعهم لا لشـيء إلا لـدعمها؛ مـؤازرتهم لهـا علـى مـدار العـامين الماضـيين حتـى لحظتهـا هـذه لهـو خيـر بُرهان على تضميد جُرحها.

خاصـة نجـاة، صـديقتها الوحيـدة والتـي تَـدين لهـا بالفضـل فـي كثيـر مـن أمورهـا، ففـي العاشـر مـن اكتـوبر عـام 2000م، كانـت مـريم بمطبخهـا تُعـد الطعـام لصـغيرها عنـدما سـمعت مَـن يَـدُق بابهـا، ذهبـت لتـرى مَـن بالبـاب مـن فورهـا لِتُفاجـأ بصـديقتها التـي صُـعقت لرؤيتهـا وقـد اسـتحال وجههـا شـاحبا وكأنمـا لا يحـوي نقطـة دمٍ واحـدة واقفـةً أمامهـا، حتمـا قَلِقَـت عليهـا

لتغيبهـا أيامًـا عديـدة للمـرة الثانيـة؛ فجـاءت مستفسرة:

- مريم، أأنتِ بخير؟

استقبلتها باسمة، أخذت بيدها تحثها على الدخول بعدما تعانقتا في شوق قائلة:

- أجل، لا تقلقي بهذا القدر.

دَلفتا معًا يلفهما الود والشوق لثرثراتهما دون حد، اصطحبتها لمطبخها ريثما تنتهي من إعداد الطعام لصغيرها ثم ينتقلان لغرفة المعيشة ويُكملا حديثهما.

بدا المنزل مُرتبًا، هادئًا لأقصى حد عكس ما كانت تدَّعيه مريم طوال الوقت، لحظات من التردد سادها الصمت إلى أن سألتها:

- أيـن كـريم؟ أهـو بخيـر؟ لِـمَ لـم يسـتقبلني كعادته؟!

مــا كــادت نجــاة تُنهــي حــديثها حتــى رأتهــا مترنحـة تكـاد تسـقط أرضًـا بعـدما انتابتهـا وخـزة مفاجِئـة موضـعِ قلبهـا لـولا أنهـا أمسـكت بيـدها، ســاعدتها لــتجلس علــى ذاك الكُرســيِّ الخشــبي بزاويــة مطبخهــا، ثــم دنــت منهــا فَزعــة لحالهــا، حاولــت المحافظــة علــى رباطــة جأشــها فمــا نجحــت وانهالــت العبــرات مــن مُقلتيهــا فيمــا تراهــا عــاجزةً عــن التــنفس؛ تحــاول جاهــدة لتستنشــق بعضًــا مــن الأكســجين لتُبقــي علــى حياتها.

مضـت الـدقائق التاليـة بطيئـة لشـدة مـا بهـا، ســاعدتها لتــنهض، جعلــت مــن ذاتهــا عكــازًا تســتند عليــه ريثمــا تصــل لغرفتهــا وتــأوي

لفراشـــها؛ عَلَّهـــا تُصـــبح بخيـــر فمـــا كـــان غيـــر إصــرارها بالــدخول لـــ كــريم للاطمئنـــان عليـــه، فبادرتـها:

- سأفعل أنا.

أومأت برأسها أن لا. هامسة إليها:

- لا تفعلي.

بعـــد جـــدال أرهقهمـــا كـــان لهـــا مـــا أرادت، دخلــت دونهــا فيمــا انتظــرت نجــاة، بــل عــادت للمطـــبخ، لتُنهـــي إعـــداد الطعـــام عوضًـــا عـــن صــاحبتها، فعلــت ذلــك ثــم شــرعت بوضــع الطعــام بأطباقهــا المزخرفــة فـــ كــريم منــذ عودتــه لــم يضــع لقمــة بجوفــه، علمــت بــذلك فــي ثنايــا حديثهما منذ دقائق خلت.

تـرددت كثيـرًا، أيـن تضـعه؟ علـى المائـدة، أم تحملـــه إلـــى غرفتـــه، بدايـــةً وضـــعت صـــينية الطعـام بمـا تحويـه علـى المائـدة وعنـدما طـال انتظارهـا دون أن يخرجـا حملـت الطعـام مـن جديـد لغرفتـه، طرقـت البـاب ثـلاث ودخلـت قبلمـا تلقـى اجابـة، رأتهـا جالسـة علـى حافـة فِرَاشِـه تُمسـد رأسـه متمتمـة بكلمـات لا تكـاد تسـمعها بينمـا كـريم فـي فراشـه لـم يـزل نائمًـا، فـي حـين بـدت مـريم غيـر منتبهـة لـدخولها، بـدت وكأنهـا برحلـة بعيـدة عبـر الـزمن فاقتربـت بعفويتهـا باسمةً، قائلة:

- طال انتظاري، فأحضرت الطعــ...؟

تلعثمـــت كلماتهـــا بـــين شـــفتيها واضـــطربت يـديها بمـا تحملـه مـا إن وقـع بصـرها عليـه،

شهقت في ذُعر وكأنها تُنازع روحها؛ أفاقت مريم ليزداد ألمها برؤيتها لصديقتها باكية، نهضت في ذُعر تُحدق بها، فعينيها تبوحان بمكنون صدرها، حاولت تدارك ما حدث، حملت صينية الطعام ووضعتها جانبًا على تلك المنضدة قرب الباب ثم عادت تأخذ بيدها؛ لِتُجلسها إلا أنها عادت للخلف آبيةً، تطلعت إليها بعينين تبكيان متسائلة:

- لِمَ لم تُخبريني؟ كيف يكون كريم، بهذا الحال ولا تفعلي؟!

مشيرة بيدها نحوه فيما هو نائمٌ، يمزقها أن تراه بصورته هذه، حليق الرأس، فخصلات شعره الحريري قد تهاوت بعدما كانت تُنافس أشعة الشمس في بريقها، كذا أهدابه تساقطت مُودعة.

أمـا اليـوم، فقـد لاح فـي الأفـق بريـق أمـل رغـم خفوتــه، رغـم ألمــه الــذي فــاق الحــد، رحلــة علاجــه التــي امتــدت لعــامين متتــاليين ومــا زال فــي جَلَـد، يشــد بيديــه علــى ذلــك الضــوء ليُنيــر دربه.

(...)

- هيا حبيبي، كفاك كسلًا وانـهض.

بهـذه الكلمــات، أخــذت مــريم تــوقظ صــغيرها فيمــا يتململ فــي فراشــه، يرغــب بمزيــد مــن النوم فعادت تُخبره:

- هيــا حبيبـــي، ســأتأخر علـــى عملـــي، لا ترضى لي بأن أكون مُقصرة، أليس كذلك...

أمــام كلماتهــا لــم يملــك إلا أن يــنهض باســمًا، رغـم إرهاقـه ورغبتـه فـي أن يغفـو مجـددًا هـا قـد فعــل، وقــف أمامهــا بمنامتــه البيضــاء كبيــاض الثلج يُدَلِّكُ عينيه ويتثائب قائلًا:

- لا أمي، لا أرضى.

- حسـنًا، سـنتناول الفطـور بدايـة ثـم نُعـد أنفسنا سريعًا؛ كي لا نتأخر، اتفقنا.

فأومــأ برأســه أن أجــل، لــم تمــضِ غيــر دقــائق معدودة حتـى كانـا يجلسـان إلـى المائـدة يتنـاولان طعامهمــا المُكــون مــن كــوب مــن الحليــب لكــل منهمــا وقطعــة جُــبن مــع بيضــتين مســلوقتين وخبـز بالإضـافة للعسـل الخـاص بـــ كـريم والـذي لا يُحبذه.

بانتهائهمـــا، قامـــت تُســاعده فـــي ارتـــداء ملابســه فـي جـو مـن المـرح، تـدعو لـه بـالخير، تتلــو آيــاتٍ مــن الــذكر الحكــيم لتُحصــنه، ثــم شــرعت هــي الأخــرى بتبــديل ملابســها بــرداء مكــون مــن جيــب جينــز كلــون ســماءٍ صــافية وبلــوزة بيضــاء علــى جانبيهــا زخرفــة نُســجت بخيــوط حريريــة، واضــعة حجابًــا أزرق اللــون، حاجبـة أعين الجميـع عـن بعـض جمالهـا، كـادت أن تنسى لولا كريم الذي قال متعجبًا:

- أمـــي، كيـــف ســـتخرجين حافيـــة القدمين!

فنظــرت موضــع قــدميها وانفجــرت ضــاحكة، فعلتهــا ثانيــة؛ أخــذا يبحثــان ســويًا فــي جنبــات المنــزل دون فائــدة، انتهــز كــريم فرصــته هــذه،

فلـن يُضـيعها مـن يـده، وقـف أمامهـا فيمـا يَـدَّعي أسفه لحالها قائلًا:

- آسـفٌ أمـي، اعتقـد أننـا لـن نـتمكن مـن الذهاب اليوم.

مـا كـاد ليخطـو خطوتـه الأولـى لغرفتـه حتـى صاحت باسمة:

- تذكرت، أعرف أين أجده.

فاستدار إليها محاولًا إقناعها عكس ذلك:

- لا أمي، ليس بالمطبخ، يستحــ.....؟

تلعثمـت كلماتـه واضـطربت فيمـا والدتـه تُمعن النظر بعينيـه، حانقـة عليـه، بعـدما فقهـت أنه المسئول عن اختفاء حذائها:

- كيف علِمت؟ لِمَ تُحاول إخفاءه؟

تململ كـــريم فـــي مكانـــه، عـــاجزًا عـــن مصـارحتها فـدنت منـه، ضـمته إليهـا فـي حِنـان ثـم عـادت لتضـع رأسـه بـين راحتيهـا، تُمعـن النظر بعينيه متسائلة:

- كـريم، مـاذا بِـكَ حبيبـي؟ أهنـاك شـيء مـا تخشى إخباري به؟

فأغمض عينيه غاضبًا؛ ليبوح بمكنون فؤاده:

- لا أريد الذهاب، أود البقاء معك.

فأجابته باسمة:

- تعلـم أنـي أود ذلـك أيضًـا؛ لكـن مـا بيـدي حيلـة، علـيَّ العمـل لتـوفير الـدواء لمرضـى كُثـر، ليزول ألمهم.

عندها فتح عينيه وتطلع إليها باسمًا:

- حسنًا...

قبلتـه بـين عينيـه قبلمـا تـنهض، قالـت بينمـا تخطو نحو الباب:

- لا تنسى قُبعتَك.

فصاح بها ضاحكًا:

- أمي.

نبـرة صـوته هـذه تعرفهـا جيـدًا، وقفـت عنـد البـاب، أسـندت رأسـها إليـه، تُعاتـب ذاتهـا: لا، ليس مُجددًا، فلم تزل حافية القدمين.

(...)

تمـام الثامنـة مسـاءً، وطـأ عـادل بقدميـه محطـة مصـر بميـدان رمسـيس، حمـل حقيبتـه بيمنـاه ثـم خطـى واثقًـا، يشُـق طريقـه بـين المـارة مـن حولـه علـى اخـتلاف أطيـافهم، المكـان مكـتظ

مـن حولـه ولا يكـاد يتحـرك إلا ويـرتطم بأحـدهم ليبادر معتذرًا بين الفينة والأخرى:

- آسف.

ليُجيب الآخر:

- لا عليك...

تمكــن أخيــرًا مــن الخــروج، بــدا الشــارع مزدحمًـا، تكـاد لا تجـد موضـع قـدم لـك ورغـم هذا فعل، ذهـب لأقـرب فنـدق ليبيـت ليلتـه، وفـي الصباح سيرى ما هو بفاعل.

كـان المبنـى مُكـون مـن أربـع طوابـق، كلاسـيكي الطــراز، نوافــذه الكبيــرة شــاهدة علــى عبــق زمـان قـد ولـى مـن هنـا، بألوانـها الزاهيـة تُخبرنـا عن لمسةٍ فنيةٍ غاية في الجمال.

خلـف مكتـب الإسـتقبال بالطـابق الأول جلـس شاب يبدو من ملامحه أنه ما يزال في الثامنة عشرة من عُمره ببشرته البيضاء المشبعة بحمرة، وعينيه الضيقتين ظل يترقبه فيما هو مُقبل نحوه، للوهلة الأولى عرف مراده؛ فحقيبته الصغيرة نوعًا ما عنوان كل مسافر جاء غريبًا. بشرته الداكنة، بُنيانه القوي، قسمات وجهه الهادئة، هندامه المُرتب المكون من بذلة سوداء وربطة عُنق بُنية اللون، جعلته يفطن أنه قادمٌ من إحدى مدن الصعيد؛ ليقضي ليلة أو ليلتين بفندقهم المتواضع، إذ أقبل قائلًا:

- مساء الخير.

- أهلا سيدي، بِمَ أساعدك؟

- أود استئجار غرفة لليلتين أو ثلاث.

قالهـا بينمـا يمـده ببطاقتــه الشخصــية ليُســجل بياناتــه بــدفتره، انفرجــت أســاريره فيمــا يتطلــع إليهـا ويقـرأ مـا بهـا، أصـاب ظنـه مجـددًا؛ نـهـض من مجلسه باسمًا:

- مرحبًـا بـك أسـتاذ عـادل، يُسـعدنا وجـودك بيننا

قالهـا بينمـا يتنـاول مفتـاح الغرفـة سـتة وثمـانين مــن الجــدار الرخــامي خلفــه، حيــث يحتفظــون بكافـــة المفـــاتيح بصـــناديق زُجاجيـــة مختلفـــة الألوان قد ثُبتت على جدارهم.

بعـدما سُـجلت بياناتــه، تنــاول عــادل مفتــاح غرفتــه وبطاقتــه باسـمًا؛ ليشــق طريقــه نحــو غرفتــه كمــا وصــفها لــه موظــف الاســتقبال بالطـابق الثـاني، مُتطلعًـا للأبـواب الخشـبية بُنيـة اللـــون، المزخرفـــة بـــبعض الرســـومات

الهندسية، أخذ يبحث عن رقمه المنشود ليجده أخيرًا عن يساره بنهاية الممر الأيمن الذي دَلف إليه منذ قليل.

بات ليلته قرير العين، هانئًا بعد مشقة سفره؛ ليستيقظ باكرًا، نشيطًا في تمام السابعة صباحًا كان عند مكتب الاستقبال، يبحث عن الشاب الذي تحدث معه أمس فما كان حاضرًا؛ ذُهل للصمت المُطَبَّق بأركان فندقهم؛ الكُل نِيام، فالوقت ما زال باكرًا جدًا بنظرهم، لم يجد بُد غير ما فعل، وَضَع مفتاح غرفته بموضعه على الجدار الرخامي وانطلق خارجًا.

اتصل بزوجته من هاتف عمومي فقد نسي هاتفه بالغرفة أو بالكاد لا يدري أين وضعه

ليلتــه الماضــية، رن هاتفهــا فيمــا هــو بيــدها مُمســكةً بــه، لــم تــزل جالســة بشــرفتها وكأنمــا تنتظر، أجابت في الحال فبادرها:

- صباح الخير، كيف حالِك حبيبتي؟

- صـباح الخيـر حبيبـي، كيـف حالُـكَ أنـت؟ لا تقلـق علينـا، فجميعنـا بأحسـن حـال، المهـم أن تعود سريعًا؛ لقد اشتقنا إليك.

كعهـدها لا تمنحــه فرصــة ليُعبــر عمــا يَخـتلج فـؤاده نحوهــا، لشــدة اشــتياقها إليــه تفعـل هــذا دائمًــا، ليبادرهــا بضــحكاتٍ صــاخبة، تمــلأ الكــون بهجة كقلبها.

(الفصل التاسع)

وهمٌ ثُم وهم

اتخذ عادل مقعده خلف نافذة زجاجية كانت الواجهة للطابق الثاني من مطعم قريب لفندق إقامته، ما إن انتهى من تناول فطوره المكون من كوب من القهوة وشريحتي توست مغطاة بمربى التين التي يعشقها مع ثمرة موزٍ واحدة حتى دفع مقابل ذلك وخرج مسرعًا، يحث الخُطى للبحث عن منزل مناسب لهم.

كان يومه صحوًا من أيام الصيف الحارقة، الجميع يهرولون باتجاهات مختلفة لِلّحاق بأعمالهم، هذا شاب عشريني على دراجته البخارية يسير بخط متعرج؛ كي يتجاوز تلك السيارات التي انتصبت بالشارع بصفوفٍ خلف بعضها؛ ينتظرون إشارة مرورهم وتلك

سـيدة شـابة تحمـل رضـيعها، تعتلـي درجـات سـيارة أجـرة لتسـتقر بالمقعـد الثـاني مطمئنـة البـال لنجاتهـا مـن ازدحـام الشـارع الـذي يعصـف بهـا وبوليـدها كـل يـوم فـي ذهابهـا وإيابهـا، علـى تلـك الناصـية بمرمـى بصـره، أبصـر رجـالًا ونسـاءَ تختلـف أعمـارهم يتطلعـون بالاتجـاه الآخـر ينتظـرون، يترقبـون وصـول أُتـوبيس عـام يُقلهم لمحل عملهم.

يمقُـت ازدحـام العاصـمة ويُبغضـها؛ لشـدة تلـوث سـماءها بـذلك الغبـار المُحمـل بسـيلٍ جـارفٍ مـن الأمـراض التـي تفتُـك بهـم دون هـوادةٍ، يَمقُتهـا مقتًـا فهـي السـبب الرئيسـي لوفـاة والـده؛ لكنـه مُجبـرٌ علـى العـودة إليهـا مُجددًا.

التقى بسمسار عقارات يُدعى حازم كان قد هَاتفه الليلة الماضية قبلما يخلد لنومه؛ كي يساعده برحلة بحثه عن منزلٍ يناسبه، ذهب للقائه تمام العاشرة بمكتبه؛ ليجده في انتظاره، تناولا كوبي قهوة وانطلقا سويًا لإلقاء نظرة على عدد من الشقق السكنية لينتقي أفضلها.

كادا أن يُصابا باليأس بعد ساعات من البحث المُضني دون فائدة؛ لكن عادل عازمٌ على تحقيق مُراده، قال له مشجعًا:

- لا عليك، سنواصل بحثنا غدًا، وسنحقق غايتنا.

- إن شاء الله سنفعل ذلك.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل عندما تصافحا وذهب كُل منهما في طريقه على أمل اللقاء غدًا.

....*..*

عند عودته فوجئ بشخص أشيب الرأس، قد تجاوز الخمسين من عُمره بسنوات قليلة، قصير القامة، عريض المنكبين، مكتنز الجسم، ملامح وجهه الحادة أصابته بالفزع يَسب ويلعن موظف الاستقبال لتقصيره بعمله فيما ذلك الشاب واقفًا أمامه مطأطئ الرأس، مستكين، لا ينبس ببنت شفة فاقترب غاضبًا، صائحًا:

- ما الذي يجري هنا؟! كيف لكَ أن تُحدثه هكذا؟

فالتفتا إليه بذات اللحظة مندهشين، العجوز لم يزل في غضبه، يسأل ذاته مَن هذا المُتطفل الذي يتدخل بعملي؟ ومن أين أتى؟! بينما غدا الشاب مسرورًا لرؤيته فقد لاقى ما لاقاه بسببه هو، لذهابه قبلما يدفع لقاء مبيت ليلته، ظن للحظة أنه خدعهما ولاذ بالفرار مستترًا منهما. أقبل الشاب نحوه مطمئن الفؤاد، فرحًا بعودته قائلًا:

- أهلًا أستاذ عادل، أين كنت؟ بحثنا عنكَ طويلًا دون جدوى.

فلم يُنصت لحرفٍ مما قاله، فقد كان مشغولًا بذلك العجوز الذي غدا يمقته من الوهلة الأولى لرؤيته، بأي حقٍ يُهين الآخرين هكذا.. اقترب منه بِخُطى واثقة، وقف أمامه متسائلًا:

- ما هذا البُغض؟ ماذا فعل ليُهان هكذا؟

- لا شأن لك، مَن تكون لتتدخل فيما لا يعنيك؟ هيا اذهب من هنا.

إلا أن عادل لم يبرح مكانه، بل ظل ساكنًا، عاقدًا ذراعيه أمام صدره يترقبه فيما أسرع الشاب ليقف بينهما، لوأد جدالهما قبلما يبدأ، بعدما رأى الشرر يتطاير من أعينهما على شيء لا يستحق حقًا، قال معتذرًا:

- آسف سيدي، إنه لم يقصد حتمًا.

ثم التفت للآخر قائلًا:

- أرجوك أبي، يكفي ما حدث، ها قد عاد ولا داعي للقلق.

فتطلعا إليه في ذُهول، عادل لا يُصدق أن هذا العجوز، مَن أهانه بهذه الشراسة هو ذاته

والـده؛ كيـف يفعـل ذلـك بفلـذة كبـده! بينمـا ذُهـل الآخـر! أبعـد سـوء ظنــه وجَزْمِــه بفـراره؛ كـي لا يـدفع مقابـل إقامتـه يعـود هكـذا، أخطـأ ثانيـة فيمـا أصاب ولده مجددًا بكل كلمة قالها.

كــاد الوضــع أن يهــدأ ويمضـــي كــل منهمــا لحـال سبيلـه لـولا أنـه فـوجئ بحقيبتـه مُلقـاة علـى الأرض بتلـــك الزاويـــة قـــرب مكتـــب الاســـتقبال ومــا تحويــه مُبعثــر حولهــا، أســـرع بجمـــع أغراضـــه، يُعيـــدها لحقيبتـــه ثـــم حملهـــا عـــن الأرض فيما يصيح غاضبًا:

- ما هذا؟! لِمَ تُلقون أشيائي هكذا؟

ليرد العجوز غير آبه:

- هـذا مـا حـدث، عنـدما لـم نجـدك اعتقـدنا أنـك مجـرد وغـد، قـد جـاء ليبيـت ليلتـه مسـتغلًا

رحابــة صــدرنا وعطــف ابنـــي هــذا الــذي كــاد يوردنا المهالك

- ماذا؟ كيف لكَ أن تظن....؟

إلا أن العجــوز لـــم يمنحـــه فرصـــةً لإنهـــاء حديثـه ومضـى فـي سـبيله كـأن شـيئًا لـم يكـن، لـيس مــن شِـيمه الاعتــراف بالخطــأ، لا.. لــن يعتـذر لشـخصٍ مثلـه؛ عنـدها تـدفق الـدم بعـروق عـادل حتـى اسـتقر بوجهـه لشـدة غضـبه؛ ليُحـال دمًا بعد رَويَّة.

(...)

كعادتهـــا، ذهبـــت لتُوقظـــه تمـــام الســـابعة والنصـف صـباحًا فمـا أجابهـا، لـم يُبـدي اسـتياءه كمـا عهدتـه، ولـم يفـتح عينيـه ليمنحهـا ابتسـامة صـباحية تبعـث السـرور بقلبهـا، بـل بـدا سـاكنًا للحــد الــذي أصــابها بــالهلع، أخــذت تهــزه هــزًا

بقلبٍ يرتجف، لمست يديـه وقـد اسـتحالتا جمـرًا بعـد دفئهـا، يكـاد يغـرق عرقًـا، حاولـت ايقاظـه، نادت في جزع فيما تضمه ضمًا إلى صدرها:

- كــريم، انهـــض حبيبـــي، أرجـــوك لا تفعلها بي مجددًا...

انهالــت الــدموع مــن عينيهــا لتســتقر علــى وجنتيـه وقـد تحـول لونهمـا الـوردي للـونٍ قـاتمٍ يُنـذر بـالخطر، هرولـت بـه لغرفتهـا، وضـعته بِفِرَاشــها، بــدلت ملابســها وارتــدت أول رداء قابلهـا بـدُّولابها ثـم عـادت تحملـه بأيـادٍ مرتعشـة، تضـمه إليهـا قبلمـا تنطلـق، كـادت أن تسـقط مـرةً أو مــرتين لشــدة اضــطرابها، فأنفاســه جِــدُ بطيئـة، نـبض قلبـه غيـر منـتظم، حـرارة جسـمه مُرتفعــة وكأنمــا وُضــع علــى الجمــر وضــعًا؛ كانـت كلمـا تقـدمت خطـوة تظـن عبثًـا أنهـا تعـود

أدراجها، طوال الطريق لم يَجف دمعها وقد استثار هذا شفقة جميع من قابلها بطريقها، حاولوا مواساتها ولو بكلمة فاكتفت بالنظر إليهم زائغة العينين، شاردة البال فيما ينتظر صغيرها.

وصلت به لمعهد الأورام بأنفاس مضطربة راجيةً أن يُنقذوه، فأسرعوا به لغرفة الفحص كي يبدأوا بتقييم حالته ومنحه الدواء المناسب لوضعه فيما انتظرت والدته خارجًا تدعو الله أن يلطف به. بحثت عن طبيبه فما كان حاضرًا، فالوقت ما زال مُبكر ولن يصل إلا عند العاشرة؛ هكذا أخبرتها الممرضة.

وُضع كريم بالعناية الفائقة لخطورة وضعه، فحرارته تخطت الأربعين، تكاد تصل لما فوقها.

علــى الجانــب الآخــر كــان رئيســها جالسًــا رفقــة عــدد مــن رؤســاء أقســام شــركته، ينتظـرون قـدومها ليبـدأوا اجتمـاعهم الشـهري للوقـوف علـى وضـع الشـركة وتقيـيم أدائهـا؛ لكنهـا وبطبيعـة الحـال لـم تصـل، طـال انتظـارهم فاقترح أحدهم:

- دعونا نبدأ، فقد تأخر الوقتُ كثيرًا.

وافقـوا جميعًـا، عَبَّـر بعضـهم عـن ذلـك بكلمـة أجــل فيمــا آخــرون اكتفــوا بإيمــاءة تــوحي بمـوافقتهم، فـي حـين بـدا د/ حسـين شـاردًا، غيـر منتبـه لحـديثهم؛ فهـا هـو غـدا ناهضًـا دون أن ينطـق ببنــت شـفة واجمًـا، خـرج مـن مكتبـه وســط حيــرة الجميــع لتصــرفه، ســار بــالممر المـؤدي لمكتبهـا، فـتح بابهـا ليجـده خاويـا، ذهـب لــ نجاة بمكتبها قلقًا يسألها:

- مـريم، هـل اتصـلت بـكِ اليـوم؟ أأخبرتـكِ بعدم مجيئها؟

فأومأت برأسها في حيرةٍ أن لا، فقال حازمًا:

- إذا فلتفعلـــي ذلـــك، اعثـــري عليهـــا بـــأي صورةٍ كانت، أفهمتي..

....*..*

تمـام العاشـرة والنصـف، وطـأ د/ مـراد معهـد الأورام بقدميـه؛ ليُباشـر عملـه ففـوجئ بـــ مـريم جالســة بنهايــة الممــر المــؤدي لمكتبــه بالطــابق الثـــاني، مُســندة رأســـها إلـــى راحتيهـــا، واجمـــة، خطـى إليهـا غيـر مُـدرك سبب وجودهـا هـا هنـا، فـــ كــريم ســيجري فحوصـــاته النهائيــة للتأكــد من شفاؤه بعد يومين فقط.

وقـف نُصـبَ عينيهـا فيمـا يعلـو نحيبهـا، يـود سـؤالها ويخشـى جوابهـا، غيـر مسـتعد لسـماع كلماتهـا، حـاول مـرات عـدة فلـم يسـتطع إلـى أن انتبهـت لوجـوده؛ فتطلعـت إليـه بعينـين ذابلتـين لكثرة بُكائها؛ لتقول في حسرةٍ:

- لقد عاد.

(الفصل العاشر)

فِرار الأمس

لـم يتمالـك نفسـه وهـرول مسرعًا، مـن خلـف نافذتــه الزجاجيــة رآه مســجى فــي سَــرِيره، لــم يــزل بغيبوبتــه، تحــيط بــه العديــد مــن الأجهــزة الطبيــة قــد غــدت متصــلة بــه إمــا مــن وريــده لتمُــده بالمغــذي أو آخــر ملتصــقًا بصــدره ليقــيس نــبض قلــب لــم يــزل فــي صِــراعه، وذاك القتــاع مُثبــتٌ علــى فمــه يُســاعده علــى التــنفس بلحظــات وهنه.

دخـل إليــه بوجــهٍ يكســوه الأســى لحالــه فيمــا الممرضـــة المُكلفـــة بمتابعتـــه قائمـــة بجـــواره تُســـجل مؤشـــراته الحيويـــة بـــدفتر ملاحظاتهـــا فتناولــه مــن يــدها يُمعــن النظــر بــه لعَلَّــه يجــد بريـق أمـلٍ يطـرب فـؤاده وفـؤاد أُمٍ مكلومـة لحـال

وحيدها، بين الفينة والأخري يرفع بصره ليُطالعه ثم يعود يُمعن النظر بتقريره عابسًا في حين ظلت الممرضة بجواره ساكنة، صامتة، متأهبة؛ لتعليماته التي حتمًا سيصدرها لاحقًا.

غدت نجاة جِدُ مضطربة، فلديها كمًّا هائلًا من الملفات فوق مكتبها يشتاق لقلمها، تكليفها من قِبل المدير بالبحث عن مريم جد مُرهق، تعجزُ عن العمل وكذا ايجادها، ماذا تفعل؟ وبِمَ ستُخبره؟ بذلت جُهدها للعثور عليها، اتصلت بها مرارًا وتكرارًا دون إجابة؛ لم تملك من أمرها شيء؛ ذهبت مكتوفة اليدين وكأنما تُساق رُغما عنها لجلادها، تطلعت حولها بينما تسير بالممر المؤدي لمكتبه، الجميع منهمكون بأعمالهم غير

مبـالين بمـا ينتظرهـا، يتطلعـون إليهـا يُبادلونهـا ابتسـامتها الفـاترة بابتسـاماتٍ تشـبهها، طرقـت البـاب ومـا إن سـمعت صـوته يـدعوها للـدخول حتـى فعلـت متـرددة، وقفـت أمامـه فيمـا كـان جالسًـا علـى أريكتـه يُطـالع إحـدى موسـوعاته الطبيـــة لا يفصـــلهما ســـوى تلـــك المنضـــدة الخشـبية فـي المنتصـف، طـال صـمتها وتململـت بوقفتهـا فرمقهـا بنظـرة حـادة بعينيـه البنيتـين مـن خلـف نظارتـه الطبيـة، وجههـا الشـاحب يتصـبب عرقًـا، يـديها بـاردتين كـالثلج، قالـت بصوتٍ يرتعد تأهبًا لثورة غضبه القادمة:

- آسفةٌ سيدي، أعجز عن إيجادها.

فنهض من مجلسه غاضبًا:

- ألا يمكنك إنجاز شيء مطلقًا!

- ولكني حاولت سيدي...

عادت إلى مكتبها باكية، تلوم ذاتها على حظها العاثر، بذلت كل جهدها وما بيدها حيلة، فَلِمَ يلومها!

جلست مريم على مقعدها بغرفة الانتظار لعلها تجد في هموم الآخرين رثاءً لها، المكان مُكتظ رغم اتساعه، أطفال صِغار بِعُمر البراعم كطفلها، رجالًا كانوا بالأمس أشداء يسعون لقوت يومهم بقوة سواعدهم واليوم غدوا أشباحًا لشدة وهنهم، فتياتٌ بِعُمر الزهور قد نال المرض من نضارتهن، حيويتهن؛ لتستكين أجسادهن لشدة الألم.

صرخت، مالت للأمام ممسكة رأسها فذلك الألم عاودها من جديد، كاد يعصف بها ما إن لمحت ذلك الوجه الذي يترقبها من خلف نافذة

زجاجية بمنتصف الباب الفاصل بينهما، فنهضت لتَلحق بصاحبه بعدما غدا مهرولًا.

خرجت للممر فما وجدت من أحد، بدا خاليًا إلا من بعض المرضى وذويهم كهذه السيدة العجوز التي نال الزمن من جمالها وقوتها لتغدو بأوهن صورة كسنوات عمرها التي تجاوزت السبعين خريفًا بعامين أو ثلاث، جاءت من أقصى الصعيد بسجيتها، بجلبابها الأسود وشَالٍ بلون جلبابها أو أشد قتامة منه رفقة حفيدتيها وأصغر أبنائها الذي يرقد بتلك اللحظة كطفل صغير على ذات المقعد الخشبي التي تجلس بأحد طرفيه، واضعًا رأسه على فخذها، مغمض العينين، فيما تُمسد بيدها ما بقى من خصلات شعره البيضاء كسنوات عمره الخمسين، تدعو الله أن يحفظه.

تناست ما بها ومضت بالاتجاه الآخر بعيدًا عنهم بعينين مغرقتين بالدمع وقلب نازف لمصاب تلك العجوز بفلذة كبدها، غير منتبهة لدموعها التي تنهال كالسيل إلا بوصولها لمكتب الاستقبال بالطابق الأول فما إن رأتها إحدى الممرضات حتى أقبلت تُشفق عليها، تسألها بقلبٍ منفطر:

- أستاذة مريم، ما بكِ؟ أكل شيء بخير؟

- ماذا؟! ماذا هناك؟ أكريم بخير؟

استفاقت من غفلتها لتجد نفسها بموضع مغاير للذي كانت فيه منذ ثوان، تطلعت لتلك الممرضة التي غدت تترقبها في أسى لحالها، لحظات صمتٍ قاتلة كانت عيونهما المتحدث بها، بادرت عَينيّ مريم بسؤالها:

- أحقًا سيموت؟ أسيرحل نبض فؤادي وشمس ضيائي؟ أستتلاشى ضحكاته ويندثر صداها بقلبي.

(...)

لليوم التالي، لم يُوفق في مهمته التي جاء من أجلها، بقدمين مرهقتين وجسد منهك، ها هو يعود للفندق عند منتصف الليل لعله يحصل على قسط من النوم، ارتقى درجات الفندق، سار في البهو حتى مكتب الاستقبال دون أن ينطق بحرف، استل مفتاحه من صندوقه بالجدار الرخامي ثم صعد لغرفته عابسًا، صامتًا.

دخل لغرفته معاندًا ألم قدميه، سار إلى فِرَاشِه ناسيًا إضاءة نور غرفته؛ لا، لن يعود

فبالكـاد قـد وصـل بجسـده المرهـق، آوى إليـه لينعم براحة جَدُ يأمَلُها.

استيقظ كعادتـه مبكـرًا؛ لكنـه أبـدًا لـن يخـرج يومـه هذا؛ قـرر آنفًـا أن يأخـذ قسـطًا مـن الراحـة ثـم يُعـاود بحثـه فـي جِـدٍ ونشـاط، نـهـض متثـاقلًا، مـا زال يتثـائـب لعـدم اكتفـاءه مـن النـوم، توضـأ وصـلـى الصـبح ثـم أعقبـه بركعتـي الضـحى، تنـاول المصـحف بيمنـاه مـن فـوق المنضـدة بجـواره بينمـا لا يـزال جالسًـا علـى سجادته، تـلا مـا تيسـر لـه مـن الـذكر الحكيم زُهـاء سـاعة إلـى ان اسـتوقفته الأيـة (29) بسـورة التكـوير قـد جـاء فيهـا: "وَمَـا تَشَـآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَـآءَ اللّهُ رَبُّ العَالَمِينَ".

انتصـــف النهـــار ولـــم يغـــادر غرفتـــه فقـــال العجـوز مُحـدثًا ابنـه فـي ثقـةٍ بينمـا كانـا يجلسـان بالردهة يتناولان كوبًا من الشاي:

- ألم أقل لك أنه يُخفي شيئًا مــــ...؟

لـم يمنحـه فرصـة ليُكمـل حديثـه، تنـاول كوبـه ثم نـهض راحلًا فصاح به مُتعجبًا:

- نبيـل، أيـن تـذهب؟ مـا السـوء بحـديثي لتغضب هكذا؟!

فاسـتدار إليـه والغضـب يشـع مـن عينيـه، ليخطـو إليه مجددًا، ليميل نحوه صائحًا:

- كـــل شـــيء، كـــل كلمـــة تلفظهـــا تُثيـــر اشمئزازي.

فـنهض راجيًـا إيـاه أن يُنصـت، تشـبث بـه بكلتـا يديه هامسًا إليه:

- صـــدقني بُنَـــيّ، عـــادل ذاك يُخفـــي شـــيئًا مريــ...؟

لينعقـد لسـانه مـا إن رآه يُقبـل نحوهمـا، لوهلـة ظن أنـه قد سمع همساته عنـه وقد جاء ليُلقنـه درسًـا لـن ينسـاه مـا بقـي مـن حياتـه البائسـة؛ لكنـه وكسـابق عهـده أخطـأ بحقـه، فـــ عـادل لـم ينتبـه لوجـوده بدايـة ثـم هـا هـو يـدخل للمطـبخ لإعـداد فطـورٍ خـاص بـه وحـده فَمِـن أساسـيات الإقامـة بهـذا الفنـدق دون غيـره أن تكـون بارعًـا بإعداد الطعام فلن تجد مَن يُعده لك ها هنا.

بينمـــا هـــو منـــدمجٌ بإعـــداد قهوتـــه الصـــباحية بعــد انتهــاءه مــن تجهيــز طبــقٍ مــن البــيض المقلي إذ به يُفاجأ بذلك الصوت من خلفه:

- اســمع، أنـــا لـــم أفعلهـــا ســـابقًا ولـــن أفعلها لاحقًا؛ لذا إياك ان تعتاد على هذا.

استدار فَزِعًا لكلماتٍ لا يعرف صاحبها؛ لكنه سرعان ما استكان ما إن أبصر ذلك العجوز مُقبلًا نحوه في تململ واضح.. وكأن ابنه الذي يتبعه في هدوءٍ باسم الثغر قد دفعه دفعًا لفعل ذلك، ليستطرد ما قال مُعرضًا بوجهه عنه:

- أنا آسف عَمَّا بدر منيّ آنفًا؛ لكن أخبرني لِمَ لم تخرج اليوم كعادتك، أفعـ...؟

فشدَّ نبيل على يده برفقٍ؛ كي يصمت فحدجه بنظرة عتاب ثم أعرض بوجهه غير مُباليًا، مستطردًا ما بدأ:

- أفعلت شيئًا ما تخشى انكشافه؟ أخبرني لرُبما أُساعدك.

لم يُبال بحديثه كثيرًا وَصَب قهوته بكوبٍ زجاجي كما يُحب دائمًا، ثم جلس على كُرسِيّه

الخشبي واضعًا كوبه على المنضدة أمامه بجوار طبق البيض صامتًا، هادئًا، يتناول فُطوره في صمتٍ بالغ؛ فاقترب العجوز خطوة ثم أشار بيده مُحذرًا:

- اسمع أيها الغريب، إذا كنت تفكر بإيذائنا فأنت واهم، الجميع يعلمون قدرنا جيدًا؛ لذا إياك أن تُحاول استثارة غضبي، من الأفضل لك أن تُغادر وإلا سأبلغ الشرطة بمكانك.

فنهض عادل غاضبًا، ضاربًا بقبضته سطح المنضدة صائحًا:

- ولِمَ كل هذا؟! اسمع أيها العجوز، إذا كنت تظن أنيّ سأصمت وسأغض بصري عن إيذائك لولدك هذا فأنت واهم، الآباء لا يفعلون مثلما تفعل أنت.

(الفصل الحادي عشر)

حقيقةٌ زائفة

- وأخيرًا...

قالهـا ياسـين وهـو يخطـو أُولـى خطواتـه نحـو شـركته الهندسـية للإنشـاء والتعميـر، بعـد جُهـد جـاد وسـعي لشـهور، هـا هـو حُلمـه الـذي طالمـا تطلـع إليـه صـار حقيقـة ملموسـةً بـين يديـه؛ عنـد المـدخل الرئيسـي وقـف يخطـب فـي جمـعٍ مـن المـوظفين والمهندسـين مِمَـن شـاركوه ذات الحُلم ومازالوا إلى يومهم:

- حقيقـة، مهمـا قُلْـت أو فعلـت فلـن أُوفـيكم حقكـم مـن الثنـاء والشـكر، فقـد كنـتم لـي بمثابـة الإخـوة، السـند؛ لتحقيـق الحُلـم، حُلمنـا جميعًـا الـذي بـدأ للتـو، لـن نقـف عنـد تلـك النقطـة فمـا زال وليـدنا بحاجـة للكثيـر مـن الرعايـة لنصـير

واثقـين أننـا أنجزنـا شـيئا؛ لنثبـت للجميـع أننـا هنـا عــازمون علــى الوصــول لبنــاء هــذا البلــد وبســواعدنا ســيكون التعميــر والخيــر؛ لــذا هيــا بنا لنبذل أقصى جُهدنا في نشاط وَجِد.

انطلــق تصــفيق حــار مــن الجمــع كموافقــة ضـمنية علـى كـل كلمـة نبعـت منـه، كتحفيـز لهـم ببـذل مزيـد مـن الجُهـد لترسـيخ أقـدامهم وإثبـات تفــوقهم وجــدارتهم فــي العمــل بهــذا المجــال، فصــفق بــدوره باســم الثغــر يُحــيِّهم، ويُشــجعهم وانتهــاءً أشــار بكلتــا يديــه؛ لينصــرف كــل منــهم إلى عمله المُكلف به.

دَلِــفَ قــبلهم يُمعــن النظــر لأركــان شــركته المُكونــــة مـــن طــــابقين اثنـــين لا ثالـــث لهمـــا،

يحــوي الأول مكاتــب المحاســبة والشــئون القانونيــة، كــذلك بعــض الأعمــال الإداريــة الأخــرى المعنيــة بحقــوق المــوظفين، وبــرُكن خــاص شُــيدت كافيتريــا لتلبيــة احتياجــاتهم مــن الطعـام والشـراب بسـاعات عملهـم التـي قـد تمتـد لســاعات إضــافية، قــد تصــل لمنتصــف الليــل؛ يتوســطه سِــلَّمُ رُخــامي يصــل للطــابق الثــاني حيــث مكاتــب المهندســين، مــدير الشــئون القانونيــة، بالإضــافة لمكتبــه واســع الأركــان الــذي دَلــف إليــه للتــو، جُدرانــه الثلاثــة زيتيــة اللــون مُزُينــة بالعديــد مــن مؤهلاتــه العلميــة وشــهادات تقــدير مُنحــت لــه مــن العديــد مــن مؤسســات المجتمــع المــدني، أمــا عــن الــركن الرابـع فقـد صُـمم ليغـدو كنافـذة زجاجيـة عملاقـة تُتـيح لـه الاطِّـلاع علـى مـا يجـري فـي الخـارج

مـن أحـداث، وتــارة يجعلهــا منفــذًا لــه ليستنشــق هــواءً نقيــا لانتشـــار بقعـــة خضــراء متراميـــة الأطـراف حـول شـركته؛ أوصــاهم بجعلهــا قُــرب المـدخل ليستنشـق عبيـر زهورهـا كلمـا سـنحت له فرصة لالتقاط أنفاسه بعد عناء العمل.

لاح ببصـــره نحـــو مكتبـــه الـــذي يتوســـط الغرفـة، سـار إليـه، تلمـس سـطحه بأناملـه علـى استحيـاء فكـم يعشـق خشـب الـزان الـذي صُـنع منــه؛ ليبـدو كتُحفــةً فنيــة صــنعها فنــان بأنامــل ذهبيــة، جلـس خلفـه مُسندًا ظهـره علـى كُرسـيه الـــوثيرالمُبطن بجلـــدٍ طبيعـــي، نـــاعم كـــالحرير، أسود كالليل.

بجانـــب نافذتـــه وُضِـــعت طاولـــة اجتماعـــاتٍ بيضــاوية الشــكل، تتســع لعشــرين شخصًــا بعــدد مقاعدها التي صُفت حولها بنظامٍ تام.

- وأخيرًا...

قالها مُجددًا فيما يُمسك سماعة الهاتف بيمناه ليُهاتف سكرتيرته آمرًا إياها بإحضار مَلفٍ ما.

(...)

صباح اليوم التالي، هرولت نجاة حزينةً، مضطربةً بينما تعتلي درجات معهد الأورام؛ فلم تدرِ بما أصابها وكريم إلا قبل زُهاء ساعة من الآن، عندما هاتفتها لتطلب منها منحها إجازة ليومين اثنين، حدثتها بصوتٍ مَشُوب بالبكاء:

- نجاة، أود أن تُساعديني للحصول على إجازة ليومين، يومين فقط.

كانـت نجـاة حتـى تلـك اللحظـة التـي أخبرتهـا فيهـا بحقيقـة الوضـع غيـر مدركـة، تريـد أن تفهم؛ لكن كيف؟ سألتها دون مبالاة:

- مـاذا! ولِـمَ تحتـاجين للإجـازة بـأي حال؟

- لا يُمكنني ترك كريم الآن.

هرولـت هنـا وهنـاك، بحثـت عنهـا بممـرات المستشـفى إلـى أن رأتهـا جالسـة بنهايـة الممـر الـذي دخلـت إليـه للتـو، وحيـدة، صـامتة، سـاكنة، كطيـف لا ينتمـي لهـذا العـالم، فهرولـت إليها تُعانقها، تسألها في خوف:

- مـاذا حـدث حبيبتـي؟ أيـن كـريم؟ ومـاذا أصابه؟

فلاحت بنظرها نحو الباب خلفها فالعناية الفائقة مقصدها؛ لنبض فؤادها الذي غدا حبيسها، ففعلت مثلها وتطلعت إلى ما تنظر إليه بُرهة ثم قامت من فورها تنظر عبر نافذتها الزجاجية لتُفاجأ بـ كريم مُسجى على فِرَاشِه، فاقدًا الوعي، جسمه الضئيل مُغطى بكمٍ هائل من الأجهزة الطبية المتصلة به؛ فبكت دون انقطاع، غير مُصدقةً أن صغيرًا كهذا يحتمل هذا العذاب؛ لم تشأ الذهاب، فقامت مريم تهدئ من روعها بعذب حديثها:

- حبيبتي، علينا التحلي بالشجاعة ليكون بخير، هيا اذهبي لعملك فلا يمكنك التغيب مثلما فعلت، فالمدير لن يغفر لنا ذلك قط.

جففت دموعها ناظرة إليها تُجاهد حُزنها لرسم بسمة على شفتيها قائلة:

- حسنًا.

- جيد، هيا اذهبي ولا تنسي فعل ما أخبرتُك به، يومين فقط، أفهمتي؟!

فأومأت برأسها مُودعة إياها أن أجل، رحلت دون أن تنظر خلفها فعيناها تذرفان مجددًا.

عند العاشرة، وقفت أمام مدير الشئون تُمِده بطلب الإجازة كما أوصتها مريم هذا الصباح، فتناولها من يدها وأخذ يقرأ ما بها ثم ما إن وصل لذلك الموضع بالذات حتى تطلع إليها عابس الوجه قائلًا:

- أسبوعٍ كامل!

- أجل سيدي.

فأعاد طلبها إليها حانقًا:

- لا أُوافق، هيا عودي لعملك.

غيـر أنهـا لـم تبـرح مكانهـا وتسـاءلت فـي تحـدٍ بائن:

- وما الضرر في ذلك؟

فأسند ظهره للخلف ثم عاد يسألها:

- وفيما تحتاجين تلك الإجازة؟

- ليســت لــي، بــل لـــ مــريم، كمــا هــو موضح هنا.

مُشــيرة بيــدها نحــو إســمها بطلــب إجازتهــا، فتطلع حيث تُشير ثم عاد ينظر إليها موضحًا:

- لــيس بيــدي حيلــة، ممنــوع الإجــازات حتـى إشعارٍ آخـر، كمـا جـاء ببيـان د/ حسـين منـذ يومين.

فخرجـت حانقـة، تُعاتـب ذاتهـا؛ إذا كـان الأمـر كـذلك، فَلِمَ يُضيعِ وقتـي عبثًـا بهـذا القـدر!، لِمَ لـم يقل ذلك منذ البداية؟

ذهبـت للمـدير بِخُطـى واثقـة، حاملـة بيُمناهـا ذات الطلـب، طرقـت البـاب ثـم انتظـرت إجابتـه، عنـدما لـم يفعـل طرقـت مجـددًا ومجـددًا حتـى أجابها غاضبًا:

- ماذا الآن؟

بـدروب حياتنـا، قـد تُغـادر أو تُسـاند أو تبقـى بيننـا؛ لتكـون ذا أثـر، وإن رحلـت يومًـا سـتبقى هنا، ما دام نَبضُكَ ذات يومٍ انتفض.

دخلـت دون تـرددٍ، وقفـت أمامـه بينمـا كـان يتحـدث وأحـدهم عبـر الهـاتف، انتظـرت حتـى أنهـى مكالمتـه الهاتفيـة ومدتـه بالطلـب لتقـول في حزم:

- أرجو أن توافق على هذا سيدي.

فتناولـه مـن يـدها وقـرأ مـا بـه، لـم يكـن الطلـب مُسببًا فقال مستنكرًا:

- بدون سبب جاد، مرفوض.

فلـم تملـك مـن أمرهـا شـيء وقالـت بنبـرةٍ هـي أقرب للبُكاء:

- أرجـوك سـيدي؛ كـريم، يحتضـر ولا يُمكنها مُفارقته بهكذا حال.

اضـطربت أنفاسـه وتهـاوى فـي بئـر سـحيق مـن الألـم، كمـدًا وحُزنًـا لكلمـاتٍ لا تُبشـر بخيـرٍ مُطلقًا.

(الفصل الثاني عشر)

همساتٌ دافئة

بعـد يـومين أو ثـلاث بـدا كـريم أفضـل ممـا كـان، فـتح عينيـه مـن جديـد؛ ليهـدأ نـبض مَـن كانـت تحيـا بـه ولأجلـه بعدما بـدأ يسترد عافيتـه يومًـا بعـد آخـر، للحظتهـا هـذه مـا تـزال غيـر مُصـدقة أن الـدُكتور/ حسـين، هـو بذاتـه مَـن جـاء لفعـل ذلـك، فبينمـا هـي جالسـةٌ أمـام العنايـة المركـزة تنتظـر بريـق أمـل يبعـث الطمأنينـة بقلبهـا إذا بهـا تـراه مُقبـل نحوهـا بوجـه قلـقٍ بعـد دقـائق مـن مغـادرة صـديقتها، يسـألها بأنفـاسٍ لاهثة:

- مـــاذا حـــدث بُنَيَتـــي؟ مـــا بـــالُ كـــريم؟ عسى أن يكون بخير...

فنهضت بوجهٍ مضطرب، تستقبله قائلة:

- لا عليـــك ســـيدي، لا تقلـــق، ســـيغدو بخير.

وبينمـــا همـــا يتحـــدثان إذا بهـــا تُبصـــر تلـــك الورقـــة التـــي يقـــبض عليهـــا وكأنمـــا يخشـــى فِرارها من بين أنامله، لتقول مستفهمة:

- ما تلك بيمينك؟

فتطلـــع لقبضـــته وإذا بـــه يُفاجـــأ بطلـــب الإجـــازة الخـــاص بهـــا مـــا يـــزال بيـــده. ودون تـــردد أخـــرج قلمـــه مـــن جيـــب سُـــتْرَته ليضـــع موافقتـــه علـــى طلبها في الحال، ليقول في ثقة:

- لا عليـكِ، يمكنـك الحصـول علـى إجـازة كيفما ووقتما تشائين.

ذات صـــباح، بينمـــا هـــي جالســـة بجـــواره تتطلـــع إليـــه أثنـــاء نومـــه شـــاردةً، تُفكـــر بحالهمـــا

هـا هـي تُفاجـأ بـه يسـتيقظ فزعًـا لرؤيـة مزعجـة بمنامــه؛ فضــمته إليهــا؛ تُهــدئ مــن روعــه، لنبضـات قلبـه المتسـارعة للحـد الـذي يعجـز معـه عن التقاط أنفاسه، احتوته بذراعيها متسائلة:

- مــاذا بــكَ يــا عُمــري، اهــدأ، لا داعــي للذعر فأنا هنا بجانبك.

فتشـبث بهـا بقـوة عَلَّـه يستشـعر الأمـان؛ لكـن كيـف السـبيل لـذلك؟ ومـا ينتظـره مـؤلم بالقـدر الـذي يتمنـى فيـه لـو يُغمـض عينيـه ولا يفتحهمـا مــرة ثانيــة فقــد جــاءت الممرضــة لتوهــا، تُــذكرهما بموعـد جلسـته الكيماويـة التـي سـتبدأ بعـد دقـائق فأجابتهـا مـريم طابعـة علـى وجنتيهـا بسمةً مترددة:

- حسنًا، سنأتي في الحال.

حملتـه بـين ذراعيهـا فيمـا كـان يبكـي مضـطربًا، لا يـود ذلـك؛ يتـألم كثيـرًا والجميـع لا يُبـالي، ظـل يُردد وصدي بُكاءه يشاطره جُل آلامه:

- لا أُريد، أمي، لا تدعيهم يأخذوني.

استقبلهما الـدكتور/ مـراد بغرفـة العـلاج باسمًا؛ لكـن مـا إن رآه باكيًـا حتـى تبـدل حالـه، حمله عن والدته وهمس إليه في عَطْف:

- مـاذا بـكَ يـا صـغيري، لا داع للخـوف، لن تتألم أعِدُك بذلك.

قالها بينما يخطو بـه لبدء جلسة علاجه وكريم بين هذا وذاك يزداد صراخًا:

- لا أُريد، أمي، لا تتركيني.

مـدده علـى الكُرسـي فيمـا كانـت والدتـه تعتصـر ألمًـا لصـرخاته المتتاليـة ولا يُمكنهـا

فعل شيء، تود محو آلامه ولا سبيل أمامها غير ذلك، تعرف تمام المعرفة ما يشعر به وتلك القطرات تخترق وريده، بين الفينة والأخرى يرجوها لتُبعده عن هنا فأطرقت رأسها في حُزن، والطبيب يمضى قدما للبدء بجلسة علاجه، فها هو يشرع بوضع إبرة دواءه بوريده الأيسر تمهيدًا لتدفقه؛ عَلَّها تُنجيه؛ لصرخاته التي لا تتوقف:

- أُمي، أعدك لن أتألم بعد ذلك، لن أبكي، لا، أمي.

باتت تُحدث ذاتها: كيف لي أن أراكَ ولا أراك يا نبض قلبي ونور فؤادي، كيف لي ألا أبالي برجاءٍ يُمزق أحشائي، كيف لي أن أبدو شامخة لحظات انهياري، اعذرني فإني والله مُرغمة، كبلوني، جردوا بسماتي، يا صغيري

لا تُبالي فإني والله ما فعلت إلا لمحو آهاتٍ تُزلزل وجداني.

نزع يده متألما؛ لتنفصل الإبرة عن وريده؛ لتتدفق دمائه بغزارة. فيما والدته بهواجسها وتذبذبها كادت أن تسقط، همساتٍ، صرخات، نظرات عِتاب عادت تُطاردها، وهي كما هي تَدَّعي التجلد عبثًا حتى تلك اللحظة التي صاحت بها واضعةً كفيها على أُذنيها:

- كفى...

لكن أحدًا لم يسمعها، تطلعت من حولها؛ لتُفاجأ بحالها جالسة بتلك الزاوية قُرب الباب وكل شيء يمضي حيثُ قُدر له، فالطبيب لم يُبالِ، ماضٍ في عمله، وكريم على حاله لا ينفك صارخًا.

تحجـرت الـدموع بمقلتيهـا فيمـا لا تـزال تنظـر إليـه، كـان مشـهدًا ضـبابيًا، لـم تتبـين ملامحـه حتـى تلـك اللحظـة التـي رأتـه فيهـا باسـطًا يديـه نحوهـا؛ يرجوهـا ليرحـل عـن هنـا، يـئن ألمًـا، يصرخ في يأس:

- أبي.

هرولـت إليـه تُسـابقها عبراتهـا، ضـمته إليهـا فـي خـوف، راجيـةً طبيبـه أن يتوقـف فصـغيرها يرتجف في ذُعر:

- آسـفة دُكتـور؛ لكـن أيُمكننـا تأجيـل ذلك للغد؟

- أخشـى أن يعتـاد علـى هـذا ولا يُمكننـا مساعدته بشيء.

- أرجوك، سنؤجل ذلك للغد فقط، أعِدُك.

- كما تشائين...

في جو من النشاط والعمل الدءوب ها هم يُحققون نجاحًا بعد آخر. ياسين سعيد بفريقه الذي لا يتوانى عن وضع بصمته لترسيخ أقدامهم في ثباتٍ ظاهر، رغم حداثة عهدهم بهذا المجال؛ فجُلّهم قد تخرج بالعام الماضي، ها هم ينجحون في الفوز بعدد من المناقصات الحكومية بمجال التعمير لتميزهم دون غيرهم.

اجتمع بهم جميعهم بمكتبه، يهنئهم ويُهنئونه على ما حققوه. جلس إليهم يحثهم على بذل المزيد فحلمهم بين أيديهم ولا سبيل

للعـودة عـن مسـارهم الـذي حـددوه، بـدأ بطـرح خطتـه للعمـل علـى تلـك المشـروعات التـي فـازوا بهـا، بدايـة مـن تقسـيمهم لفـرقٍ عمـل كـل فريـق سينقســـم لمجمـــوعتين، إحـــداها بالميـــدان والثانيـة بالشـركة؛ كـي يكونـوا متـاحين للعمـل رغـم مـا يعترضـهم إذا مـا اسـتَجدّتْ أمـور، إلـى تحديـد أجـود الخامـات والأدوات التـي سـيعملون بهـا ليغـدو الوضـع النهـائي أجمـل مـا يكـون، انتهـاءً بعـدد سـاعات العمـل التـي يجـب الالتـزام بها.

فـوق كـل انتصـار ببريقـه الخـادع هنـاك دومًـا نقطـة رجـوع تـأبى مفارقـة وجدانـه وطيفًـا عطوفًـا يـأبى نسـيانه، فهـل مـن سـبيل لتحقيـق الأمـاني رغـم صِـراعاتٍ جَمَّـة سـقط صـريعُها

لافتقـاد نـبض فـؤاده وبوصـلة حياتـه. هـل مـن سبيل للنجاة من غياهب ظُلماته؟!

(...)

لـم يَـنعم بالأمـان إلا بوجـوده، فبعودتـه منـذ مـا يُقـارب السـاعتين لـم يـزل جالسًـا علـى تلـك الأريكـة قـرب النافـذة يضـم صـغيره الـذي اسـتكان بـين أحضـانه لافتقـاده إليـه أيامـه الماضـية، ظـل عـادل علـى هيئتـه هـذه حتـى غلبهمـا النـوم فجـاءت زوجتـه توقظهمـا ليناما بغرفتيهمـا فأشـار إليهـا أن تصـمت، لا يريـد إزعاج صغيرهما الذي نام لتوه، قال لها:

- لا بأس، سننام هنا.

- لكن...؟

فأشار إليها قائلًا:

- لا تشـغلي بالـك، سـنتدبر أُمرنــا جيـدًا، هيا اذهبي ونامي.

استيقظ باسـل والطيـور تشـدو وتُغـرد بأجمـل الألحـان، ليُفاجـأ بـه وبوالـده علـى وضـعيتهما التـي كانـا عليهـا أمـس، أبصـر والدتـه مُقبلـة نحوه ما إن رأته مستيقظًا، دنت منه باسمة:

- صباح الخير بُنَيَّ، هل نِمتَ جيدًا؟

فتطلـع لوالـده فيمـا هـو نـائمٌ بجـواره، يُجيبهـا آسفًا:

- آسف أمي.

- بشأن ماذا؟

فتطلع إليها والحُزن يشع من عينيه مُردفًا:

- لِـمَ لـم تـوقظيني؟ مـا كـان علـيّ فعـل ذلك، أنا جَدُ آسـ.....؟

فضـمته إليهـا، رَبِـتـت علــى كتفـه مُداعبـة إيـاه قائلة:

- حقيقـــة، لقـد انتهزهـــا والـــدك؛ لينـــام بين أحضانك، يحتاج لدفئك لينام قرير العين.

استـيقظ والـده بـذات اللحظـة علـى صـوتهما العـــذب، يُـــدلك عينيـــه فـــي تثـــاؤب، يُـــداعب خُصلات شعره قائلاً:

- صباح الخير، كم الساعة الآن؟

لـم ينتظـر جوابهمـا ونهـض فـي الحـال؛ فلديـه الكثيـر مـن الأعمـال عليـه انهاؤهـا قبـل رحـيلهم، إذ قال فيما يمضي للحَمَّام:

- استعدا، سنرحل بعد يومين.

تفاجأ باسل لقوله، نهض فَزِعًا.. لا يكاد يُصدق ما سَمعت أُذناه ليقول مضطربًا:

- ماذا؟! ولِمَ؟!

نظر لوالدته لعلها تُطمئنه فما وجد غير عينين تلوذان بالفرار فاندفع لغرفته، صائحًا:

- لا.

انتابتها غُصَّة بحلقها؛ لتبقى بمكانها ساكنةً كما الصخر، بات الأمر جَدُ حقيقي ولا مَنَاص للفِرار؛ إن وافقت بدايةً فالأمر ما زال يُربكها لمجرد التفكير به، نهضت بقلبٍ يرتجف وأوصال متثاقلة كمدًا وحُزنًا لرحيلهم عن الديار، بِخُطى واهنة سارت لصغيرها؛ لعلها تُذْهِب ما به من آلامٍ وتُضمد جراح تأبى

الإنــدمال، تفاجـأت ببابــه موصــدًا مــن الــداخل ويــأبى الانصــياع لكلماتهــا، فمــا زال غاضــبًا، صارخًا:

- لا، لا أُريد، أخبريـه أنـي لـن أرحـل، لـن أترك يده مُجددًا، لن أفعل.

- باسل، أرجوك.. افتح الباب لنتحدث.

مــا إن ســاد الصــمت بينهمــا حتــى شــعرت بقشــعريرة تســري بأوصــالها لتتســرب البــرودة إليهــا وتُصــاب بــالجزع؛ مستســلمة لهواجســها الشــيطانية التــي تعصــف بعقلهــا؛ طرقــت بابــه بقـوةٍ؛ لرُبمـا يخشـى عقابهـا ويخنـع لأمرهـا فمـا فعـل؛ فالصــمت عنوانــه، نبضــات قلبهــا غيــر منتظمــة، أنفاســها تتســارع، تخشــى أن يكــون أصــابه مكـروه مـا، تعـود وتهـدأ، قلبهـا يُخبرهـا أنــه بخيــر، عقلهــا يصــرخ لا، تــأبى تصــديقه

وتـأبى طـرد هواجسـها إلـى أن خـرج عـادل جَزِعًـا لصـوتها فيمـا لـم تـزل منشـفته الخاصـة بيده يجفف وجهه وسَاعديه متسائلًا:

- سلمى، ما الأمر؟ ما هذه الجَلَبَة؟

فتطلعـت إليـه ودموعهـا تنهـال؛ لتُجيـب فـي ذُعـر متشبثةً بذراعيه:

- أغلـق بابـه مـن الـداخل، لا أدري، إنـه لا يُجيبني. عادل، أرجوك افعل شيئًا.

بُهِـتَ لقولهـا، طـرق بابـه، تحـدث إليـه محـاولًا إثناءه عما يفعل، قال معتذرًا:

- آسـفٌ بُنَـيّ، نفعـل هـذا لأجلـك أنـت، نعجز عن رؤيتك تتألم بغير ذنب.

عنـدما لـم يُجـب بـدأ القلـق يتسلل إلـى قلبـه كأشـعة الشـمس الحارقـة، تطلـع لزوجتـه فيمـا لا

تـــزال باكيـــة لحـــال صـــغيرهما، يُفكـــر.. يُمعـــن النظـر مــن حولــه؛ لعلــه يعثـر علــى شــيء مــا يُســاعده بفــتح البــاب فلــم يجــد، أخــذ يدفعــه بجســمه، ظنًــا منــه أنــه قــادر علــى تحريكــه فمــا استطاع قدر أنملة.

لا يـذكر أيـن وضـعه؛ لكنـه حتمًـا بمكـان مـا هـا هنـــا، هـــرول يُمنـــة ويســـرة، بحـــث بكـــل شـــبرٍ وزوجتــه مــن خلفــه كَظِلــه إلــى أن عثــر عليــه أخيـــرًا، كـــان يُخبئـــه فـــوق دولاب خشـــبي بـــالمطبخ، أحضـــر كُرســـيّ صـــغير وصـــعد عليـــه، ســحب صُــندوقه بصــعوبة بالغــة لِثُقــل مــا يحويــه مـــن أدوات جُلّهـــا مـــن الحديـــد، وضـــعه علـــى الأرض أمامـــه، بحـــث بـــين محتوياتـــه فـــي غيـــر صبرٍ عن عَتَلة يستخدمها:

- ها هي...

عـاد مهـرولًا وزوجتــه مــا تــزال فــي أثــره، وضـع الـذراع الحديـدي موضـع لسـان البـاب ثـم بـدأ يدفعـه بالإتجـاه الآخـر. مـرةً، مـرتين، ثـلاث مراتٍ حتى فُتح...

لــم يُصــدقا أعينهمـــا، أصـــابهما الإضـــطراب والــذعر لرؤيتــه بموضــعه وهيئتــه التــي كــان عليهـا، فــ باسـل جالسًـا القرفصـاء بنافذتـه التـي فُتحــت علــى مصــراعيها، واضــعًا رأســه بــين رُكبتيــه يــذرف الــدمع مُنتحبًــا، بــين راحتيــه صــورة وحيـدة تجمعهمـا، كانـا يضـحكان لحظـة التقاطها.

يسـتقبله نسـيم الصـباح غيـر آبهًـا؛ ليكـون فـي مهب الريح، إن اشتدت يسقط في الحال...

شــهقت فــي جــزع، كــادت والدتــه أن تســقط موضـعها مـا إن رأتـه بحالـه الـذي كـان، بينمـا اقتـرب والـده رويـدًا، مُحـدثًا ذاتـه لعلـه لـم ينتبـه؛ لكــن هيهــات، هيهــات فمــا إن خطــى خطوتــه الأولـى حتـى تطلـع إليـه غاضبًا بعينـين قـد غـاب بريقهـا لكثـرة بكـاءه ثـم عـاد يتطلـع إلـى مـا بـين راحتيــه، لــم يــتمكن مــن التقــدم عــن موضــعه الــذي بــه، يَخشــى الأســوأ فــ باســل لــن يبقــى مكانـــه إن شَـــعر بـــالخطر؛ تحـــدث إليـــه، أرغـــم ذاته ليبدو هادئًا:

- باسـل، انظـر إلـيّ، أرجـوك بُنَـيّ ابتعـد عن النافذة...

فأجاب آسفًا متطلعًا لصورته:

- أتخشــى مــوتي، أهــذا حقًــا مــا تشــعر به؟

فاقترب خطوة قائلًا:

- باسل، صدقني.. نشعر بألمك، فقط امنحنا فرصة؛ لنساعدك.

فصاح به ضاربًا بقبضته موضع قلبه:

- لا أبي.

ثم مال برأسه مسندًا إياها على رُكبتيه، يستطرد ما بدأ:

- لن أترك يده مُجددًا.

لجوابه الذي لا يبعث الطمأنينة مطلقًا ها هو يتخذ قراره، هرول إليه غير آبها بصراخه الهستيري الذي امتزج بصرخات سلمى:

- لا...

سقط ثلاثتهم، تمكن عادل من احتضانه ليسقطا سويًا بأرضية غرفته، بينما سقطت

سلمى غير بعيد عنهما لذُعرها وهي تراه على حافة الهاوية، عاجزة عن ردعه وثَلْج فؤاده...

بأنفاسٍ مضطربة ووجه شاحب، استقر باسل بين يديّ والده الذي احتواه في حنان، هامسًا بأُذنه:

- نبيل، لن يرضى بحالك هذا، افعل هذا لأجله، اجعله يفتخر بك في كل ما تُنجزه، سيسعدُ بك وستجده دومًا يَشُد عَضُدك لتكون بالمقدمة، أرجوكَ بني، توقف عن عِنادك وعُد إلينا، ما عادت تطيب لنا الحياة دونك.

لمست كلماته شِغاف قلبه؛ فها هو يُغمض عينيه يستشعر دفء همساته، مستسلمًا، غير

آبــه بمــا ستمضــي حياتــه، ظـن والـداه أنــه قـد غفى نتيجة ما أصابه؛ لكن الحقيقة غير ذلك.

(الفصل الثالث عشر)

لقاء

بلــغ الجَهــد منهمــا منــزلًا وهمــا يُحــاولان إثنــاءه عــن بُكــاءه؛ ليبــدأ جلســة علاجــه، حاولــت والدتــه جاهــدة تحقيــق ذلــك تــارة غاضبــة، أخــرى حازمــة، ضــحكت بوجهــه لــتلجِمَ عِنــاده وهــو علــى حالــه، فتطلعــت للــدُكتور/ مــراد حــائرة، تهــز كتفيهــا مُدَّعيــة أن مــا بيــدها حيلــة أمامــه؛ حملتــه فــي رفــق، ضــمته إليهــا، رَبِتــت علــى كتفــه هامســة بأُذنــه تُطمئنــه، مُشــيرةً بيــدها لطبيبــه الــذي فَهِــم مــا فــي نفســها، انتظــر ليســتكين، ومــا إن بــدأ يغفــو لِــوَهَّنٍ أصــابه حتــى قــام يفعــل ذلــك، دقـــائق وغـــدا كـــريم مُهيّئًـــا ليتـــدفق الـــدواء بوريده.

ظلت تحمله أثناء جلسته التي امتدت ما يزيد عن ساعتين، لم تهنأ ولو دقائق، تئن لألمه بين الفينة والأخرى تتطلع إليه بقلب تتهاوى أركانه، ترتعد كَمدًا وحُزنا فصغيرها وكأنما يُنازع روحه، عاجزة عن التفكير؛ فصدى صوته يفتك بعقلها، يُحاصرها وإن غاب لأعوام:

- ما كان علينا فعل ذلك، أخبرتك أنه سيعود، لَستِ مُرغمة للبقاء بجواره.

كانت كلما ضعفت وانهالت عبراتها رغمًا عنها تتشبث به، تستمد قوتها بدفء قلبه النابض، رغم عواصفه الهوجاء، ما زال يُقاوم.

الممرضات بين الفينة والأخرى يُقبِلن إليه، يتيقنون إذا ما كانت جلسته تسير على خير

ما يُرام أم لا، يسألنها إذا ما تحتاج لشيء فتكتفي بإيماءة رأسها أن لا، تُغمض عينيها كإشارة ضمنيةٍ لشكرهم على ما يبذلونه من جُهد.

عند الظهيرة، عادت به تحمله لغرفته خائر القوى، عاجز عن التقاط أَنْفاسِه، نبرة صوته، عزيمته.. انبروا جميعًا للوقوف بوجهه؛ فاستكان بِفِراشه، تطلع إليها فيما هي جالسة بجواره، تُربِتُ على يديه باسمة، تُطمئنه أن الغد سيغدو أفضل، فأغمض عينيه، يحتفظ بصورتها بين جفونه، يستشعر دفء يديها، يضمهما إلى صدره؛ كي لا تُفارقه.

مرت الأيام بين جنبات معهد الأورام رَتِيبة، فـ كريم حبيس فِرَاشه، لا يهنأ له

بـال، يتملمـل فـي غيـر صـبر لبقائـه هنـا؛ يَمقـت آلامـه ويُـبغض دواءه الـذي أصـابه بِـوَهّنٍ فـاق احتمالــه، يــود الخــروج، الانطــلاق كمــا كــان فــاعلًا، يعــود لألعابــه، أقلامــه، دفتــر رســوماته وألوانــه. لتغـدو والدتـه الشـفاء والبلسـم بِحُسـن حديثها رغم كثير أحزانه، فتارة تُخبره:

- بُنَــيَّ، ثِــق دائمًــا أن مــا أصــابك إلا خيرًا.

وأخرى تُبشره:

- لا بــأس حبيبــي، لــم يعــد إلا اليســير ويتم شفاؤك.

يــا صــغيري لا تُبــالي فالليــل حتمًــا ســينجلي؛ لتنتشــر شــمس الضــحى ضــياؤها؛ لــيَعُم ربــوع الكـون بهجـة وسـرورا؛ ليـنهض كـل حـي مُسـبحًا وحامدًا.

ذات صباح وبينما تُناوله طعامه بيديها فيما هو جالس بسريره عابسًا إذا بها تخبره مستبشرة:

- اليوم، سنغادر.

فتطلع إليها بعينين تُبرقان، فَرحًا، يُعانقها ضاحكًا غير آبهًا بطعامه الذي تبعثر بينهما، فقالت باسمة:

- ألهذا الحد تشتاق للخروج! تمهل؛ فلدينا النهار بِطوله.

تمام الخامسة مساءً، ترجلت وكريم من سيارة أُجرة أقلتهم لمنزلهم الكائن بـ..(عبد الحي حجازي) بمدينة نصر، ساعدته لينهض عن مقعده الخلفي ثم شرعت بحمل حقيبتيه، تضعهما على الرصيف بجانبها، حينما انتبهت لتلك الشاحنة وأولئك الأفراد من حولها ينقلون أثاثهم للمبنى المُقابل لها، وقفت

تتــرقبهم إلــى أن لاح أمامهــا طِفـلٌ صــغير لــم يتجـاوز الحاديــةَ عشـر مــن عُمــره، لــم تتبــين ملامحــه جيـدًا فقـد كـان دائـم التحـرك، لـم تنتبـه لتــذمر صــغيرها بوقفتــه إلا حينمــا جــذب يــدها قائلًا:

- هيا أمي، لِمَ نقفُ هنا؟!

رأته عابس الوجه فهمست إليه باسمة:

- آسفة حبيبي، هيا بنا.

تناولــت يــده تُحكــم قبضــتها عليهــا وبيــدها الأخـرى حقيبتيــه؛ ليســيرا معًـا وقـد لاحـت منهـا التفاتـــة ســـريعة نحـــو ذاك الطفـــل الـــذي تطلـــع إليهــا بــذات اللحظــة وكأنمــا يعــرف أنهــا تترقبــه دونـهم.

(...)

بـدا عـادل مُنهمكًـا بنقـل أثـاث بيتـه لمنزلـه الجديد بشارع (عبد الحي حجازي) حينما جاء نبيل ووالده ليُساعداه في ترتيب بيته قبل حلول الليل. تصافح ثلاثتهم في حبور بالغ:

- مرحبًا أيها العجوز.

قالها عادل مُداعبًا إياه فأدرك الآخر مقصده وأجابه بصوته الجهوري:

- لو أنكَ قلتها المرة السابقة؛ لكان لي تَصرفٌ آخر.

- مرحبًا بكَ أستاذ عاصم.

ضحكا معًا.. وانطلق نبيل إلى العُمال يُساعدهم بحمل الأثاث للداخل...

....*..*

بعد يومين وحول مائدة تتسع لـ6 أفراد جلس عادل، نبيل، والسيد/ عاصم يتناولون غذاءهم في جو من السرور والمرح فيما سلمى بمطبخها الذي لم تألفه بعد، تقوم بتوفير مزيد من الطعام قبلما تدعو زوجها ليحمله إلى مائدتهم، مسرورةً بوضعها الجديد ومتوجسة، تخشى الأسوأ دائمًا، هكذا طبعُهَا، تعجز عن المُضيّ قُدمًا، ترثي حالها وحال وحيدها الذي نال كفايته من الألم.

بانتهائهم، جاء إليها، يطلب في وُد أن تَعُد فنجانين من القهوة وكوبه الخاص ثم انصرف سريعًا إلا أنه عاد مُجددًا بعدما كاد أن ينسى، يسألها:

- أين باسل؟

كان بغرفته، يُرتب أشياءه في موضعها كما يجب؛ لكنه عندما فتح ذلك الصندوق الذي بين يديه الآن ولم يجد ما يبحث عنه حتى قامت ثورته وأخذ ينثر محتويات صناديقه الورقية جميعها بأرضية غرفته، يبحث عنها في جزعٍ واضطرابٍ بائن بذات اللحظة التي دخل فيها والده يدعوه للمجئ معه.. وما إن فُوجئ به جاثيًا على رُكبتيه يبحث عن شيء ما بين أغراضه المُبعثرة من حوله، صارخًا:

- أين هي؟

حتى دنا منه، جثى بجواره مستفهمًا:

- باسل، عَمَّا تبحث؟ وما هذه الفوضى؟

فتطلع إليه باكيًا:

- لا أجـدها، مـا بقـي مـن ذِكـراه أيضًـا رحل.

رَقَّ قلـب والـده لحالـه وهـم ليُـداعب خُصـلات شـعره التـي طالـت سـنتيمترات قليلـة كمحاولـة لمواسـاته إلا أنـه لـم يتقبـل ذلـك ونـهـض مسـرعًا ظنًـا منـه أنـه لا يعتبـر لحالـه، أسـند جبهتـه لبـاب غرفته يلتقط أنفاسه قبلما يستدير قائلًا:

- لَسَت مضطرًا لفعل ذلك.

نهـض حـائرًا، وقـف نَصَّـبَ عينيـه بينمـا باسـل يستطرد غاضبًا:

- لَسَت مُرغَمًا لادِّعاء حُبّك لي.

فسـار إليـه بِخُطـى واثقـة، يُمعـن النظـر ليديـه المتشابكتين؛ ليقول آسفًا:

- وأنت لَسْتَ مضطرًا لادِّعاء بُغضك لي، مهما حاولت جاهدًا، فأنتَ في قلبي، جميع أوصالي تصدح بذلك، أنتَ بعضي، وأنا جزءٌ راسخٌ من كيانِك.

ترقرت الدموع بمُقلتيه؛ لكنه أبدًا لن يسمح باقترابه، فتح باب غرفته وهرول مُسرعًا ووالده من خلفه؛ ليرى أين سيصل ذلك العنيد بأفعاله.

كاد نبيل أن يخرج لإحضار شيء ما لوالده حينما اصطدم باسل به من الخلف؛ لعجزه عن رؤية ما أمامه لِشدة بُكاءه، سقطا معًا بذات المكان وكلاهما يتألم، وقف عادل غير بعيد يُراقبهما، فما ذهب إليه بغرفته إلا لذلك، تحدث بشأنه كثيرًا أمام نبيل الذي ما جاء

اليــوم إلا لرؤيتـــه والتحـــدث معـــه، لرُبمـــا يصبحان صديقين فيما بعد.

جلـس نبيـل معتـدلًا غيـر مُـدرك مـا أصـابه ومـا إن أبصـر ذلـك الطفـل الواقـف أمامـه، يتطلـع إليـه عابسًـا، شـاردًا حتـى نهـض فـي الحـال ومـد يـده ليُصافحه باسم الثغر قائلًا:

- أنا نبيل، لا شك أنكَ باسل.

فمـــا كـــان منـــه إلا أن خبـــأ يـــده خلـــف ظهـــره ساخرًا:

- وكيف ذلك!

كـاد الوضـع أن يتـأزم لـولا عـادل الـذي هـرول إليهمـا، لتـدارك مـا بقـي مـن هـدوءٍ كـان يسـكن أركـان بيـتهم منـذ دقـائق خلـت؛ كـي لا يثـور مـن جديـد ويحـدث مـا لا يُحمـد عقبـاه، عـانق صـغيره

مـن الخلـف وتظـاهر بالاتكـاء عليـه مشـيرًا بيـده قائلًا:

- باسـل، هـذا نبيـل، هـو ووالـده مَـن ساعدانا للحصول على منزلنا هذا.

فـي المسـاء، جلـس ثلاثـتهم بغرفـة معيشـتهم، باسـل جـالس علـى كرسـيه الـذي وضـعه مباشـرة أمـام التلفـاز، يشـاهد أحـد الأفـلام الوثائقيـة عـن عـالم الحيـوان بعنـوان (الحيـاة فـي البريـة ومخاطرهـا) بينمـا والـداه مـن خلفـه، يجلسـان بـأريكتهم يتسـامران، بـين الفينـة والأخـرى يتطلـع أحـدهما لـ باسـل صائحًا:

- لا تلتصـق بالتلفـاز هكـذا، عُـد بِكُرسـيك قليلًا للخلف.

فمـا انتبـه لهمـا قـط، حتـى تلـك اللحظـة التـي جـاءت فيهـا والدتـه تُعانقـه، تُقبّلـه بإحـدى وجنتيه قائلة:

- هيـا لتَخُلـد للنـوم؛ لتُرافقتـي للتسـوق غدًا.

أومأ برأسه أن لا ثم أعقبها بقوله:

- لا أود الخروج.

فتطلعـت لزوجهـا الـذي لـم يـزل جالسًـا بـالخلف يُنصت لهما، قائلة:

- غـدًا الجمعـة، ولا مجـال للـرفض، سنذهب ثلاثتنا، هذا أمر.

تمـام التاسـعة صـباحًا، دَلِـف ثلاثـتهم متجـرًا كبيـرًا يضـم عـدد مـن المحـال والأقسـام المتجـاورة للتسـوق، تعلـل زوجهـا بـبعض

الأمـور التـي عليـه انجازهـا ورحـل مسـرعًا فيمـا ظـلا لتلبيـة احتياجـاتهم، لـم تمـضِ غيـر سـاعة حتـى غـدا باسـل ضَـجِرًا، لا يـود البقـاء بهـذا المكان الشاسع، مُرددًا:

- أود الذهاب، هيا لنعود للبيت.

ووالدتـه تُحـاول عبثًـا ليبقـى هادئًـا، بينمـا همـا كـذلك إذا بهـا تُبصـر سـيدةً بشوشـة الوجـه تكـاد تُجـزم أنهـا بعُمرهـا، مُقبلـةً نحوهمـا بقامتهـا المتوسـطة، دافعـة عربـة التسـوق بمـا تحويـه أمامهـا، تتطلـع لـ باسـل بعينـين زرقـاوين باهتمامٍ قائلة:

- صباح الخير، لا شك أنكِ لا تعرفيني.

فأومـأت برأسـها أن لا، فعـادت الأخـرى تسـتطرد حـديثها بينمـا تُمسـد بيـدها علـى رأس باسل الذي ضجر لفعلها:

- أعــرف هــذا الصــغير، رأيتــه ســابقًا، حينما كنتم تنقلون أثاثكم منذ يومين أو ثلاث.

ثم أرسلت يدها لتصافحها مستطردةً:

- أنا مريم، أُقيم بالمبنى المقابل لكم.

- أنا سلمى وهذا باسل، ابني.

فــازداد وجههــا اشــراقًا مشــيرة بيــدها جانبهــا قائلة:

- وهذا كريم ابــــ......؟

لتتلعــثم كلماتهــا وتضــطرب أنفاســها. اســتحال وجههــا فزعًــا بعــد اطمئنــان؛ لاختفــاء صــغيرها، تطلعــت مــن حولهــا فلــم تجــده، تركــت مــا بيــدها وهرولــت تبحــث عنــه جزعــة وسلمى مــن خلفهــا تُحــاول عبثًــا اللحــاق بهــا ومعرفــة مــا أصــابها، تاركــة باســل لــيحفظ أغراضــهما ريثمــا تعــودان،

كمـا أوصـتـه إلا أنــه مَـلَّ مــن الانتظــار وذهــب يبحــث عنهمــا دون وجهــة، بتلــك الأثنــاء كانــت مـريم علـى حالهـا مـن الاضطراب والفـزع تبحث بكـل مكــان عــن صــغيرها باكيــة، تُناديــه فــي جــزع، وســلمى مــن خلفهــا تحــاول تهــدئتها ليتصـرفا بعقلانيـة؛ كـي يجـداه ويهـدأ بالهـا. بـين هـذا وذاك وسـؤال المـارة عـن وحيـدها التفتـت إليها مستفسرة:

- أين ابنك؟

- تركته عنــــ...؟

لــم تمنحهــا فرصــة لِتُكمــل حــديثها بــل دفعتهــا بالاتجاه الآخر صارخة بها:

- يــا لــكِ مــن بلهــاء، اذهبــي وأحضــريه، كيف تتركيه وحده!

دَبَّ الذُعر بقلبها وهرولت عائدة فيما كان صغيرها يسير حيث تقوده قدماه، يحث الخُطى مهرولًا بين جنبات المتجر، باحثًا بين الأرفف إلى أن لَمَحَ ذاك الصغير جالسًا القرفصاء بزاوية من المتجر، واضعًا رأسه المُخبأة أسفل قُبعةٍ زيتية اللون بين رُكبتيه باكيًا...

سار إليه مُترددًا، تتسارع أنفاسه كلما تقدم خُطوة، يتصبب عرقًا رغم مُكيف الهواء الذي لا يَكِل عن العمل، وقف أمامه، جثى على رُكبتيه واضعًا يُمناه على كتف الصغير متسائلًا:

- أأنتَ بخير؟

فتطلــع إليــه بعينــين شاخصــتين ليــومئ برأســه أجـل، ليُردفهـا بــ لا، فتبسـم باسـل ضـاحكًا ثـم قال:

- لِمَ تَجلسُ هكذا؟ أأنت وحدك هنا؟

- رأسي تؤلمني مُجددًا.

ثم تطلع من حوله مُردفًا:

- أمي كانت هنا!؛ لكنها رحلت.

شَـرد باسـل لحظـاتٍ بتفكيـره ثـم نهـض آخـذًا بيد الصغير يُساعده على النهوض متسائلًا:

- ما اسمك؟

- كريم.

- واسم والدك؟

- ياسين، ياسين النادي.

فتشبث بيده جيدًا، يحثه على الخُطى معه قائلًا:

- هيا ؛ لأُعيدك إليه.

فتهلل وجهه فرحًا، قائلا:

- أحقًا.

- أجل.

سار كريم رفقته دون أن يدري وجهتهما في حين وصلت سلمى لتجد المكان خاويًا إلا من عربتيهما وبعض المارة يبحثون بين الأرفف؛ فعادت مهرولة واضطراب فؤادها يكاد يَصرعُها، مُحدثة نفسها، تجلد ذاتها لسوء فعلها.

بتلــك اللحظــة انطلــق صــوتٌ مــن مُكبــر الصــوت، يحــث السـيد/ ياسـين النــادي، للقــدوم نحـو مكتـب الكاشـير رقـم (6) لأمـرٍ هـام؛ فانتبـه جميــع مَــن بالمكــان وســارت همهمــات بيــنهم يتسـاءلون حـول مـا حـدث فـي حـين بـدت مـريم فــي ذِهــول لــدى ســماعها اســم زوجهــا الــذي تصــادف وجــوده بهــذا الوقــت وبــذات المكــان، أخـذت تتلفـت حولهـا فـي ترقـب؛ لَعَلَّـه قـد عـاد؛ مُعتـذرًا. إلـى أن رأتـه مُقـبلًا نحوهـا، حـاملًا باقـة أزهارهــا المفضــلة، شــذا عطرهــا يحــيط بهمــا، لينــدثر مــا بينهمــا مــن خــلاف فــي ســراديب الـزمن، وضـع باقتـه بـين كفيهـا فـي ود، هامسًـا إليها بصوته العذب:

- آسفٌ حبيبتي، لن أفعلها ثانيةً.

فأغمضت عينيها بُرهة تُداعب وجنتيها بسمةٌ خجلةٌ ففي أعماقها تتمنى بقائها إلا أنَّ واقعها غدا مُذبذبًا وسُرعان ما عادت لرُشدها وافتقاد صغيرها؛ هرولت من جديد مكلومة الفؤاد، بقلبٍ يقطر دما.

لم ينتبه ياسين للصوت المنبعث من تلك السماعة المُعلقة عاليًا بأحد الأرفف غير بعيد عنه إلا حينما وكزه صديق له كان يُرافقه لشراء بعض حاجياته للبيت، قال مُنبهًا:

- أنصت، يطلبون حضورك عند الكاشير (6).

فأجابه غير مُباليًا:

- لا شك أنهم مُخطئون بالاسم.

ثـم عـاد يبحـث بـين المنتجـات عـن مـراده؛ فلـم يهنــأ صــديقه بــالجواب وأخــذه مــن يــده يجــره جـرًا، فســار بجــواره مُرغمًــا، لــدى وصــولهما كـــان المكـــان مُكتظًـــا بعـــدد مـــن الأشـــخاص يتجمعــون حــول شــيء مــا فســار بيــنهم إلــى أن فــوجئ بطفلــين، أحــدهما فــي الحاديــة عشــر والآخـر لـم يـزل فـي السادسـة مـن عمـره، بينمـا أحــد رجــال الأمــن يتحــدث لأصــغرهم لاســتبيان معلومــات منــه، فــاقترب غيــر مُــدرك مَــا يحــدث هنا، تساءل في غير اهتمامٍ:

- ما الأمر؟، ولِمَ ترغبون بحضوري؟!

فتطلــع رجــل الأمــن نحــوه يُمعــن النظــر إليــه قائلًا:

- أأنت السيد/ ياسين النادي؟

فأومأ برأسه أجل، قائلًا:

- سيدي، إذا لم يكن هناك داعٍ لوجودي فأخبرني؛ فلديَّ الكثير من الأعمال اليوم.

ليأتي صوت كريم مخترقًا جمعهم الذي بات يقل شيئًا فشيئا، مُناديًا إياه مُتشبثًا به:

- أبي، اشتقتُ إليك كثيرًا.

اضطرب ياسين فزعًا لتصرفه المباغت وعاد للخلف ملوحًا بيده؛ مُستنكرًا:

- لا، بالتأكيد تظن خطئًا.

ثُم هَمَّ ليرحل وسط ذهول الجميع فيما كريم على حاله، لم يزل متشبثًا بقدمه غير مُدركٍ لكلماته وما أُثير حوله من همساتٍ جانبية لِمَن كان حاضرًا، حاول ياسين إفلات قدمه من قبضته القوية رغم وهنِّه، عندما لم يجد

بُـد، أمسـك بيديـه، تـنفس حانقًـا، تـردد بُرهـة ثُـم جثى على إحدى رُكبتيه؛ ليُخبره آسفًا:

- أنصِت، لا شك أن هناك خطأ ما.

فأومأ برأسه باكيًا أن لا، فعاد مستطردًا:

- حقًـا كـان لـي ابـنٌ؛ لكنـه مـات منـذُ زمـن، فعُذرًا.

كـادت أن تسـقط أرضًـا، هـو كمـا هـو، رافضًـا وجوده لشيء ليس بيديه.

أن تتـــألم فهـــذا شـــأنك، لا داع لأن أشـــاركك ويلاتـــك، فلتتركنـــي لأنعـــم بحيـــاتي ببهائهـــا وهـدوئها، كـان ومـا زال بـلا نـبض. آسـفة هـي لحـال صـغيرها، كيـف لـه أن يحتمـل ووالـده لا يُبـالي، لَعَلَّ القلـب مـا عـاد يرنـو إلـى بقـاءٍ، لَرُبمـا انـزوي، بعيـدًا، وحيـدًا، مشـتتًا بـين هـذا وذاك،

فالهجر دومًا مُباح بين قلوبٍ كانت بالأمس القريب في شجن، واليوم تمضي لابتعادٍ.

ساد الصمت أركان المكان لحديثٍ جِدُ مؤلم إلى أن هرولت سلمى نحو الولدين تضمهما إليها في ذُعر فيما كان مغادرًا، تعاتبهما لإفلات يدها، معتذرة لـ ياسين الذي توقف عند وصولها، يَرقِبُ ما يحدث، قالت له فيما تعانق صغيريها:

- آسفةٌ سيدي.

فأجابها مُعاتبًا:

- ما كان عليكِ ترك أيديهما

وبعينين تتّقِد غضبًا قالت حازمة:

- وأنتَ كذلك سيدي.

(الفصل الرابع عشر)

أسير الذكريات

ودَّعت سلمى وباسل آخذةً بيد كريم، ارتقت سلم منزلها مهرولة، تكاد تتعثر بخطواتها، كذا صغيرها الذي يبذل جهده لمجاراتها، بُهتت لقوله، آلام رأسها تُفقدها صوابها، كيف له أن يتجرد من أُبوته باسما! كيف له أن يدَّعي موته وأمام أعين الجميع دون خجل...

بكي كريم دون انقطاع، تعلق بيديها مستفهمًا:

- أريد أبي، لِمَ تركني ورحل؟

وأخرى متوسلا:

- أرجـــوكِ أمـــي، أعـــدك ألا أتـــألم، فقـــط أعيديه إليَّ، اشتقت إليه كثيرًا.

سَـــكنت موضـــعها لِعِظَـــم كلماتـــه المؤلمـــة، عـــاجزة عـــن إجابتـــه، تُحـــدق بعينيـــه الغـــارقتين بالـــدمع، ذكريـــات جَمَّـــة تعصـــف بهـــا، ألمُهـــا، بكاؤهـا، آخـر شـجار بينهمـا وكثيـر مـن النـدم مـا زال يلاحقهـا إلـى يومهـا، بمـاذا تُخبـره؟ أَتُفصـح عَمَّـــا تُخفيـــه، أم تصـــمت وتَـــدَّعي الســـعادة كعهدها.

ترنحـــت، كـــادت أن تســـقط إلا أنهـــا تحملـــت، ســـارت بخُطـــي واهنـــة؛ عَلَّهـــا تصـــل لأريكتهـــا التـــي لا تبعُـــد ســـوى خطـــوات معـــدودة، حســـبتها لضعفها أنها بعيدة.

هـوت كعبراتهـا التـي تسـاقطت فـي غيـر صـبر، ضـاربة بتجلـدها عـرض الحـائط، تـذرف الـدمع وتنتحـب؛ لكنهـا سـرعان مـا عـادت تُجفـف دمعهـا، تسـتجمع قواهـا، تخشـى انهيارهـا أمامـه، يجـب ألا يُصـاب بـالهلع، يكفيـه مـا بـه مـن ألـم. سـار إليهـا فزعًـا لرؤيتهـا باكيـة، وقـف نُصـبَ عينيهـا باكيًـا، يُجفـف دمعهـا بأناملـه الصغيرة، قائلًا:

- أمي، لا تبكي.

عنـدما تأسـرنا الـذكريات، نهـوي فـي بئـرٍ سـحيق مـن الأسـى؛ لنـزرف سـيلاً مـن العبـرات، فنجلـد ذواتنـا بـدعوى أننـا ملامـون علـى مـا فـات، مُـدانون بقتـل مشـاعرنا؛ لِتُسـحق قلوبنـا الممزقة لشدة الصفعات.

تمـام الثامنــة صـباحًا، كانــت سـلمى بمطبخهـا تغســل أطباقهــا، تُنهــي مــا لــديها مــن أعمــالٍ؛ ليتسـنى لهــا الوقــت لتبــدأ بإعــداد طعــام الغــداء حينمــا تنــامى إلــى ســمعها جــرس البــاب يُــدق؛ بــدت دهِشــةً، لا تكــاد تعــرف أحــد هنــا فَمَــن قــد يزورهــا وبهــذا الوقــت؟! مضــت بِخُطــى متثاقلــة ريثمــا تضــع حجابهــا؛ لتُفاجــأ بـــ مـريم عنــد بابهــا، تتطلــع إليهــا بوجههــا البشــوش، ممســكةً يــد صغيرها، تقول في وُدّ:

- صباح الخير سلمى.

- صباح الخير.

- أرجــو ألا أكــون قــد أزعجتــك بمثــل هــذا الوقت.

فأشارت بيدها باسمة، قائلة:

- لا، حبيبتـــي، كيــف لــكِ أن تقــولي ذلــك! مرحبًــا بــكِ وقتمــا تشــائين، تُســعدني رؤيتــك دومًا، تفضلي.

- شــكرًا لــكِ، أنــا فقــط.. حقيقــة لا أعــرف ماذا أقول...؟

- ما الأمر؟ كُلي آذانٌ صاغية.

- أيمكنــك الاعتنــاء بـــ كــريم لــبعض الوقــت ريثما أعود؟

- بالطبعِ، يَسُرني ذلك.

فناولتهــا حقيبــة دواءه مُؤكــدة عليهــا منحــه إيــاه تمــام الحاديــة عشــر إن هــي تــأخرت، برحيلهــا تطلعت إليه لتقول في حماس:

- هيا يا صغيري، باسل، سيسعد برفقتك اليوم.

سار بجوارها، صامتًا، مضطربًا، يكاد يبكي؛ فلا يَوَدّ البقاء ها هنا.. ولا يُمكنه الرحيل وحده، لا يُدركٍ سببًا لوجوده بهذا المكان! لذا جلس مُرغمًا على تلك الأريكة قُرب التلفاز وأخرج دفتر رسوماته من حقيبته التي كان يحملها فوق ظهره ثم تناول قلمه وبدأ بالرسم لرُبما يشعر بالأمن فيما عادت سلمى لمطبخها تُنهي ما لديها من أعمال بعدما تيقنت أنه لا يحتاج لشيء، واضعة دواءه بإحدى خزائنها.

لم تمضِ غيرُ دقائقٍ حتى عادت من جديد حاملة كوبًا من الحليب وقِطعاً من البسكويت إليه، وضعتهما على المنضدة أمامه ثم لاحت

منهـا إلتفاتـة نحـو مـا يرسـمه، يُوشِـكُ علـى الانتهـاء فهـا هـو يختـار مـن بـين ألوانـه العديـدة مـا يُناسـب لوحتـه، دنـت منـه فـي حيـرة متساءلة:

- مَن هؤلاء؟

مشـيرةً بيـدها نحـو شـخوص لوحتـه، فتطلـع إليهـا وعلـى وجنتيـه بسـمة متـرددة، ليُجيبهـا بعد بُرهة:

- هذه أمي، وأنا أُمسك يدها.

فتطلعـت للشـخص الثالـث بزاويـة لوحتـه والـذي لم يتطلعِ نحوه قط؛ لتشير بيدها مستفهمة:

- وذاك؟

- أبي.

قالهـا دون مبـالاة، غيـر آبـهٍ بحيرتهـا التـي تملكتهـا بُرهـة قبلمـا تسـتعيد ذاكرتهـا مـا حـدث البارحة...

تطلعـت مـن حولهـا، هرولـت يَمْنَـةً ويسـرة لعلهـا تجـده، بعـد بحـثٍ مضـني دون فائـدة إذا بهـا تلمـح مـريم مُهرولـة بالاتجـاه الآخـر نحـو مكتـب الكاشير، فلحقـت بهـا لعلَّ هنـاك من خبر، كادتـا تصـطدمان إذ وقفـت فجـأة، وقفـت نَصـبَ عينيهـا، سـألتها؟، حاولـت أن تفهـم مـا بهـا! إلا أنهـا لـم تنتبـه، فكـم بـدت شـاردةً، صـامتة، تنحـدر الـدموع مـن عينيهـا الشاخصـتين نحـو ذاك الجمـع الـذي خلفهـا وكأنهـا بعـالم آخـر غيـر هـا هنا، سألتها في حيرة:

- مريم، ماذا بكِ؟ فِيمَ بُكاؤك؟

أشــاحت بوجههــا بعيــدًا؛ كــي لا تــرى مــدى بؤسـها إلا أن سـلمى لـم تقـف عنـد هـذا الحـد، بـل عادت تقف أمامها لتقول حازمةً:

- مــريم، أخبرينـــي مـــا الأمـــر؟ إذا كنـــتِ ستصــمتين الآن فلتفعلــي للأبــد وإلا فلتتحــدثي، لا تَدَّعِين الضعف وبيدك حلول مشاكلك.

عنــدها، بعــدما لاذت عيناهــا بــالفِرار؛ كــي لا يُكشـف سِـرُها، هـا هـي ترفعهمـا فـي ثقـةٍ تُمعن النظر بعينيها طويلًا؛ لتقول آسفة:

- لقد عاد.

- مَن؟!

- ياسين...

تشبثت بيديها فيما تستطرد موضحة:

- أرجــوكِ، لا تدعيــه يأخــذه، لا يُمكننـــي الحياة دونه.

فتطلعـــت خلفهـــا، نحـــو مكتـــب الكاشـــير السـادس حيــث جَمــعٌ مــن النــاس لا يفصــلهما غير متـرين فقـط. بـات كـل شـيء يتضـح رويـدًا رويـدا، فــ مـريم أفصـحت عمَّـا يخـتلج صـدرها من فـزع، أخذت تقـص عليهـا أنهمـا علـى خـلاف منــذ أمــدٍ بعيـد وبطريقهمــا للانفصــال، وَلِــمَ هــي جِدُ مضطربةً الآن.

لكنها أبدًا لن تبوح بأسرارها...

- أمــي تبكــي كثيــرًا، لــم تُخبرنـــي؛ لكنـــي أعلم.

قالهـا كـريم آسـفًا، لتنتبـه سـلمى مـن شـرودها بعينـين تُبرقـان، تُحـاول عبثًـا رسـم بسـمة علـى شـفتيها؛ كـي لا ينتبـه الصـغير، يكفيـه مـا بـه مـن ألم.

عنـدها أقبـل باسـل فَرحًـا ومندهشًـا لوجـود كـريم ببيـتهم، قـال باسـمًا بعـدما أبصـر دفتـر رسوماته وكثيرا من ألوانه:

- مرحى، أيمكننا الرسم معًا.

فـأومئ برأسـه مـراتٍ متتاليـة علامـة الإيجـاب ناظرًا إليه بعينين ضاحكتين.

- مرحى، سأكون الفائز.

قالهـا الإثنـان بـذات اللحظـة لتعلـو ضـحكاتهم أركـان البيـت؛ لتشـاركهما سـلمى بحـديثهما مستبشرة بصداقتهما التي بدأت لتوها:

- حســنًا يُمكنكمــا البــدء وســأكون حكمًــا منصفًا، أعدكما بذلك.

(...)

عنـد العاشـرة كـان حـازم بمكتبـه، يُنهـي بعـض أعمالــه المكتبيــة حينمــا تفاجــأ بـــ مــريم تــدخل إليــه عُنــوةً، ضــاربةً بتحــذيرات ســكرتيرته التــي تُهــرول مــن خلفهــا عــرض الحــائط فــنهض مشدوهًا يسألها:

- مــريم!، مــاذا تفعلــين هنــا؟ أحــدث شيءٌ ما لــ كريم؟

حاولــت ســكرتيرته تبريــر مــا حــدث مُعتــذرةً لــه، فأشــار إليهــا بــالخروج بينمــا جلســت مــريم علــى الكرســي أمامــه، لا يفصــل بينهمــا ســوى المكتـــب بالمنتصـــف، لتقـــول دون أن تتطلـــع إليه:

- لِمَ لم تُخبرني.

- بماذا؟!

- ياسين، متى عاد؟

- أعاد حقًا! لا أظن أنه قد فعل.

فرفعت بصرها تُحَدجه مُستنكرة:

- يـا لـكَ مـن مُخـادع، كيـف تُنكـر وجـوده وقد رأيته أمس.

فبُهـت لقولهـا وخَـر جالسًـا، مـا عـاد بإمكانـه إنكـار ذلـك، السـيف بَتَّـار ولا مفـر مـن صِـدقه، لا شيء غير الحقيقة سيشفع له؛ قال لها:

- ومـاذا تريـدين منـه؟ يكفـي مـا أصـابكِ بسببه.

نهضـت مـن فورهـا فـلا تحتمـل رؤيتـه كاذبًـا، مُخادعًا، صاحت بوجهه غاضبة:

- وكـريم، مـاذا بشـأنه!، مـا ذنبـه أن يحيـا هكذا! ووالده حيٌ يُرزق.

- مـريم، فلتجلسـي وتُخبرينـي بمـا حـدث، أنــا لا أفهـم سـببًا لغضـبك! لِـمَ الآن! أبعـد تلـك السِنُون تذكرتِ أنه والده.

كـان حـازم صـديقًا مشـتركًا بينهمـا منـذ زمـن، بـــل وشـــاهدًا علـــى كثيـــر مـــن أفراحهمـــا، هفواتهمـا، أحزانهمـا.. ليكـون الناصـح الأمـين بينهم، أما اليوم فقد تفرقت دروبهم.

عندما لم تبرح مكانها، قال آسفًا:

- إذا كـان غضـبك لتصـرفاته، فـلا تبتئسـي؛ ســوف أُحدثــه، فقــط اهــدئي؛ لنتجــاوز هــذه الأزمة.

فمالـت للأمـام سـنتيمتراتٍ قليلـةٍ مسـتندة بيـدها على سطح مكتبه، تُمعن النظر بعينيه، قائلة:

- أخبـره، أن كـريم، بخيـر لـيس بميـتٍ كمـا ادَّعـى، قـل لـه أَنـيَّ لـن أقبـل بـأن يسـتمر هـذا الـهُراء لأكثر من ذلك، وليُعِد إليَّ رسائلي.

فـي سـاعة متـأخرة مـن الليـل بينمـا ياسـين بمكتبـه لـم يـزل يعمـل فـي جِـد إذ أقبـل حـازم إليـه، حـاملًا بـين يديـه صـندوق ورقـي صـغير مـزركش الألــوان إلا أنــه لــم ينتبــه لوجــوده إلا بوضــعه للصــندوق نُصــبَ عينيــه واجمًــا؛ فقــام ياســين يستقبله فـي حفـاوةٍ غيـر منتبـه لتغيـر حالـه، فقـد اشــتاق إليــه كثيــرًا بعــد انقطــاع بينهمــا دام عامين، قال معتذرًا بينما يُعانقه:

- آسفٌ يا صديقي، أرجو أن تغفر لي ما فعلت.

كان هذا مع أول رسالةٍ أرسلتها مريم تُخبره في طياتها أنَّ كريم يشتاق لرؤيته، بحاجة لدعمه؛ ليتجاوز ما به ولأنه قال لا، نشأ بينهما شِجَارٌعنيفٌ، انتهى بعدة كدمات بوجهيهما على أثر لكمات تبادلاها؛ لِجُرحٍ لا يندمل، واليوم جاء حاملًا ذلك الصندوق بما يحويه من رسائل قد أرسلتها مريم بِكثير من الودِّ، ظنًا منها أنها تصل إليه.. لم يحتمل التمادي بزيف مشاعره، ابتعد حازم بعدما كاد يختنق بين أحضانه؛ ليقول غاضبًا:

- فلتُعيدها إليها.

رامقًا إياه بنظراتٍ آسفة وما كاد يخطو راحلًا حتى أمسك ياسين بيده مستفهمًا:

ـ أُعيد ماذا؟! وَلِمَن؟ ما بالُكَ أنت؟!

ـ مـــريم، تنتظـــر منـــك أن تُعيـــد إليهـــا رسائلها، فلتفعل ذلك وحسب.

بلحظـات اضـطرابنا تأسـرنا الهمـوم ويـزداد الشـجن؛ لقلـبٍ مُغـادر، يُعانـد، يُكـابر، لا، لـن أمـوت والمـوت لحظـة بقلـب الحيـاة، فهـل مـن سبيل لعلّي أتـوب عـن تلـك العيـوب، لعلِّـي يومًـا، يومًا أعود.

ترجـل مـن سـيارته ضـجرًا فـذلك الضـباب كثيـف بقـدرٍ أعـاق رؤيتـه، سـار مبتعـدًا لعلـه يتبـين معـالم الطريـق؛ إلا أنـه كُلمـا تقـدم خُطـوة زاد الأمـــر تأزمًـــا واضـــطربت أنفاســـه؛ لكنـــه

ورغم ذلـك مسـتمرٌ فـي طريقـه حتـى نهايتـه، كـاد يفعلهــا وينجــو بحالــه إلا أنــه أبصــر زوجتــه تهـرول لأعمـاق الظـلام، عائـدة، تصـرخ، تُنــادي وحيدها.

(الفصل الخامس عشر)

بداية

بدأ العام الدراسي بكثير من الأماني والتطلعات، التحق كلاهما بالمدرسة ذاتها كريم بصفه الأول بينما باسل لم يزل بصفه الرابع.

يومهما الأول كان مفعمًا بالنشاط والأمل، كريم مرتديًا زيه المدرسي، يخطو في مرح، تعتلي ظهره حقيبةً تكاد تكون خالية إلا من دفتر رسوماته وألوانه، يحث والدته أن تُسرع ممسكًا يدها بينما باسل يسير بجواره هادئًا، بين الفينة والأخرى يتطلع يساره ليستقبله الفضاء الرحب وعلى وجنتيه ابتسامة خجلة تأبى أن تكتمل فسرعان ما تغزو الدموع مقلتيه؛ ليعود وينظر أمامه

يواصل سيره شاردًا، فعلها مجددًا وهمس واجمًا:

- لا عليك يا صديقي، أنا بخير.

والدة باسل لم تُرافقه إذ رفض صائحًا:

- لم أعد صغيرًا.

فقالت مريم:

- لا بأس، سأُرافقه.

ما إن وطأت أقدامهما فناء المدرسة الأمامي حتى تملكتهما رهبة شديدة ورغبةٌ مُلِحَّة للمغادرة، فـ كريم قد التصق بقدم والدته منذ زمن، لا يبغي مفارقتها فالأطفال بكل مكانٍ حوله، يُهرولون، يصرخون..

والمعلمـون مـن بيـنهم يصـيحون فـي غضـب؛ ليـزداد الصـخب؛ يحثـونهم للاصـطفاف بصـفوف متوازيـة، فيمـا باسـل يشـد علـى يـد صـديقه بقـوة آلمتــه ثــم اســتدار مُوليًــا ظهــره مغــادرًا، لــولا مــريم التـــي انتبهــت فــي حينهــا وتناولـــت يـــده مشـجعة إيـاه علـى المضـي قُـدمًا لبنـاء مسـتقبله، دنت منه تُمعن النظر بعينيه متسائلة:

- مــا بــكَ يــا صــغيري؟ ألا يكفــي مــا كــان، دَعك مما مضى ولنبدأ من جديد معًا.

فـذات مسـاء بينمـا مـريم وسـلمى جالسـتين سـويًا بمنـــزل الأولـــى يتحـــدثان ويتســـامران ســـويًا إذ بالثانيـة تُفصـح عَمَّـا أصـاب صـغيرها لسـنوات؛ لوفــاة صــديقه وأن هــذا ســبب انتقــالهم للقــاهرة، ومـريم تُنصـت إليهـا فـي تـأثر ظـاهر بـين الفينـة

والأخـــرى تتطلــع نحـــو الصـــغيرين فيمـــا كـــان أكبرهما يحكي للآخر قصة.

انتبهـت مـن شـرودها و كـريم يُمسـك يـدها، فتطلعـت إليـه بُرهـةً ثـم عـادت تنظـر لــ باسـل مستطردة:

- كريم، بحاجة إليك، أفلا تساعده؟

أغمــض عينيـــه علامـــة الإيجـــاب أجـــل ثـــم فتحهمـــا باســـمًا ليعـــود ويُمســـك بيـــده؛ ليُبادلـــه كـــريم ابتســـامته بـــأُخرى تشـــع نـــورًا؛ وبِخُطـــى واثقة سارا بين أقرانهما يتقدمان في مرح.

علهـــا نقطـــة حـــدود بـــين مـــاضٍ تخلـــى وغَـــدٍ يشـــع نـــور، قـــد تســـلح بالأمـــاني، قاطعًـــا كـــل

السـدود، عاقـدًا كـل العهـود؛ عَلَّـه يلقـى القبـول، حاملًا بُشريات حُلم قد داعب هذي العقول.

دَلِفـت مـريم بهمـا لمكتـب المـدير لتتـيقن مـن بعــض الأمــور الخاصــة بصــغيرها الجــالس بجوارهــا فــي تملمــل واضــح بانتظــار طبيــب مدرسـتهم الـذي أتـى بعـد دقـائق للوقـوف علـى حالتــه، تحــدث إليهــا طــويلًا ثــم اختــتم حديثــه مؤكدًا:

- لا تقلقي سيدتي، سنعتني به جيدًا.

حتـى لحظـتهم هـذه لـم يكـن باسـل يَعِـيّ جيـدًا مـا بـالُ صـديقه، لِمَ هـو حليـق الـرأس دائمًـا؟! لِمَ لا يملـك حـاجبين مثلـه؟! أيـن أهدابـه! أتسـاقطت جميعها؟ الآن فقط أدرك كل شيء.

بيومهمـا الأول صـار لكليهمـا أصـدقاء جُـدد، فـ كـريم ببراءتـه وعفويتـه قـد حـاز اهتمـام جميع أقرانـه، كـذا معلمتـه التـي بـدت مهتمـة بـه دون الجميـع؛ فَمِـن الوهلـة الأولـى لـدخولها قامـت بإجلاسـه بالصـف الأول بجـوار النافـذة لرغبتـه بـذلك، لـم تشـأ إرهاقـه بيومـه الأول؛ لـذا دعتـه يرسم بـدفتر رسـوماته كمـا يشـاء ولـم تفـرض عليهم واجبـات تُـذكر؛ كـي لا يتـأخر عـن درب الأصـدقاء، وقـد نـال منـهم: نـور، إيـاد، فاطمـة، إسـراء. فـي حـين لـم ينـل باسـل إلا علـى صـديق واحـد وهـو ضـياء، فعـل هـذا علـى مضض؛ كي لا يكون منبوذًا بين الرفاق.

مـر بسـلام، خرجـا سـويا متشـابكي الأيـدي ليُفاجئـا بوالـدة باسـل تنتظرهمـا لمرافقتهمـا للبيـت، كـان هـذا اتفاقًـا سِـريًا بـين الإثنتـين،

إحـــداهما ترافقهمـــا بالصـــباح والأخـــرى تصـطحبهما بانتهـاء دوامهمـا للبيـت، بـدا باسـل متضـايقًا، أخبرهـا أنـه لـم يعـد صـغيرًا هـذا الصباح؛ فَلِمَ تُصر علـى إهانتـه بهذا القدر؟ ظل ساكنًا لـم يخطـو إليهـا خطـوة بينمـا هـرول كـريم نحوها يسألها في حيرةٍ وشوق:

- أين أمي؟

فدنت منه، تَرْبِتُ على كتفه مطمئنة:

- عنـــدما تنتهـــي مـــن عملهـــا ســـتأتي لتصطحبك.

أخـذت بيـده وسـارت بـه نحـو صـغيرها الـذي طأطـأ رأسـه مـا إن رآهـا مُقبلـة نحـوه، تُخبـره بصوتها الهادئ:

- هيا حبيبي؛ لنعود للبيت.

ســار كلاهمــا بجوارهــا، كــريم بالمنتصــف يُمسـك أيـديهما فَرِحًـا بعـالم جديـد صـار جـزءًا منـه بعيـدًا عـن عالمـه الـذي يقبـع بـه منـذ مـا يزيـد عـن عـامين وأصـدقاء كُثـر يسـعد بقـربهم؛ لكن باسل سيبقى أفضلهم.

رغـم عنـاده، بـدا كـريم مرهقًـا، جائعًـا، لـم يشـأ تنـاول طعامـه الـذي أعدتـه لـه ولــ باسـل، قال في براءةٍ:

- لســتُ جائعًــا، ســأُنهي واجبــاتي ريثمــا تعود أمي ونأكل سويًا.

غــدا باســل متفاجئًــا كمــا والدتــه وهمــا يُبصـرانه مبتعـدًا ليفتـرش الأرض أمـام تلفـازهم ويُخــرج دفتــر رســوماته الــذي لا يكــاد يُفارقــه ليواصل تلـوين مـا رسـمه آنفًـا، لـم تمـضِ غيـر

دقائق حتى غفى في مكانه، فابتسمت سلمى لحاله وحملته لسرير باسل لينامِ قرير العين.

ظلت بجواره لبعض الوقت أثناء نومه، تُرقب أنفاسه المتلاحقه وقد شردت بتفكيرها لحديث مريم عن إصابته بسرطان الدم منذ أن كان في الرابعة من عُمره وما يُكابده من آلامٍ إلى يومهم، بينما هي على حالتها هذه تساءلت في حيرةٍ؛ أمصاحبته لصغيرها سيغدو ذا أثر أم ليس إلا نذير شؤمٍ سيقع، تخشى أن يُعاد ما رحل؛ ليكون كريم وجهًا آخر لصديق باقٍ لم يزل في قلبٍ يحتضر.

لم تهنأ بنومٍ من يومها ففي القلب غصَّة لم تزل تدنو بها في بئر سحيقٍ مُظلم، تُحاصرها، تُقيدها هواجس سوداء، أصابتها بالسَّقم، هل يهنأ لها بال وصغيرها في خطر؟ تحدثت

وزوجهـا ذات ليلــة عَمَّــا يــؤرق بالهــا، يحرمهــا من نــومٍ هــانئ بليــالٍ أقصــى مــا يُقــال عنهــا أنهــا لــم تمــضِ بحضــورها؛ قَرَبِــت علــى يــديها حانيًــا، يُطالعها ببسمةٍ باقيةٍ لم تزل بحديثه:

- دَعِــكِ مــن أفكــارك هــذه، لا تتــوهمي؛ فلــن يُضــيره ســوء مــا دام بِقُربــه، إتركــي الولــدين وحالهمــا ولا تنزعجــي لشــيء بــات مُقدرًا.

(...)

يــومٌ، يــومين، ثلاثــة أيــام، شــهور انقضــت بمــا تحملــه بــين ثناياهــا مــن آلامٍ وأمــل، الصــديقان يتقــدمان بدراســتيهما ويــزدادان تعلقًــا أحــدهما بــالآخر؛ بجلســات علاجــه، كــان باسل أول مَــن يُرافقــه بعــد انتهــاء دوامهمــا ثــم تــأتي

والدته في أثره، تارة هي وتارة سلمى التي بدت متحمسة لذلك.

متى بدأ الأمر وكيف سينتهي؟ لا يعنيهما كثيرًا، يكفيهما يومهما الحاضر.

على الجانب الآخر.. مريم تتقدم بعملها، اعتمد الدكتور/ حسين عليها بشكل كُلي في جميع أعماله أيامه الماضية؛ ما عاد بإمكانه مباشرة عمله بكفاءةٍ كسابق عهده؛ لشدة مرضه ولتعليمات طبيبه بالابتعاد تمامًا عمَّا يُجهده؛ لتصير هي مسئولة أمامه عن كل شيء وأيَّ شيء وإن بدا صغيرًا؛ ليُضاف عِبْئًا جديدًا لقائمة أعبائها التي تحملها على كاهلها منذ زمن.

عامٌ مضى ونجاحاتٍ شتى لاحت في الأُفق، تفوق الصغيران ليَطرب القلب فَرِحًا لِشدة ما

لاقوه أيامهمـا الماضـية؛ فقبـل إسـبوعٍ واحـد مـن امتحاناتهمـــا أُدخـــل كـــريم للمستشـــفى وأَبَـــي صديقه أن يتركه، قال باكيًا:

- لا، سأبقى معه.

خضـــع كـــريم لفحوصـــاتٍ وجلســـات عـــلاجٍ شـــتى، جعلتـــه أغلـــب الوقـــت ولشـــدة إعيائـــه نائمًـا، لـم يَـعِ مَـن كـان بجانبـه أيامـه تلـك، حتـى تلـك الليلـة التـي فـتح فيهـا عينيـه ورأى والدتـه وباسـل والخالـة سـلمى جمـيعهم بجـواره، بـدا حينهـا متألمًـا فاقتربـت والدتـه جزعـة تُسـابقها عبراتها، تسأله في لَوعَةٍ:

- ما بكَ حبيبي؟ بِمَ تشعر؟

فلجـأ إلـى أحضـانها عَلَّـه يسـتكين وتـنزوي مـا بـه مـن آلامٍ لا تُحتمـل فـي حـين وقـف باسـل فَزِعًـا لرؤيتـه خـائر القـوى، لا تكـاد أنفاسـه تهـدأ إلا

وتضــطرب ثانيـــة فَرَبِتـــت والدتـــه علـــى يديـــه هامسةً إليه أن يهدأ:

- كفى حبيبي، أنتَ تُفزعه هكذا.

بـدت كلمتُهـا كجـرس إنـذار لـه؛ فحـال صـديقه لا يحتمـل؛ خطـى إليـه، دنـا منـه، جلـس أمامـه، نظر إليه بعينين تحجر الدمع فيهما، يسأله:

- كيف حالك الآن؟

فأومــأ برأســه لشــدة وهَنِــه وكأنمــا يُخبــره، لا عليـك يـا صـاحبي، سـأغدو بخيـر، جاهـد كثيـرًا ليطبـع بسـمةً علـى وجنتيـه سـرعان مـا خَفـتَ بريقهـا بعـدما رآه عـاجزًا عـن ردع عبراتـه التـي انـهمرت كالسيل وبشق الأنفس همس إليه:

- هل انتهيت؟ أأجبت جيدًا؟

ظـن كـريم أن امتحاناتــه قـد انتهـت، ومـا عـاد بإمكانــه فعـل شــيء، بعـدما ولــى الــزمن. طأطـأ رأسه، مستطردًا:

- آسفٌ، لم استطع الاحتمال.

- لا بأس، سنذهب معًا.

قالهــا باســل مُجففًــا دموعــه؛ باســمًا ومتفــائلا فيمـا يتطلـع صـديقه إليـه حـائرًا، فــإلى الآن لـم يخبــره أحــدهم أن ليلــتهم هــذه هــي عشــية امتحاناتهما؛ ليعود متسائلا:

- ماذا؟

- سنذهبُ معًا.

واليوم يحتفلان معًا...

(الفصل السادس عشر)

دُروب العُمر

مضــت الســنون رتيبـــةً بأيامهــا المتشــابهة، عــامٌ تــلاه آخــر لتمضــي الحيــاة بهــم بآلامهــا، أفراحهــا، أحزانهــا، لا فـرق فالكـل يمضـي ويبقـى الأثر، أثَرُك أنت.

أن تَـدَّعي جهلـك، أن تقـول لا بـأس وتمضـي بطريقــك الممهــد بــالجمر، أن تتحجــر العبــرات بمقلتيـــك وتبتســـم فـــي فخـــر، أن تتمـــادى بضـحكاتك مُخفيًـا عـنهم كـم تمـزق القلـب لِشـدة مــا لاقيــت، أن تصــدح عاليًــا أنــا بخيــر بــرغم علمهـم أنـك نقـيض مـا ادَّعيـت، وكـل مـا قيـل مجـــرد زيـــف ثـــم يمضـــون دون خـــوف أو يتطلعـون للخلـف فهـذا أشـد مـا يـؤلم، بـل ويُميـت قلبًا قد تهاوى منذ أعوامٍ في ثنايا الصمت.

وما أبكى مريم أنها لم تكن يومًا مرئيةً إليه ولن تُصبح ما دامت بخير، فـ ياسين يعيش بعالمه الخاص غير عابئ بعالمها وصغيرها الذي يذبل يومًا بعد آخر:

- لا بأس، لرُبما تبدل الحال، سأفعل ويقع ما يقعِ فلا أملك ما أندَمُ عليه.

لكنها ما إن وقفت أمام منزله واسع الجنبات وفُتح بابه بعد طرقها على استحياء حتى عادت خُطواتها مضطربةً، تجر خيباتها؛ لتُهرول عائدةً، جزعةً، غير مُصدقة ما رأته رأيّ العين.

لم يُصدق عينيه فبينما هو بفراشه مستلقيًا على ظهره، مُتطلعًا لسقف غرفته، شاردًا في اللا شيء حتى رأى والده مُقبلًا نحوه بوجه

مشـرق، معتـذرًا عمـا سـببه لـه مـن ويـلات إلـى اليـوم، بقلـبٍ يتقـافز طربًـا هـرول إليـه ضـاحكًا تســبقه عبراتـــه؛ تعانقـــا وصـــوت نحيبهمـــا يشـقهما نصـفين لِشـدة اشـتياقهما؛ لكـن هيهـات، هيهـات؛ فقـد اسـتحال الـدفء جمـرًا يتَّقِـد مُحـدِثًا ضوضاء شديدة زلزلت أركان البيت.

اســتيقظ كــريم فزعًــا؛ لصــوت ارتطــام أشــياء بـــالأرض ومـــا تلاهـــا مـــن صـــرخات أصـــابته بالـذُعر، نهـض مترنحًـا وخـرج خائفًـا، يتخـبط بـين هـذا وذاك؛ لِيُصـعق بمـا رآه فوالدتـه قـد عاشــت فســادًا بمحتويــات منــزلهم ومــا تــزالُ فاعلـة، تُحطـم هـذا وتُمـزق تلـك، تلفـازهم مُلقـى أرضًـــا بتلـــك الزاويـــة وقـــد هُشِـــمت شاشـــته، مـرآتهم الملاصـقة للبـاب صـارت أثـرًا بعـد عـين، مقتنيـــاتهم الخزفيـــة تنـــاثرت أجزاؤهـــا بأرجـــاء

منـزلهم وكـأن زِلـزَالًا مُـدمرًا مـر مـن هنـا، كـل شـيء وأي شـيء تُبصـره أمامهـا تَصُّـب جـام غضـبها عليـه، فهـرول إليهـا بقلـبٍ يكـاد ينخلـع، أمسك براحتيهـا الـداميتين باكيًـا؛ لاختـراق قطـع خزفية لها، صائحًا:

- أمي، أنتِ تنزفين.

فتطلعـت إليهمـا دهشـةً، فحتـى تلـك اللحظـةِ التـي أبصـرت فيهـا دماؤهـا مـا كانـت تشـعر بـالألم، حـاول نزعهـا، رفعهمـا نَصَّـبَ فَمِـهِ لينزعهـا بأسـنانه فدفعتـه عنهـا ليسـقط أرضًـا، صـارخة بـه:

- لـم أفعـل شـيء، لِـمَ يُعـاقبني علـى شـيء لم أرتكبه؟! ما ذنبي أنا؟

فنهض غير مباليًا لتألمه فآلام قلبه وهو يراها بحالتها هذه تفوق ما مر به من آلام جُملة واحدة، سار إليها.. عاد يسألها:

- أمي، ما بكِ؟

فأعرضت عنه باكية، يائسة، تجر ساقيها المثقلتين فقلبها المُحملٌ بكثير من الخيبات وسيل جارف من الندم ما عاد يحتمل، أبعد ما بذلته لا شيء مطلقًا! تناسيت كل شيء لأجلكَ فقط، لأجل هذا الصغير الذي يجهل حقيقتك:

- فعلتُ كل شيء.

صدحت بها، ثُم هَوَّت وقد علا نشيج بكاؤها فهرول إليها غير مباليًا بقطع الخزف التي تكاد تخترق قدميه، وقف خلفها يَربِتُ بيده على كتفها، مُناديًا:

- أمي...

فصاحت غاضبة:

- لَستُ كذلك.

لتتوقف أنامله الصغيرة عن مواساتها ويأبى لسانه إلا أن يعود مناديا، بنحيبٍ يكاد يخنقه:

- أمي...

بذات اللحظة التي نهضت فيها مُترنحةً، واضعة راحتيها فوق أُذنيها؛ كي لا تستمع وما تزال مُرددة:

- كفى، توقف، لَسْتُ هـ...؟

ومن ثَم هرولت لغرفتها، مُوصدةً بابها خلفها في حين بدا كريم هَلِعًا ومضطربا، ماذا يصنع؟ كيف يُواسيها ويُثلج قلبها؟ هرول

خلفهــا، طــرق بابهــا وبصــوتٍ يَشــوبه الألــم، راجيًا:

- أرجوكِ أمي، ماذا حدث؟

عندما لم يلقى إجابةً، هوى عند بابها باكيًا:

- أمي...

مــرت الــدقائق كســنواتٍ وهمــا علــى حالهمــا، مــريم جالســـةً علـــى حافـــة فِرَاشـــها، نـــاظرة لراحتيهــا الــداميتين وكــأن شــيئًا لــم يكــن فيمــا كريم متشبثٌ ببابها عَلَّه ينفرج.

دق جــرس بــابهم دون انقطــاع فهــرول فــوق الحُطـام؛ ليفتحــه فــي غيــر صــبرٍ، لِتَطـل ســلمى مــن خلفــه بوجــه مضــطرب فمــا إن هاتفهــا وأخبرهــا بمــا صــار حتــى أتــت مُســرعة يتبعهــا

باسل الذي لم يبدو بحال أفضل من حالها، سألته في جزعٍ:

- كريم، ماذا حدث؟ مريم، ما بها؟

فطأطأ رأسه لتنهمر عبراته قائلًا:

- لا تُجيبني، يديها تنزفان و.....؟

- ماذا؟!

قالتها بينما تخطو داخل بيتهم؛ لِتُصعق بما رأته من فوضى عارمة، متسائلة فيما تنظر حولها:

- يا الله. مَن فعل هذا؟

فـ سلمى، حتى تلك اللحظة التي أفصح فيها كريم عن كل شيء ما كانت تُدرك أن مريم هي ذاتها من تسببت بهذه الفوضى، سارت

فوقه حذرةً، تَحُثهما أن ينتبها لخطواتهما فالزجاج بكل موطئ حولهم.

بعد محاولات جَمَّة ها هو الباب يُفتح؛ لتدخل سلمى إليها بقلبٍ يرتجف وهي تراها دامية اليدين، عانقتها في أسى؛ عَلَّها تواسيها، هامسةً إليها:

- لا عليكِ، سيغدو كل شيء بخير، سيعود ما مضى.

بكت وكأنما لم تبكي طيلة حياتها لكلماتٍ كانت جَدُ تأملها قبل يومها هذا؛ فيما تهذي بكلماتٍ لم يفهمها غيرها إذ قالت بغير وعي:

- تركتُ كل شيء؛ لأجله، لأجلهما فقط رؤوف، أبي. ما ذنبي أنا؟ ليلفظني كما لو كُنت لقيطة.

(...)

ظلــت ســلمى بجانبهــا، تُنظــف جروحهــا وتضــمدها بمــا أُتــيح لهــا مــن إســعافات أوليــة كانــت مــريم تحــتفظ بهــا، ثُــم أعــدت كوبًــا مــن الليمــون ومنحتهــا إيــاه؛ كــي تهــدأ غيــر أنهــا تناولتــه علــى مضض فـ ســلمى شــديدة الحــرص علــى إنهائــه لآخــر قطــرةٍ، دثرتهــا جيــدًا ثُــم أطفــأت نــور غرفتهــا وتركتهــا لتأخــذ قســطًا مــن الراحــة مطمئنــة البــال لنومهــا؛ لكــن هيهــات، هيهــات؛ فكيــف لِجُرحهــا أن ينــدمل ويومًــا بعــد آخر يزداد تقرحًا.

كبلتنـــي قيـــودك، مزقتنـــي آثامـــك، فرقتنـــي دُروبـك عـن نبضـي الوليـد.. واليـوم تُغـادر، كيـف ياسين! أَنَى لي باحتمال الرحيل.

كيـف ياسـين! أَنَـى لـك والحيـاة بعيـد، أمـا وعـدتنا يومًـا أن تغـدو حبيـب.. عـن حياتنـا، ضـحكاتنا، همسـاتنا، آلامنـا، آمالنـا.. لـن تحيـد، أم كـان وعـدُك مـن مـاضٍ سـحيق، أجبنـي ياسـين ولا تكن للصمت رفيق.

شـرعت سـلمى بتنظيـف المكـان، فلـن تتركـه يعـج بهـذه الفوضـى؛ فَكُـل مـا حولهـا نـذير خطـر، سـاعدها باسـل فـي حمـاس يتَّقِـد بينمـا ظـل كـريم قريـب منهمـا، يَرقبهمـا فيمـا يقومـان بـذلك، وَدّ مسـاعدتهما؛ لكـن الخالـة سـلمى رفضـت أن يفعل ذلك رفضًا باتًا، قالت مُحذرة:

- لا تفعل، ستؤذي حالك.

وبينمـا همـا منهمكـان بعملهمـا مـن هـذا المكـان لتلـك الزاويـة إذا بـه يُبصـر ورقـة صـغيرة مطويـةً بغيَـر ترتيـبٍ مُلقـاة بـين كـومتين

مــن الزجــاج المبعثــر بجــوار بــابهم فتناولهــا بحركــة خاطفــة؛ لــئلا ينتبهــا لــه، خبأهــا بــين راحتيــه متطلعًــا إليهمــا، يتأكــد مــن انشــغالهما، مُبتعــدًا عنهمــا فاتحًــا راحتيــه ليقــرأ مــا بهــا مــن كلمــاتٍ مقتضــبةٍ؛ لــتجحظ عينيــه دون إرادتــه لحظــة معرفتــه مــا حوتــه ســطورها، طواهــا مُجــددًا؛ ليعــود ويُخبئهــا مــن جديــد فيمــا يســير لغرفتــه فــي غيــر انتبــاه أنهمــا مــا زالا هنــا ويتطلعــان إليــه بتلــك اللحظــة فــي حِيــرةٍ مــن أمــره، فـــ كــريم لــم يُجــب نــداءاتهما المتتاليــة، مُغلقًا بابه من خلفه وكأن شيئًا لم يكن.

صــبيحة اليــوم التــالي، اســتيقظ مبكــرًا، توضــأ وصــلى الصــبح، تنــاول رشــفات مــاء، حمــل حقيبتــه فــوق ظهــره بعــدما تــيقن مــن اســتقرار

ورقته تلك داخلها ثم مضى مسرعًا قبلما تنتبه والدته من نومها.

تمام التاسعة استيقظت مريم فَزِعة على كابوس مزعج، جبينها يتفَصَّد عرقًا، صدرها يعلو ويهبط في غير انتظام؛ لرؤيتها لـ كريم يهوي في بئرٍ سحيق شديد الظُلمة، بينما هي تُطالعه مكتوفة اليدين، عاجزةً عن مساعدته، نهضت من فراشها وبِخُطى مترنحة دَلِفَت إليه دون أن تطرق بابه منادية إياه:

- هيا حبيبي، انهض.

سَكَنت موضعها بوجهٍ مضطربٍ وعينين شاخصتين وكأنما قد رأت شبحًا يُطالعها حين استقبلها الفراغ والصمت دون صغيرها.

قبل الظهيرة بقليل وأمام مبنى سكني مُكون من عشر طوابق، يَرقِبُ شموخ النيل وسحره

عن قُرب، وقف كريم بُرهة يتيقن من العنوان الذي خُط بورقته ثم هم الخُطى إليها واثقًا، دق بابه دقاتٍ متتاليةٍ في غير صبر إلى أن فُتح عن آخره لتطل من خلفه سيدة بشوشة الوجه، ممشوقة القوام، تُلاحقها صغيرتها التي لم تتجاوز عامها الثالث بعد. ظلا يتطلعان لبعضهما فترةً من الزمن يعلو وجهيهما الحيرة وتساؤلات عدة ترفض الانصياع لرغباتهما إلى أن قالت:

- مَن أنتَ يا صغيري؟ وماذا تريد؟

إلا أنها لم تلقَ إجابة، فـ كريم يُمعن النظر إليها وصورة والدته البارحة لا تُفارق مُخيلته، كلما هَمَّ بإجابتها تتلعثم شفتاه بكلمات ظن أنه يألفها، عدل من وضع قُبعته ثم قال متلعثمًا:

- أيُمكنني رؤيته؟

- مَن؟

- أبي، أهو هنا؟

فقالت آسفة:

- لا شك أنكَ مُخطئ يا صغيري، فهذا منزل ياسين النادي.

- أجل، إنه أبي.

صُعِقت لكلماته وكادت أن تسقط أرضًا لولا أنها استندت إلى بابها فيما لا تزال تُطالعه: مَن؟، كيف؟، لماذا؟، تساؤلاتٍ عدة تطعنُ كبريائها.

خدعها إذًا، فكل ما نبع منه ذلك اليوم عند لقاءهما الأول بمكتب حازم عندما ذهبت إليه تستشيره ببيع منزلها، كان كذبًا لا يمت

للحقيقـة بِصلِّة، إذ قـال يومهـا عنـدما سـألته عـن زوجتـه أنهـا قـد تُوفيـت منـذ سنواتٍ خلـت، كـذا صـغيره الـذي مـا فتـئ وليـدًا، لحـق بهـا؛ ليغـدو وحيدًا من يومها.

بعــد لحظــاتٍ كــان الصــمتُ ســيدها أتاهــا الصوت من خلفها:

- مَن الطارق.. حبيبتي؟

تنحــت جانبًــا؛ ليغــدو ياســين وجهًــا لوجــه معه، يُحدق أحدهما في الآخر.

حــائرٌ هـو، يتسـاءلُ فـي صـمت مَـن هـذا الفتـى الواقــف أمــامي بعينــين تغزوهمــا العبــرات؟! يُجاهد ليبتسم، يكـاد يُجـزم أنـه قـد رآه مـن قبـل، بينمــا كـريم يتقـد شـوقًا لِعِناقـه، يشـتاق لـدفء همسـاته، لصـدى ضـحكاته الصـاخبة تهـز أركـان

بيــتهم، لــم يُطــق صــبرًا وارتمــى بأحضــانه مُناديًا:

- أبي، اشتقتُ إليك.

مُتشــبثٌ هــو بمــا وصــلت يــداه إليــه فبالكــاد اســتطاع أن يصــل لنصــف طُولــه بســنواته العشـر، فيمـا زوجتـه تَرقِبُ كـل صـغيرة وكبيـرة تصدر عنهما.

عـاد خطواتٍ مضـطربة بعـدما تـذكر مـا مضـى مـن أحـداث وكأنهـا واقـعٌ حـيَّ أمـام عينيـه، إنـه هــو ذات الفتــى الــذي ادَّعــي زيفًــا نســبه إليــه بــالمتجر منــذ أعــوامٍ خلــت، وكلمــات والدتــه لا تُفارقـه أينمـا حَلَّ وذهـب، دفعـه عنـه فـي غيـر صــبر واضــطرابٍ بــائن بعــدما تــيقن مــن ســبب مجيئـه ثُـم عـاد مسـرعًا للـداخل، عـابس الوجـه، حــاملًا صــغيرته التــي تشــبثت هــي الأخــرى

بقدميه لحظة عناقهما الذي لم يدم غير ثوانٍ وحسب إلا أن الأمر لم يرق لزوجته كثيرًا، رغبت وبشدة بأن تكشف جميع أوراقه اليوم؛ دعته ليدخل وعندما لم يُحرك ساكنًا لجفاء والده أمسكت بيده وجذبته للداخل باسمة الثغر قائلة:

- هيا، ما بالُك أنتَ! لا تقف هكذا.

ففعل بغير إرادته؛ لقلبه الذي يتمزق كمدًا وحُزنًا لحاله وحال والدته التي لم تفتأُ تبكي طوال ليلها.

رآه يتطلع عبر نافذته الزجاجية عاقدًا ذراعيه أمام صدره، شارد الذهن بينما الصغيرة على بُعد خطواتٍ منه، تلهو بدميتها التي انجذب إليها وكأنما بينهما قديم صِلَّةٍ، ظل يُحدق بها ما إن أبصرها بين يديها

تُقلِّبهـا يُمنـة ويسـرة، تُحـدثها وكأنمـا تسـتمع، سار إليها ودنا منها، همس باسمًا:

- كيـف حالـك يـا صـغيرة؟ مـاذا تفعلـين؟ أيُمكنني مشاركتك اللعَّب؟

فأوجسـت منـه خِيفـةً وضـمتها إليهـا صـارخة بعدما ظنت أنه سيسلبها منها:

- لا.

مُهرولـةً نحـو والـدها الـذي لـم يُحـرك سـاكنًا لتختبـئ عنـد قدميـه، مـا إن هَـمَّ ليرحـل آسـفًا لـذلك الصمت الـذي استحكم منـه وأورثـه شـديد الألم حتى سمع والده مُحذرًا:

- لا تعـد إلـى هنـا مجـددًا، لا تحـاولا فلـن أرضخ لادعاءاتكما الزائفة.

فاســتدار إليــه وقــد صــار وجهــه أشــد حُمــرة ليُجيب بقلبٍ منفطر:

- كما تود أبي.

- كفاك كذبًا، لستُ بوالدك.

فخطــى إليــه حتــى وقـف نُصـب عينيـه؛ ليصـيح غاضبًا:

- أمي لا تكذب مطلقًا.

- أنت مُخطئ، ابني مات منذ زمن.

ليأتي سؤاله داحضًا ادَّعاءاته الزائفة:

- وهـل واريتــه الثـرى؟ سـيدي، أفعلـت ذلـك بيديك؟

(الفصل السابع عشر)

سجين الذكريات

عاد بخُفي حُنين يجر خيباته التي تكاد تعصف به؛ ليُفاجأ بوالدته والخالة سلمى ينتظرانه في اضطراب وقلقٍ شديدين إلا أنه لم يُعيرهما أيَّ اهتمام ودخل غرفته مهرولًا فيما والدته لا تنفك باكية غير منتبهة لدخوله إلا بسماعها لباب غرفته يُوصد بعنفٍ جَمّ.. فقامت إليه جزعةً مهرولة.. وما إن همّت بفتح بابه حتى تفاجأت به مُوصَد من الداخل فنادت بصوتٍ مشوب بالخوف:

- كريم، حبيبي.. ما بك؟

فصرخ بها غاضبًا، واضعًا يديه فوق أُذنيه:

- ابتعدي، لا أوَدّ سماع شيء.

بتلـك اللحظـة وبعـد جـدالٍ حـاد دار بينهمـا، هـرول ياسـين لغرفـة مكتبـه جزعًـا يبحـث بـين محتوياتهـا عـن شـيء مـا، تنـاول ذات الصندوق الـذي جـاء بـه حـازم طالبًـا منـه إعادتـه لمـريم ذلـك اليـوم فمنـذ أن وضـعه علـى هـذا الـرف العلـوي لـم يقربـه قـط، افتـرش الأرض واضـعًا صندوقه أمامـه ثُـم شـرع بفتحـه بيـدين تـرتجفين إلـى أن فـوجئ بكـم هائـل مـن الرسـائل وعديـد مـن الصـور لـذات الفتـي الـذي ادَّعـى أنـه ابنـه، صـور عـدة تصـدح بـذكرياتٍ جَمَّـة لـم يكـن حاضـرًا بهـا بإرادتـه، لحظـات فرحـه، أحزانـه، آلامـه، جلسـات علاجـه الممزوجـة باليـأس والخـوف وبريـق أمـل لاحِ لهمـا ذات يـوم، وإن كـان متألمًـا طـوال دربـه فمـا تـزال ابتسـامته تأسر القلب.

بعد ساعات من الصمت ظل خلالها عاكفًا على قراءة ما تحويه رسائلها من فيض شوقها وصغيرهما إليه، ها هي صرخاته تُزلزل أركان البيت؛ لتهرول زوجته إليه فزعة؛ فهذا ما لم تعهده عليه، رأته جاثيًا على رُكبتيه باكيًا، صارخا، بين راحتيه صورًا لا تُعد ولا تُحصى، يتَطَّلَّع إليها صائحًا بصوتٍ يطغي بُكاؤه عليه:

- لم تكذب، ما كانت لتفعل، مَا زَال حيًّا، كريم، مَا زال بخير.

فدنت منه بقلبٍ ينفطر لحالته التي بدا عليها، مسدت بيدها على رأسه بينما تنهال العبرات من عينيها، قائلةً:

- لا عليكَ حبيبي، كل شيء سيعود كما كان، أعِدُك.

فنهض فزعًا يتطلع إليها بعينين جاحظتين، مشدوهًا لقولها الذي كان، قد تساقطت الصور من بين يديه ليطأها بقدميه فيما يُهرول مسرعًا، وجوهٌ يألفُها وأصوات شتى يعصفان برأسه، يكادان يصرعانه، لا تفعل، نحن هنا، لا عليك، ياسين، أرجوك.. عُد سالمًا، صوتُ اصطدامٍ ونزيف دمٍ، آسفٌ بُنَيِّ.. ثُم صمت.

ما كاد يصل لباب منزله حتى هوى راكعًا ونشيج بُكاءه يعلو شيئًا فشيئا؛ لتهرول حنين راكعةً أمامه بقلبٍ تهاوى لِمَا غدا عليه، ضمت كفيه إلى صدرها، هامسة إليه بكلماتٍ حانية علها تمحو بعض آلامه فتطلَّع إليها بعينين تذرفان آسفا وقد تلعثمت الكلمات بين شفتيه، عُذرًا فإني والله غريق، ففي القلب غِصَّة، قد أضحى شريداً.

وصل باسل ووالده لمنزل صديقه ما إن أخبرتهما سلمى بعودته سالمًا، فقد خرجا منذ ساعات الصباح للبحث عنه، تطلع حوله في حِيرة، تبحث عينيه دون صبر بين جنبات البيت، أبصر والديه يتحدثان بشيء ما، لا يكاد يسمعهما فهمساتهما لا تصل إليه بينما والدة صديقه ما تزال ملتصقة بباب غرفته، تطرق بابه بين الفينة والأخرى، تُنادي في ذُعر:

- كريم، حبيبي، أرجوك افتح الباب لنتحدث، فلتُخبرني ماذا حدث؟.

ليُجيبها صارخًا:

- لا أريد، ابتعدي.

فهرول باسل إليها بقلب يكاد ينخلع لصرخاته التي رجت أركانه، متسائلا:

- ما الأمر؟ ماذا أصابه؟

فأومأت برأسها باكية:

- لا أدري، لا أعلمُ شيء.

فتـنفس الصـعداء والتصـق ببابـه فـي محاولـةٍ منه لإثنائه عن عناده، طرق بابه قائلًا:

- كـريم، هـذا أنـا باسـل، أرجـوك.. افـتح الباب؛ لنتحدث...

- اذهب.

- لا، لن أفعل.

- ارحل من هنا، أرجوك.

فعـاد يطـرق بابـه بقـوة مـا إن تنـامى إلـى سـمعه صـوت بُكـاءه؛ ليسـود الصـمت بينهمـا لحظـاتٍ قبلما يستدرجه قائلًا:

- لا بأس يا صديقي، معكَ حقٌ بكل ما تفعله؛ لكن ألا يُمكنك التفكير بوالدتك ولو دقائق، ألا تتساءل كيف صارت لحالتك هذه؟

- ارحل.. ولا تعد بعد اليوم، فأنا ميتٌ....؟

هامسًا في ذاته، كما قال أبي؛ كادت مريم أن تسقط أرضًا لكلماته؛ لكنها عوضًا عن ذلك صاحت به غاضبة:

- مَن قال هذا؟ أخبرني مَن ذاك الأبله لألقنه درسًا لن ينساه حياته الباقية.

ليسود الصمت بعدها لحظاتٍ قبلما يتنامى إليهم صوت ضحكاته الساخرة فيما ينفرج بابه سنتيمتراتٍ قليلة؛ ليطُلَّ برأسه من خلفه ويقول غير آبهًا:

- أبي.

سقطت أرضًا لهول ما سمعت، فقدماها عاجزتان عن حمل مزيدٍ من الألم، هرول الجميع إليها يسبقهم كريم فَزِعًا لحالها، جثى على رُكبتيه مثلها، ساكنا؛ عَلَّها ترفع رأسها وتُبصره آسفًا؛ لكنها ما إن فعلت حتى صفعته صارخة:

- أأخبرك أني كاذبة، وصدقته، ألهذا لم تشأ بمحادثتي؟ أأنكرت ما بذلته لأجلك ولأجله من قبلك!

ثم ضحكت ساخرةً لتستطرد آسفة:

- لا شك أنك ابنه، فطباعكما واحدة.

فنهض مبتعدًا، غاضبًا، حائرًا، متألمًا، باكيًا:

- إذًا، لِمَ يفعل ذلك؟! أيدَّعي موتي لـــ...؟

فبادرته غير آسفة:

- لم يشأ بأن تكون عبئًا عليه.

(...)

صـبيحة اليـوم التـالي، أقبلـت مـريم تفـتح بابهـا مستبشـرة بِمَـن يدقـه بـاكرًا؛ وحـين أبصـرت الطـارق تركـت مـا بيـدها لتعـود أدراجهـا وخفقـان قلبهـا يشـتد فيمـا ذلـك الزائـر والـذي مـا كـان غيـر حنـين التـي سُـرعان مـا لحقـت بهـا حاملـة صـغيرتها التـي لا تكـاد دُميتهـا تُفـارق يديها، معتذرة باكية:

- أنـا آسـفة، لـم يُخبرنـي، لـم يـبح لـي بأسراره حتى البارحة.

فاستدارت إليها غاضبة:

- اخرجـي مـن منزلـي، لا أُطيـق بقـاؤك هنا.

إلا أنها لم تبرح مكانها فها هي تضع صغيرتها أرضًا وعادت ترجوها لتغفر لها، فأعرضت بوجهها؛ كي لا ترى مدى قُبحها، فما تزال تُكن لها بعض العرفان عَمَّا مضى، قالت غير آسفه:

- ما حدث لن يُعيد بسمات صغيري وضحكاته التي سلبها زوجك إياه منذ هجره لنا، لن يُخفف عنه شيئًا مما لاقاه بسببه؛ لذا فلتخرجا، كلاكما من حياتنا.

فقالت متحدية:

- لا يحق لكِ ذلك، مهما فعلتِ سيبقى والده.

ولعدم رغبتها بالمزيد، دَلِفت إلى غرفتها وأوصدتها بإحكامٍ خلفها، تاركة إياها ساكنةً موضعها، مشدوهة لفعلها، لا تدري كم من

وقـت مـر عليهـا وهـي علـى حالتهـا هنـا، أفاقـت مـن شِـرودها لبُكـاء صـغيرتها؛ فانطلقـت تبحـث عنهـا بقلـبٍ مضـطرب إلـى أن فوجئـت بـه يطـل عليهـا مـن غرفتـه حـاملًا إياهـا وقـد عـادت بسماتها تنثر نورها، جاهدت لتبتسم قائلة:

- شكرًا لك.

فأومـأ برأسـه أن لا بـأس ثـم ناولهـا إياهـا رغـم رفضـها بعـدما استكانت بقربـه. كـادت أن ترحـل عندما سألها:

- ما اسمها؟

فتطلعت إليه باسمةً، تُجيبه:

- رفيدة.

عـاد لغرفتـه، فوالدتـه جِـدُ غاضـبةً الآن ولـن تُنصـت لـه مهمـا بلـغ مـن البيَّـان، لا يَـوَدّ التـأخر،

عليـه ملاقـاة صـديقه اليـوم لممارسـة رياضـتهما المفضـلة بأحـد الأحيـاء القريبـة مـن فنـدق نبيـل الـذي ورثـه عـن والـده الـذي تـوفي قبـل عـامين، جـولات وصـولات مـن مباريـات كُـرة القـدم التـي يعشـقانها كثيـرًا علـى وشـك البـدء، كـان يُبـدل ملابســه حينمــا لاحــت أمامــه دُميــة شــقيقته وكأنمــا تُطالعــه علــى اســتحياء مــن أســفل ســريره، فتناولهــا بيــده آســفًا، لا شــك أن الصـغيرةُ جِـدُ حزينـة لفقـدها، لعلهـا الآن لا تنفـكُ باكية صارخة:

- أريدها، أريدها، لا أُريد غير فاضل.

الآن فقــط تــذكر، حــدثها وكأنهــا كــائنٌ حــيّ أمامه:

- الآن فقــط، علمــتُ أيــن تواريــتِ تلــك السنين.

ضـمها إليـه فـي شـوق، فدميتـه ودميـة شـقيقته مـا هـي إلا شـيئًا واحـدًا توارثـاه دون علمهمـا وكأنمـا قُـدر لهمـا؛ ليجتمعـا معًـا، وضـعها بحقيبتـه وخـرج مسـرعًا، عـرج علـى والدتـه فيمـا لا تـزال قابعـة بغرفتهـا، طـرق بابهـا قائلًا:

- أمـي، سـأخرج لملاقـاة باسـل، سـنمر علـى نبيل، لا تقلقي إن تأخرت.

بـدا قلقًـا، فوالدتـه لا شـك غاضـبةً لتـأخره لهـذا الوقـت، لـم يكـن اتفاقهمـا قائمًـا علـى التسكع حتى حلول الليل، كانت دومًا تُخبره:

- كـريم، حبيبـي، تعلـم أنـي لـن أرضـى بتقييـدك مهمـا لاقيـت؛ لكنـي بـذات الوقـت لـن

أرضى بأن تخسر كل شيء، فلتُنفذ ما أُمليه عليك دون نقاشٍ، هذا لمصلحتك، أفهمت.

أبدًا، لن يفعل، سيحتمل ولن يبوح بما دفعه للتأخر لهذا الوقت، سيبدو شامخًا، بل بأفضل حالاته؛ كي لا تفقه شيء، لا يرغب بإخافتها بسبب ما أصابه أثناء مباراتهم اليوم، لن يُفشي سره، بل سيبقى دفين القلب، فحتمًا ستثور ويتملكها الذُعر إن هي علمت بفقدانه الوعي أثناء لعبه لمجرد دفعة جانبية ليست قوية بحال وبقاءه ما يزيد عن ساعة ونيف وكأنما ليس بحيّ.

صعد لمنزله مودعًا صديقه الذي ألح عليه أن يُرافقه للبيت لحالته التي بدا عليها من الوهَّن والضعف، إلا أنه أبى كي لا تتفاقم الأمور وينكشف السر فوالدته لن ترأف به

وستعيد على مسامعه ما قالته؛ لئلا يُصاب بسوء؛ ضحك عاليًا فيما يؤكد له ذلك فما زاده إلا خوفًا واضطرابًا عليه.

شعر بشيء مريب فالسكون والصمت يسودان البيت، هرول يبحث عنها في غير صبر إلى أن وجدها بغرفتها، تغُط في نومٍ عميق غير عابئةً بما ينتظرها في ثنايا العمر، اقترب منها بخطواتٍ حذرةٍ كي لا يُوقظها، دثرها بغطائها، قبَّل يُمناها، طبع قُبَّلة حانية على وجنتيها مُتمنيًا لها نومًا هانئًا ثم اعتدل واقفًا، كاد أن يخرج لولا رؤيته لهذا الدفتر الذي تضمه إليها ضمًا وكأنما تخشى فِراقه، فدنا منها مُجددًا، مُحاولًا نزعه من قبضتها، بذل جُهده إلى أن استسلم قائلًا:

- لا بــأس، ربمــا صــاحبة الابتســامة، تــأبي معرفتي لأسرارها اليوم.

وما كانـت (صـاحبة الابتسـامة) إلا عنـوان دفترهـا، نُقـش عليـه بخـط عربـي مبـين، مزخرف بألوان زاهية.

(الفصل الثامن عشر)

ألم

استيقظت مريم فزعة وقد ظنت أن ما رأته حقيقة، فـ كريم يُحدق بها وبدفترها الذي ما زال قابعًا بين يديها ليغدو متسائلًا:

- مَن تكون صاحبة الابتسامة هذه؟!.

تطلعت من حولها في ريبة وقلق؛ ليستقبلها السكون فالوقت ما زال مبكرًا، قد تجاوزت ساعتها الثالثة فجرًا بقليل، تنفست الصعداء بِجُهدٍ بالغ، وضعت يدها موضع قلبها تُحدث ذاتها بصوت مسموع:

- مر بسلام.

جافاها النوم، ظلت مستيقظة، تذرع أركان منزلها جيئة وإيابًا، عاجزة عن التفكير

والبقاء في صمت، كانت كلما هاجمتها غُصَّة بقلبها تدخل إليه فيما هو نائم تُمسد رأسه، تُقبله بين عينيه، تَرقِبُ أنفاسه لتتيقن أنه بخير ثم تعود لغرفتها تتطلع لدفترها القابع فوق سريرها بالمنتصف تمامًا، تُمعن النظر إليه، هامسةً إليه بكلمات غير مفهومة لسواها فيما هي جالسة بجواره تمسد سطحه لتلامس أناملها حروف عنوانه المحفور بالقلب، طابعة على وجنتيها بسمة خافتة وكأنما تخشى الجهر بها؛ لئلا تزول مثل صاحباتها؛ لتصمت فجأةً كي تُنصت.. وكأنما يُبادلها حديثا بآخر؛ لتهدأ أنفاسها المتلاحقة ويطمئن قلبها.

تمام التاسعة صباحًا وبينما هي بطريقها لارتقاء درجات مقر عملها إذا بها تستشعر

أن هنــاك مَــن يترصــد خطواتهــا، تطلعــت خلفهــا فلــم تلحــظ وجهًــا مألوفًــا لهــا، فوجــوه المــارة جميعهــا مُبهمــة، تفاجــأت بــ نجــاة تســتقبلها بشوشــة الوجــه علــى غيــر عادتهــا؛ لتقــول ضاحكة:

- لن تُصدقي مَن عاد؟

- مَن؟

- لن أُخبرك، ستعلمين عما قريب.

تسـارعت أنفاسـها بـوتيرةٍ تُنـذر بـالخطر ثـم مــا لبثــت أن هــدأت دون مقــدماتٍ، ليعاودهــا شــعور كــان يُلازمهــا منــذ ســنين علــى فتــراتٍ متقطعة.

كــادت تختنــق، اســتحال وجههــا شــاحبًا بعــد نضــارته، لا تُحــب المفاجــآت وإن كانــت مــن

صديقتها المفضلة التي صُعقت ما إن رأتها وقد تبدل حالها بلحظة، سألتها فزعة:

- مريم، ما بكِ؟

سألتها فيما تسيران نحو مكتبها؛ لكن دون إجابة، تجاوزت مكتبها السابق كمديرة للحسابات بطريقها لمكتب المدير حيث ما تزال تشغل منصب المدير التنفيذي لحين عودته فابتسمت نجاة على استحياءٍ تُحدثُ ذاتها:

- كنت أعلم أنكِ ستدركين.

إلا أنها كانت جِدُ مُخطئة فـ مريم حتى تلك اللحظة التي دخلت فيها ما كانت تَعيَّ تمامًا مغزى حديثها إذ فوجئت بعديد من الموظفين مِمَن جاءوا يهنئونه بعودته يُعيقون مجال رؤيتها؛ فتطلعت للأمام بينما تخطو صوب مَن

يتجمعـون حولــه فيمــا تتهافــت عليــه عبــارات السـرور والفـرح، لـم تُصـدق عينيهـا فقـد كـان جالسًـا خلـف مكتبـه بكامـل أناقتـه يبتسـم تـارةً ويضـحك أخـرى لِحُسـن اسـتقبالهم، سَـعِدَ الجميـع دونهـا فوجههـا العـابس لا يُـوحي بخيـرٍ قادمٍ، قالت مُعاتبة:

- ولِمَ سيدي؟

صمت الجميـع لقولهـا، تبـادل الـبعض نظـرات حـائرة يتخللهـا الضـيق والقلـق بينمـا اكتفـى البـاقون بـالتطلع إليهـا يَرقَبُـون قولهـا فيمـا عادت مستطردة وقد خفتت ابتسامته:

- تعلـم أنـكَ بحاجـة للراحـة؛ لتسـتعيد عافيتـك، فَلِـمَ تُصـر علـى إيـذاء حالـك هكـذا! إن كنـت مُقصِّـرة بعملـي فلتـأتي بمَـن هـو أهـلًا لهـا، لا أن تُجهد ذاتك بأعباءٍ تُرهق كاهلك...

فأومأ برأسه رافضًا ثم نهض من مجلسه وسار نحوها، يعلو وجهه هدوء لم يعرف له نظير قبل لحظته هذه؛ ليُجيبها باسمًا:

- ألستِ سعيدةً بعودتي!

- بلى سيدي؛ ولكن أخشى أن يُعاد ما حدث.

فقبل شهرين من يومهم هذا كان الدكتور/ حسين، بمكتبه يُهاتف أحدهم حينما تعرض لأزمةٍ قلبية مفاجئة كادت تودي بحياته؛ لولا ذاك الاتصال الذي وردها يحثها على إدراكه وحتى يومهم هذا ما تزال شخصية المتصل مُبهمة لها، فالدكتور/ حسين، لا يذكُر قط أنه مَن فعل.

شَرُدَت طويلًا بتفكيرها لذكرى ذلك اليوم إلى أن أعادتها كلماته لصوابها:

- الوحـــدةُ يـــا بُنيتـــي، تقتلنـــي.. وبهـــذا المكان فقط أستعيد روحي.

ثم صمت بُرهة يستطردُ ما بدأ:

- أتبخلين عليّ بقليل من الحيـــــــــ....؟

- العفو سيدي؛ ولكن...

- أنا بخير هنا، بينكم.

فأومأت برأسها باسمة الثغر تُجيبه:

- لا بأس، حسنًا، كما تود سيدي.

عــادت لمكتبهــا كمــديرة للحســابات، وبينمــا هــي تُطــالع عــدد مــن الملفــات التــي جاءتهــا مـؤخرًا إذا بهـا تتلقـى إتصـالًا هاتفيًـا هـز كيانهـا، صرخت جزعة وقد تهاوى هاتفها:

- لا، كذب.

هرولت دون وجهة، استقبلتها نجاة باكية وعدد من الموظفين في صدمة، لا يُصدقون ما حدث. عجزت قدماها عن السير فهوت موضعها بمزيد من الأسى صارخة:

- لا، هذا كذب، سينهض، لا تصدقوه، فعلها دائمًا.

اقتربت نجاة تُواسيها لِمُصابهما الجَلَّل فأعرضت عنها تهز رأسها آبية تصديقها، تسعى جاهدة لتقف صائحة بصوت مَشُوب بالبكاء:

- أنتِ كاذبة.

سارت إليه بِخُطى مترددة، تتقدم خطوة وتُعرض عن مثيلتها، تُطالع هذا وذاك مِمَّن جاءوا مهرولين، جزعين مما حدث، كأشباحٍ تطوف من حولها؛ لضبابية عينيها الغارقتين

بالـــدمع لفجيعتهـــا بـــه. ومـــا إن صـــارت أمـــام مكتبـــه المُكـــتظ بكثيـــر مـــن زملائهـــا. ودون أن تلقى إجابة نادت في جزع:

- أبي.

أجــل، فقــد كــان كوالــدها الحنــون، الناصــح الأمــين بــدروب حياتهــا؛ علَّهــا تــنعم بالطمأنينــة؛ ليـزول ألمهـا، أتُـراه بعـد اليـوم باقيـا، لا وألـف لا بـل اسـتكان راحـلا، فـدروب العمـر مـا عـادت ممهـدة؛ جثـت علـى رُكبتيهـا تُطـالع وجهـه الأنـور فيمـا هـو مُسـجى علـى أريكتـه أمامهـا وقـد كشـفت عـن وجهـه، علهـا تحفـظ صـورته بـين جفونهـا؛ ليبقـى رفيـق وحـدتها بأيامهـا التاليـة، انهالـت الـدموع مـن مُقلتيهـا دون رادع فيما تُناديه مكلومة الفؤاد، ممزقة:

- أبـي، لا تتركنـي مـثلهم؛ فلتبقـى أنـت، مـا لي احتمال دونك.

(...)

فـي ربـوع العُمـر نمضـي بقلـب غِـرٍ صـغير، قـد تمـادى فـي سـقم، عَلَّـه يلقـى السـبيل، رغـم أنَّـا مُكبلـون نسـتمر فـي المسـير، رغـم عبـراتٍ تخلت لن نبقى للحنين.

بعـد يـومٍ حـزين يلفـه الألـم، عـادت لمنزلهـا تنتابهـا الآهـات والحسـرات لِفـراق عزيـز كـان يومًـا بيـنهم، أوت لفراشـها غيـر آبهـة بمـا يـدور فـي الخفـاء، فمـا عـاد يُجـدي النـدم، بكـت فـي حسرةٍ؛ فهرول كريم يسألُها في جزع:

- أمي، أأنتِ بخير؟

لم تقوَ على البوح وضمته إليها خائفة أن يلقى مصير مَن مضوا يومًا لتبقى وحيدةً.

قررت البقاء، ستسعى مُجددًا؛ لكن في غير موضعٍ، وفي ذاتها تربِطُ على قلبها هامسة لذاتها:

- لا بأس، فالمصائب وإن جاءت فرادى أم زُمرًا، لا فرق، فالأمر سيَّان عندها.

ذهب كريم ووالدته لاستبيان نتيجة فحوصاته التي أجراها آنفًا؛ فالشفاء وإن بدا على استحياء، فلعَلَّه يومًا أن يصل، جلس ووالدته أمام الدكتور/ مراد، يرقبان حديثه الذي ما إن بدأه حتى أنصتا إليه في وَجَلَ ثم ما لبثا ان انبسطت أساريرهما؛ ليتبادلا نظرات وقُبّلات سرورٍ طبعتها على خده الأيسر ومفرق رأسه لِشدة فرحها.

في طريق عودتهما بدا مضطربًا، لم يكد يهدأ حتى تتقافز إلى عقله تساؤلات وظنون عدة تأبى هجره لحظة، بادرها مراتٍ عديدة:

- أمي..، أحقًا قد رحل.

وتارة أخرى:

- أمي، لعَلَّ هناك من خطأ، فلنعيدها مُجددًا.

ثُم ثالثة:

- أمي، أُصدقيني القول، فقلبي لا يكـ...؟

لتبادره بلمسةٍ حانية تَشُد على يديه، تَربِتُ على قلبه، تُمسد وجهه برفقٍ مؤكدة بوجهها الباسم:

- بُنَيَّ، انتهى، لن يعود.. صدقني.

ليُحـدجها بنظـرة شـكٍ تـأبى مفارقتـه مـا إن علـم بما ينتظره منذ أَمَد.

بعـد انقطاعهـا لأيـام متواصـلة هـا هـي نجـاة تـأتي لزيارتهـا بمـزيج مـن لَـومٍ، عتـابٍ، اشـتياقٍ لها:

- وكأننـا يومًـا مـا كنـا صـديقتين مقـربتين؛ لترحلين دون ندم.

و لقولهـا الـذي لـم تستسـيغه حـدجتها باسـمة فيما تقول:

- أَنَـى لـكِ هـذا! مَـن أقنعـكِ بهـذا الزيـف، كُنـتِ ومـا زِلـتِ رفيقتـي، صـديقتي التـي لا غِنَـى عنها.

- أحقًا؟

- ألديكِ شكٌ بذلك؟!

فأومأت برأسها أن لا لتستطرد ثانية:

- إذًا، فَفِيم فِراقُك؟! أرجوكِ فلتعودي إلينا، العمل لا يُطاق دونك.

فنهضت من فورها مضطربةٍ، ثُم ذهبت غير بعيد لغرفتها؛ لتعود حاملة مطويةً بيمينها، مشيرة إليها قائلة:

- أرجو أن تحملي هذا للمدير الحالي، أكون ممنونةً إن فعلتِ.

فتطلعت إليها في حيرةٍ بينما تتناوله، متسائلة:

- ما هذا؟!

- استقالتي.

فنهضـت فَزِعـة، لا تكـاد تُصـدق! حـدقت بهـا تـارة ومـا بيـديها تـارة أُخـرى؛ لتقـول بصـوتٍ مضطرب:

- ولِمَ؟!

- مـا عـاد يمكننـي البقـاء بـذاك المكـان بعـد د/ حسين.

- ولكن...؟

فعادت تجلس موضعها؛ لتقول حازمة:

- نجاة، هذا قراري ولن أحيد عنه.

فمـا كـان مـن نجـاة غيـر أنهـا جلسـت بمقابلهـا تُمعن النظر بعينيها؛ لتقول واثقة:

- بل ستفعلين.

فحــدجتها مــريم فــي حيــرة فيمــا تســتطرد موضحة:

- فأنتِ الوصيَّة على الشركة.

- ماذا؟!

- الأمـر يطـول شـرحه، المهـم أن تعـودي قبلما ينهار ما بنيناه طيلة سنين ماضية.

- لكن؛ أنا لا أفهم.

- كمـا سَـمعتِ، هـذا مـا أفصـح بـه محـامي الدكتور/ حسين رحمه الله باجتماعنا اليوم.

- لكني، لا أملك الحق بذلك، بل...؟.

لتتلعـثم شـفتاها وتضـطرب أنفاسـها فقلبهـا مُحمـلٌ بـذكرياتٍ بعيـدةٍ، تـأبى نسـيانها؛ ليكـون صمتُها أبلغُ بَيَّان...

- آسفةٌ، لا أستطيع.

قالتهـا بينمـا تقـف كإشـارةٍ ضـمنية أنهـا مـا عـادت ترغـب بسـماع المزيـد ففهمـت صـديقتها

مــا ترمــي إليــه ونهضــت فــي الحــال؛ لكــن وكمحاولــة أخيــرة لردعهــا عمَّــا تنــوي فعلــه همست إليها قائلة:

- حبيبتــي، الماضــي لــن يعــود.. ومَــن مــات لن يُبعث مُجددًا.

برحيلهــا الــذي لــم يمــضِ عليــه غيــر دقــائق فقــط، هــا هــو البــاب يُطرق مجــددًا، فأقبلــت لتــرى مَــن ببابهــا بقلــب مضــطرب، تكــاد تُجــزم أن هنــاك من المصائب ما زال بانتظارها.

(الفصل التاسع عشر)

صقيع الزمن

مضـــت مثـــابرة، أدت فرضـــها، أيقظـــت صـغيرها، أعـدت فطورهمـا وتنـاولاه معًـا فـي دفءٍ لا يتخللــــه صــــقيعِ الـــــزمن؛ ليـــديها الحـانيتين، لقلبهـا العطـوف الـذي كـان ومـا زال يَـدَّعمُ دون كلـل؛ قـال لهـا مودعًـا فيمـا تحـث الخُطـى نحـو بـاب منـزلهم لتأديـة مهـام عملهـا مُحملة بأعباءٍ تفوق احتمالها:

- أُحبكِ أمي.

فطبعـت قُبلـةً علـى جبينـه تُعيـد نـبض وجدانـه، هامسة إليه:

- وأنا كذلك بُنَي.

لتعود وتنظر بعينيه الآخاذتين تحثه ألا يُثير المتاعب لحين عودتها مستطردة قولها:

- تمهل قبلما تُقْدم على فعل أي شيء، فَكِر جيدًا.

فأومأ أن أجل، وكلاهما يبتسم؛ لتنطلق في سبيلها الذي خطته ليلتها الماضية مُطمئنة البال والفؤاد معًا.

بخروجها هرول لغرفته فَرحًا، بدل ملابسه، حمل حقيبته ثم انطلق مُسرعًا حتى قبلما يتأكد أن طريقه بات خاليًا، ها هو يجتاز الطريق، حارة تلو أخرى دون اعتبار للسيارات من حوله وهي تشقُ طريقها شقًا وكأنما تُسابق قدرها...

طرق الباب ثلاث وانتظر، تنامى إلى سمعه صوت ضحكاتٍ طفولية باتت تأسره ليعيش

بعالمهـا لحظـاتٍ جِـدُ نقيـة، بعيـدًا عـن الزيـف الــذي يُحاصــره. فُــتح البــاب؛ لتكــون رفيــدة باســتقباله قبـل والــدتها كمـا اعتـاد منهـا بأيامـه الماضـية، انطلقـا يمرحـان سـويًا، يتضـاحكان، يلعبـان بِـدُميتهما المفضـلة، فاضـل ومـا يُخبئـه مـن ذكريـاتٍ تجمعهمـا وأخـرى منفـردة لـن يبـوح بهـا فيمـا انشـغلت حنـين بأعمالهـا المنزليـة إلـى أن فوجئت به مودعًا:

- إلى اللقاء.

فسـاعة حـائطهم تجـاوزت السادسـة مسـاءً منـذ زمـن؛ فأجابتـه بصـوتٍ عـذبٍ بينمـا تضـع طعـام الغداء على مائدتهم:

- ألــن تنتظــر والــدك؛ ليُرافقــك؟ ريثمــا تتناول غداءك ورفيدة، يكون قد عاد.

فأومأ برأسه رافضًا:

- لا، حتمًا أمي قلقةً.

- لا تنزعج، سأُهاتفها في الحال وأُبيِّن لها حقيقة ما حدث.

لم ينتظرها وهرول مسرعًا غير منتبهٍ لوالده الذي كاد يصطدم به لحظة دخوله لولا أنه تفاداه برشاقةٍ لا مثيل لها وقفا وجهًا لوجه يعتريهما القلق، فكريم حائرٌ، يُقْدم خُطوةً ويُعرض عن أُخرى.. أيُخبره؟، والدته قالت.. أنه ما اهتم قُبلًا فهل يفعل لاحقًا.. في حين بدا ياسين غاضبًا ما إن رآه بينهم، فكر مليًا أيُخبره أم يبقى صامتًا.. وما إن أقدم ليصدح بكلماتٍ لو قالها ستعصف بهم جميعهم حتى فُوجئ به يشدو فَرحًا:

- قال الطبيب أني بخير، لقد برئتُ تمامًا يا أبي.

فأشـاح بوجهـه عابسًـا ثُـم سـار مبتعـدًا باتجـاه صـغيرته بينمـا تلهـو بألعابهـا غيـر آبهـةً بمـا يـدور حولهـا، ضـحك سـاخرًا، فبـدا كـريم مشدوهًا، لـم يُحـرك ساكنًا؛ لفعلـه الـذي مـا كـان ينتظـر وكلمـات والدتـه تعصـف برأسـه تكـاد تصـرعه، بعينـين شاخصـتين اسـتدار نحـوه والصـمت يُطبـق بتلابيـب فـؤاده الـذي ينـزف كمـدًا لجفـاء قلـبٍ ظنـه يومًـا يفـيض حُبًـا واشـتياقًا لـه. همـت حنـين لتفـادي مزيـدًا مـن الألـم، هرولـت إليـه، رَبتِـت علـى كتفـه، قَبَّلـت رأسه، قائلة:

- الحمد لله الذي عافاك بعد طول سَقَم.

لـم يُبـالِ بكلماتهـا؛ فهـو فقـط مَـن يرجـو منـه كلمـاتٍ كهـذه، هـو فقـط مَـن بيـده دحـر آلامـه، ومَـن يملـك الحـق ليشـدو بصـوته العـذب لحـن

فـؤاده، فكـم يشـتاقُ إلـى عناقـه. أمـام عبـراتٍ تنهمـر وجفـاء والـدٍ هَـمَّ راحـلًا فالصـمت والإعـراض يقتلانـه إلا أنهـا وقفـت أمامـه، تشبثت بيديه، قائلة:

- تمهـل، والـدك سـيرافقك، فلتنتظـر حتـى يُبدل ثيابه.

لكنَّ والـده الـذي كـان ومـا زال، لـم يُحـرك سـاكنًا أو يُبـدي تجاوبًـا لِمَـا هـو متـيقنٌ أنـه قـد صَـمَّ آذانـه. سـارت إليـه بقلـبٍ مضـطرب، هامسـةً إليـه ليفعـل؛ فحـدجها بنظـرة غضـبٍ أرغمتهـا لتلـزم صمتها؛ ليُجيبه في فتورٍ بالغ:

- يُمكنكَ الرحيل.

(...)

تمضـــي الحيـــاة، فمضـــى كالبـــاقين مطـــأطئ الـرأس خجـلًا ممـا واجهـه، عـاد لِمَـن بيـدها رأب الصـــدع؛ ليحـــل الســـلام بقلبـــه ولعلهـــا لا تفعـــل، ارتقـــى درجـــات منـــزلهم شـــارد الـــذهن، عابسًـــا فمـا لاقـاه اليـوم مـزق شـغاف قلبـه واسـتوطنته آلامٌ تُمزقـه، مـا كـاد يطـرق بابهـا طرقـات واهنـة كحالـــه حتـــى هرولـــت تســـتقبله فزعـــة لتـــأخره؛ لِتُصعق من هيئته التي كان عليها من شرود عقلـــه وشـــحوب وجهـــه المُحمـــل بكثيـــر مـــن الصـفعات لجفـاء والـده، لـوميض عينيـه بعبـرات الافتقاد والندم:

- مـاذا حـدث؟ أيـن كُنـت؟ ولِمَ تـأخرت كـل هذا الوقت؟

فلجأ إلى أحضانها مطأطئ الرأس خجلًا وباكيا؛ لتضمه إليها في ذعر لا تنفك لحظة عن سؤاله:

- ماذا حدث حبيبي؟، أخبرني.

ليزداد تشبثًا بها وكأنما يخشى فِراقها صارخًا:

- لا شيء.

- إذًا، قل لي ما يُحزنك؟.

لم تبرح كلماتها حدود عقله الذي ما زال يتخبط لجفاء انسانٍ ظنه يومًا سيسعدُ بشفائه. ولصمته الذي طال احتوته بيديها بقلبٍ مُنكسر، هامسةً إليه بكلماتٍ لم يفهمها سواهما؛ عَلَّها تُنسيه آلامه...

صـبيحة اليـوم التـالي تمـام الثامنـة، انطلقـت مــريم بِخُطـى واثقـة لمقـر عملهـا كمـديرة للشـركة؛ لتيسـير الأعمـال كوصـية عليهـا لحـينٍ آخـر ترتضـيه هـي، كمـا أبلغهـا محـامي الـدكتور/ حسـين، باجتماعهمـا أمـس. ومـن ثَـم اجتمعـت بـالموظفين جمـيعهم، أخبـرتهم بمـا طـرأ مــن تغيـرات لا بُـد مـن مواكبتهـا ليسـتمر العمـل. انـدهش الجميـع ممـا أبدتـه مـن جُـرأة فـي طـرح أفكارهــا دون مراعــاة للمعترضــين بيــنهم إذ قالت في ثقةٍ:

- يـا سـادة، الأمـر لـيس بيـدي، أنـا مـثلكم، د/ حسـين رحمـه الله أوصـاني بـذلك قبـل وفاتـه.. ولا يُمكننــي أن أحيـد عـن وصـيته؛ لـذا أرجـو مــنكم أن نتكـاتف سـويًا لتحقيـق حُلـمٌ طالمـا راوده لأعوام.

منذ ما حدث و كريم حبيس منزله، فوالدته لن تعفو عنه إن لم يُصْدِقُها القول ويُفصح عَمَّا يؤرق وجدانه؛ ولأنه لا يُبالي مكث صامتًا، الأمر سِيَّانٌ عنده، إن فعل أو لم يفعل فلَمَن سيلجأ بلحظاتِ ألمه، لم يبرح غرفته أيامًا عدة، كلما دخلت والدته حاملة طعامه إليه أو لأمر آخر تظاهر بالنوم وأبدى رفضه لكل ما تُبديه هي وإن كانت قُبلةً حانيةً تود طبعها على جبينه، لم تفهم مريم سبب جفاءه وانزواءه وحيدًا إلا حينما فوجئت بجميع رسوماته والتي لم تخلُ من الإشارة لوالده ممزقة ومبعثرة بأرجاء غرفته.

أدركت أن له يد بذلك، كيف لم تفقه هذا سابقًا! فجميع أفعاله، همساته، سكناته صدحت عاليًا:

- أخبريني يا أمي، ماذا جنيت؟ ليمحوني من حياته.

لكن متى فعل؟ ولِمَ لم يُخبرها أم ما عادت تملك ما تواسيه به؟! أجل إنها الحقيقة الباقية وما عداها زيفٌ ثُم زيف.. من الأفضل أن تمضي وتَدَّعِي زيفًا جهلها، أن لا شيء مثلما فعل.

عامٌ آخر انقضى والجُرح يزداد تقرحا، مريم قلقةٌ لصمته الذي ما فتئ يُرافقه، أينما حَلَّ وكان يُلاحقه؛ فلديه من الأسرار ما يعجز عن إفشائها.

فذات ليلة وبينما كان يتقلب في سريره إذا به يراها عند رأسه، تُحدق به بعينين سوداوين ووجهٍ أنور يزداد إشراقًا عند ابتسامها، هامسةً:

- كِدتَ أن تصل.

بـدا سـعيدًا عصـيًّا عـن البـوحِ بكلمـةٍ واحـدة؛ لضـــحكاتها، همســـاتها، لبريـــق عينيهـــا عنـــد ابتسـامتها، ثُـم مـا لبـث أن عـاد لدراسـته التـي انقطـعِ عنهـا دون سـبب فيمـا بـدا لهـم جمـيعهم بينمـا كـان فـي صـميمه عليـل فـؤاده، تُمزقـه نظــراتهم؛ ليغــدو إربًــا متنــاثرةً كونــه دون أب مـثلهم، مـاذا يفعـل؟ وَبِـمَ يُخبـرهم؟ الصـمت خيـر رفيـقٍ بيـنهم، اليـوم وكـل يـوم يـزداد يقينـه؛ اليتـيم لـيس مَـن رحـل أبـواه، أحـدهما أو كلاهمـا، بل مَن تعهداه بالإهمال دائمًا.

(...)

باسـل حـائر فصـديقه لـم يبـدُ طبيعيًـا أيامـه الماضـية، أرغمـه علـى كـتم أسـرارٍ سـتوردهما المهالـك، فـــ كـريم وإن ادَّعـى زيفًـا انتظامـه

بدراسته فهو لم يتجاوز بوابة مدرسته الحديدية منذ زمن، بل سرعان ما يعود أدراجه بأنفاسٍ لاهثة، يمضي زمنًا ثم يعود بانتهاء دوامهم، مُدعيًا أنه كان بينهم، وأن الإرهاق قد بلغ منه منزلًا بعد معارف شتى ودراسات قام بها؛ لكنه وفي كل مرة كان يبدو حزينًا، عابس الوجه، تكاد عبراته أن تنهمر، بل بكى يومًا حتى انقطعت أنفاسه وصديقه عاجز تمامًا عن ثلج فؤاده، أَنَّى له بالنجاح والجُرح غائر، سأله ذات مرة بينما كانا عائدين لمنزليهما:

- أين تذهب كل يوم؟

ليُجيبه مازحًا:

- هذا سر.

غيـر أن باسـل لـم يحتمـل مزاحـه وتخلـف عـن السير عاقدًا ذراعيه أمام صدره، متسائلًا:

- ألستُ بصاحبك؟

ليســتدير كــريم إليــه لحظــة ســؤاله، محــاولًا تدارك ما حدث:

- بلى، أنت صديقي حقًا؛ لكن.

- لكــن مــاذا؟ كــريم، فلتخبرنــي.. لَعَلَّــي أُساعدك.

- أحقًا.

فأومــأ برأســه أن أجـل، فتشــبث بيديــه، يُمعـن النظر بعينيه مُحذرًا:

- عِدني أنك لن تخبر أحدًا بحديثي هذا.

فأومــأ برأســه مؤكـدًا حفـظ سِـره الـذي مـا زال يجهله، ليبدأ كريم بالبوح فيما يضحك فرحًا:

- أُطارد أبي.

وقـف باسـل مشـدوهًا، عـاجزًا عـن فهـم مـا خلف كلماته من أثر؛ ليعود متسائلا:

- ماذا تعني بأنك تُطارده؟!

فهـز كتفيـه لا مباليًـا بسـؤاله ثـم هـرول عائـدًا للمنــزل، فلــم يملــك مــن أمــره شــيء إلا أن يُجاريـه ليكـون فـائزًا، وصـوت ضـحكاتهما تعلـو في الأفق.

عــاد ياسـين لمنزلـه مـرة أخـرى غاضـبًا، لا يكـاد يـنعم بلحظـة هـدوء إلا ويُفاجـأ بـذاك الفتـى يُلاحقــه، لا يعـرف مـن أيــن لــه بمكانــه! كيــف يجـده دائمًــا؟! فكـر مليًـا إلـى أن أيقـن أن لهـا يَـدٌ بـذلك فهـي دومًـا مـا تكـون فـي صفه، ذهـب إليهـا فيمــا كانــت تضــع رفيــدة بســريرها؛ لتــنعم بليلــةٍ

هادئة، سار إليها بوجهٍ يكسوه الغضب متسائلًا:

- مَن زارك اليوم؟

فتطلعت إليه مستبشرة بعودته ومتفاجئة بسؤاله الذي كان؛ فمنذ متى بَدَّل عادته بتقبيل كتفها دون انتباهها؛ لصمتها الذي طال فيما تُمعن النظر بعينيه المضطربتين سألها مُجددًا، فانتبهت من شرودها ولسان حالها يُجيبه:

- لا أحد.

- أواثقة؟

فدنت منه حائرةً، مضطربةً لحالته التي بدا عليها من الحنق والغضب، تسأله في وِدّ:

- ياسين، ما بِكَ حبيبي؟ أهناك شيئًا يؤرقك؟

فأومــأ برأســه أن لا ثـم انصــرف مسـرعًا، يُعاتــب حالــه لظنــه بهــا ســوءً فزوجتــه لا شــك تجهـل مـا يرمـــي إليـــه فنظراتهـــا، همســـــاتها، لهفتهـــا واضـــطرابها لحالـــه يؤكـــد أنهـــا ليســـت المعنيـــة، فـإن بـدا اخـتلاف رؤاهـم للأمـور جليًـا إلا أنـهـا مـا كانت لتتحالف وكريم ضده.

آوى إلــى فراشــه لعلــه يهنــأ بالراحــة ويغـط فـي نـــومٍ عميـــق؛ لكنـــه مـــا إن أغمـــض عينيـــه حتـــى رآهـــا تلاحقـــه، هرولـــت وســـط الضـــباب الكثيـــف دون وجهة، نادته في جزع:

- كـــريم، أيـــن أنـــتَ يـــا نبضـــي؟ لِـــمَ رحلـــت وتركتني؟

فلـــم يســـتطع البقـــاء مكتـــوف اليـــدين وهـــرول خلفهـــا، ظـــل أمـــدًا طـــويلًا هائمًـــا علـــى وجهـــه إلـــى أن أبصـــرهما علـــى شـــفا جُـــرْفٍ هـــارٍ يكـــاد

يطويهمـا بعيـدًا؛ ليبقـى وحيـدًا كمـا كـان دائمًـا، ناداها:

- حبيبتي، أرجوكِ لا تفعلي.

إلا أن رياحًـا عاتيـةً عصـفت بكلماتـه أدراجهـا وأسـكنتها فـي سـراديب الـزمن؛ كـي لا تسـتمع. لـم ينتبهـا لنداءاتـه المتكـررة وظـلا يتحـدثان أمـدًا طـويلًا فيمـا كـان خلفهمـا لـم يـزل صـارخًا، يرجوهـا ألا تفعـل، فـلا يُمكنـه الحيـاة دونهـا حتـى تلـك اللحظـة التـي هـوى فيهـا جاثيًـا لارتجـاف أوصـاله التـي تخلـت عنـه مثلهـا. سـقط متأوهًـا فتطلعت إليه باسمة الثغر، قائلة:

- أما آن أن تعود؟

استيقظ فزعًا، بوجهٍ حَالِكٌ كالليل يُناديها:

- حبيبتي، لا تفعلي.

خرج مُهرولًا فيما حنين تحث الخُطى لتلحق به؛ لتنعم بالنوم بعد جُهدٍ أضناها طوال يومها؛ لكنها ما إن رأته يُهرول خارجًا تتخبط قدماه ليتعثر مرة تلو أُخرى ويسقط أمامها، حتى دنت منه تُرْبِت موضع قلبه تارة وأُخرى تشُد على يديه بيدين ترتجفان آسفةً لحاله الذي غدا عليه همست بصوتٍ مَشوبُ بالقلق:

- اهدأ، لا بأس، مر بسلام، هيا.. قُم معي.

آخذة بيديه تحثه أن يفعل؛ لينصاع لأمرها وكأنما عاد طِفلًا لا يُجادل كبيرًا بقوله، لم يشأ العودة لغرفته؛ فعندما هَمَّت حنين لتُرافقه إليها، صاح غاضبًا بصوتٍ يرتجف:

- لا، لا.. سأبقى هنا.

ظلت تُمسد رأسه طوال ليلها فيما تتلو ما تيسر من الذكر الحكيم ليستكين فؤاده وينجلي اضطرابه إلى أن هدأ القلب وغط في نومٍ عميق فوق تلك الأريكة بغرفة معيشتهم مُتخذًا فخذها وسادة له، راجيًا إياها ألا تُفارقه؛ عَلَّه ينعم بالسكينة بقربها، واثقًا أنها لن تتركه؛ ليلقى مصيره المحتوم وحيدًا دُونها.

(الفصل العشرون)

عواصف ذكريات

مَـر الوقـت بطيئًـا بينمـا ينتظـر أمـام الشـركة؛ لرُبمـا يلمـح طيـف والـده فيهـرول إليـه باسـمًا، يُخبره مثلما فعل أيامه الماضية:

- أُحبك أبي.

وذكـرى يـوم حـزين مضـى مـا زالـت تُطـارده، فـذات يـومٍ ذهـب للقـاءه فَرحًـا فيمـا كـان يتوسـط عـدد مـن العمـال والمهندسـين، يُشـرف بذاتـه علـى سـير العمـل بمبنـى سـكني مـن عشـرين طابقًـا لـم يـزل تحـت الإنشـاء، يحـثهم علـى بـذل المزيـد مـن الجهـد لينتهـوا فـي وقـت قياسـي؛

ليُضـــاف مـــا حققـــوه لقائمـــة إنجـــازاتهم، نـــاداه باسمًا:

- أبي، كُنت أعلم أني سأجُدك.

ليســـود الصـــمت بيـــنهم، وشـــعور بالغضـــب بـــدا جليًـــا علـــى والـــده مـــا إن غـــدا كـــريم أمامـــه، متسائلًا:

- أيُمكنني مرافقتك؟

ليلقى جوابًا مُجردًا:

- بالطبع لا.

- لكن...؟

فلـم يُمهلـه لحظـة ليُبـدي اعتراضًـا بـل سـرعان مـا أمســك يــده بغلظــةٍ، ســار بــه بعيــدًا وســط دهشــة وحيرة من رآه صارخًا به دون رأفةً:

- هذا ليس مكانًا للهو، هيا اذهب، لا تُضيعِ وقتي هباءً معك.

قالها غير عابئًا بتألمه، دافعًا إياه بعيدًا؛ كي يُغادر إلا أنه لم يبرح مكانه بل ظل ساكنًا يُحدق به فيما هو عائدٌ غير مُدركٍ سبب بغضه الدائم، لا يُعقل أن يكون بسبب مرضه كما ادَّعت والدته؛ ليعود متسائلًا:

- لِمَ تُبغضني لهذا الحد؟! ما ذنبي أن أكون مريضًا؟

فلم يُعيره أيَّ إهتمام ومضى في طريقه، وما إن غدا صَوب عُماله حتى صدح بها عاليًا:

- إذا كانت إجابتي ستُشفي صدرك، فأجل، مرضك هو هلاكك، ولا أبغي قربك عندما يحين ذلك.

انتصـــف النهـــار دون أن يبـــرح مكانـــه، لا يحتمـل العـودة خـالي الوفـاض مُجـددًا، ففـي القلـب بصـيص أمـل لـم يـزل؛ لكـن دون جـدوى فـأبوه لـن يفعل يومـه ولرُبمـا أيامـه التاليـة بعدما أصـــابته حُمـــى شـــديدة جعلتـــه طـــريح فِرَاشِـــه. ولغِصَّـة أصـابت قلبـه تحـتم عليـه فِعلهـا، تـنفس الصـعداء وسـار واثقًـا؛ فمنــذ ســاعات الصــباح وقـف ينتظـر، أقبـل إليهـا بِخُطـى واثقـة يسـألها دون ترددٍ:

- أين أبي؟، أَوَدّ لِقَاءه.

فتطلعـت موظفـة الاسـتقبال إليـه دهشـة؛ ليكـون جوابها، سؤالها:

- مـــاذا؟! مَـــن تعنـــي؟، أقصـــد مـــا اســـم والدك؟

- ياسين النادي.

صُـعِقت لقولـه، فرئيسـهم لا يملـك مـن الأبنـاء سـوى رفيـدة، فَمَـن يكـون هـذا الفتـى؟! ومـا هـي قصـته؟! حاولـت أن تسـتفهم منـه بقـدر اسـتطاعتها؛ لـتعلم إن كـان كاذبًـا فلـم يمنحهـا فرصة وبادرها مُلوِحًا بيده:

- لا بأس، أعلم أين أجده.

مضـى واثقًـا وهـو لا يكـاد يعلـم خطوتـه التاليـة، كـان خطئًـا أن يسـألها ولـم يـدرك إلا متـأخرًا، مكـث غيـر بعيـد، يفكـر مـا هـو بفاعـلٍ؟ بهـذه الأثنـاء شـعر باسـل بِغصَّـة فـي قلبـه فصـديقه لـم يحضـر فـي موعـده ليعـودا معًـا، انتابـه قلـقٌ شـديد، كيـف يعـود وحيـدًا؟ وبمـاذا سـيُخبر والدتـه؟ هـل يُفصـح لهـا عـن سـرهما الـدفين؟ أم يصـمت مُـدعيًا جهلـه، يُـدرك جيـدًا أن كلماتـه المُبعثـرة حينمـا يكـذب لـن تنطلـي عليهـا،

لا شك تملك من الوسائل ما يجعله يُفصح عن كل ما يَضمره؟ كاد عقله أن يَشتَّت لكثرة تفكيره وعجزه عن ايجاد مَخرجٍ لأزمتهم التي غدا كريم مُسببها انتظره أمام بوابة مدرسته ساعاتٍ طوال؛ لعله يعود بأي لحظة.

كادت الشمس تدنو من المغيب حينما قادته قدماه لباب منزله، طرق الباب وانتظر، فعلها ثلاث دون جدوى فحدث ذاته هامسًا:

- لعلهما ليسا بالداخل.

هبط درجات سلمهم بقلبٍ يرتجف، فكلما دنا من الابتعاد ضاق صدره واختنق، أدرك السبب فكيف يكون القلب صحيحًا والنبض عليلٌ، يحتضر إذ لمح والده يتكئ على زوجته فيما

يسيران نحو مدخل سكنهم لِعِلّةٍ به، هرول نحوهما جَزِعًا يسأله:

- أبي، ماذا بك؟، أخبرني.

توقف كلاهما لحظة رؤيتهم إياه، بدا ياسين صلدًا أمامه، ابتعد عن زوجته ليقف شامخًا، فلا يبغي أن يكون ذليلًا بوضعٍ كهذا أمامه، بينما بادرته حنين مُطمئنة:

- لا تقلق حبيبي، ليس هناك شيء، إنها فقط....؟

ليُقاطعها زوجها ممسكًا يدها بقوةٍ؛ كي تصمت وألا تسترسل بحديثها معه، ثُم خطى إليه بخيلاء مُدَّعيًا براءته من كل سوء متسائلًا:

- ما الذي جاء بك؟ ألا ترى أنه ليس لكَ مكانٌ بيننا أم أنكَ مازِلت على عِنادك السابق.

فأجابه بقلبٍ مضطرب رغم عِلمه بالجواب مُسبقًا:

- أبي...؟

- ماذا؟! لِمَ تُصر على ملاحقتي وقد أخبرتُك سابقًا أني لا أوَدَّ رؤيتك.

- لِمَ؟!

فصاح بوجهه غاضبًا:

- أكرهُك.

لتنهال العبرات من مُقلتيه كشلالٍ جارف ما كاد ينتهي حتى أصابته نوبة سُعالٍ حادة وازداد وجهه حُمرة؛ لينحنى للأمام لاهثًا فأنفاسه لا تكاد تُطاوعه بالنفاذ إلى رئتيه، حاول التحدث إلا أن نوبته هذه ليست كسابقاتها فها هو يجثو على رُكبتيه متألما،

هَمَّت حنين لمساعدته إلا أن ياسين عاد ليُحكم قبضته على يدها وينهرها صائحًا:

- لا تتدخلي، إياكِ أن تُحاولي.

قد تكون النهاية؛ لكنها حتمًا بداية عن حياتي سأحكي، فأنا دومًا مُلام عن جُرمٍ ليس بِجُرمٍ حينما كنت جنين، عن ذنبٍ لم أقترفه وإن طالت سنين، عن نبضٍ ليس بنبضٍ فالهجر أدمى قلوبًا علها يومًا تتوب، عن حياةٍ ليست حياة وأنتَ يا نبضي بعيد، عن قلبٍ قد تمزق واليوم أصبح شريد.

وقف أمامه يُطالعه دون أن يُحرك ساكنًا أو يرأف لحالته التي غدا عليها، ليبادره ساخرًا بعد صمتٍ ساد لحظةٍ:

- أرأيت.

حـــاول جاهـــدًا، قـــاوم آلامـــه، رفـــع رأســـه بعـــدما هـــدأت أنفاســـه متطلعًـــا بعينيـــه، يـــود اختراقهمـــا للنفـــاذ إلـــى عقلـــه لرُبمـــا يعلـــم مـــا يُخبئـــه فباغتـــه بسؤال ماحيًا ما بقى من وِدٍّ بينهما.

- أخبرنـــي، كـــم مـــرةً جِئـــت تُبشـــرني؟ وكـــم مرةً عاد إليك؟

- ماذا تعني؟

- انظـــر لحَالِـــكَ، كيـــف صِـــرت، أنـــتَ لا بُـــد هالك.

انهـــار كـــريم باكيًـــا، فـــلا يملـــك مـــن الكلمـــات مـــا يـــدفع الضُـــر عنـــه، فيمـــا هرولـــت حنـــين إليـــه تضـــمه آســـفة، ضـــجرةً، قـــد فـــاض كيلُهـــا لحـــديث

زوجها الذي لم يُعيرها أي اهتمام لصراخها بوجهه غاضبة:

- كفى.

ومضى غير آبه لتأتي كلمات كريم صارخة لَرُبما تُعيد ما مضى من نبض:

- لكنيَّ، مَازِلتُ حيًّا.

(...)

أثناء ذلك عاد باسل مضطربًا، لا يدري أبخير هو أم ماذا أصابه؟ دخل غرفته فلحقت والدته به تطمئن عليه بعدما انتبهت لشحوب وجهه وكأن مَرضًا ألَّم به، سألته في غير صبر بينما تتحسس جبهته قلقة:

- باسل، أأنتَ بخير؟ أأصابكَ مكروهٌ ما؟

فأومأ برأسه أن لا ثم أشاح بوجهه مبتعدًا؛ كي لا تُصِر على معرفة الحقيقة ولا شيء غيرها؛ عند المغيب وما إن عاد والده حتى هرول إليه، يَقُص عليه ما حدث فنهض غاضبًا لتصرفهما الأهوج ثم غدا متسائلا:

- هل أخبرت والدته؟ أفعلت أم مازلت تنتظر؟

ما إن لاذت عيناه بالفرار آسفًا؛ لسوء فِعله حتى نهض والده جَزعًا ينهره لمرافقته ففعل مضطربًا، وما كادا يتجاوزان الشارع الفاصل بينهما ومنزل كريم حتى لمحاه يُهرول نحوهما متجاوزًا المارة من حوله غير آبه لارتطامه بأحدهم؛ ليرتمي بأحضان والد صديقه بقلبٍ يرتجف ويرجوه باكيا:

- كُن أبي، أرجوك.

صُــعق لرجائــه الــذي كــان، تبــادل وباســل نظـراتٍ حـائرة، فــ كـريم مضـطرب، تكـاد أنفاسـه تودعـــه وقـــد اســـتحال وجهـــه أســـودا، حـــاول معرفـة مـا بـه وَلِـمَ يبـدو بحالتـه هـذه؟ فمـا كـان منــه إلا أن ازداد تشــبثًا بــه راجيًــا إيــاه أن يبقــى معه.

لـم يشـأ العـودة، فوالدتـه لا ريـب ناقمـة عليـه، رجـاه ألا يفعـل، توسـل إليـه إلا أنـه لـم يُنصـت، بـل ضمه إليـه فـي رِفـق يهـدئ مـن روعـه هامسًـا فـي أُذنـه:

- لا بأس، والدتك ستتفهم، اعتمد عليَّ.

فتشـبث بــه بقلــبٍ يرتجـف بينمـا يرتقيـان درجـات منزلـه يتـبعهم باسـل مُطـأطئ الـرأس حزينًـا لحـال رفيقــه الــذي آل إليــه، فُــتح البــاب مــع أولــى

طرقـاتهم؛ لتطـل مـريم مـن خلفـه بوجـهٍ عـابسٍ، حالكٌ كالليل؛ ليبادرها عادل قائلًا:

ـ مســاء الخيــر أســتاذة مــريم، أرجــو ألا أكون قد أزعجتك بهذا الوقت.

ومــا إن أومــأت برأســها أن لا، حتــى أطــل صـغيرها مـن خلفـه آسـفًا وباكيـا لفعلـه الـذي كـان قائلًا:

ـ آسفٌ أمي، لن أفعلها ثانية.

ذُعـرت لحالتـه التـي بـدا عليهـا؛ لكنهـا لـن تغفـر أبــدًا تــأخره لمثــل هــذا الوقــت، اقتربــت منــه مُدَّعية أنها لا تُبالي:

ـ لِمَ تأخرت؟

فطأطـأ رأسـه عـاجزًا عـن البـوح بينمـا اسـتمرت بتوبيخها غاضبةً:

- لا تُخبرنــي بالأكاذيــب، إيــاك وفعـل ذلـك مرتين.

- آسف أمي.

فصاحت بوجهه:

- وبمـــا ســـيُفيد أســـفك الآن، آه، أخبرنـي، أسـيعيد تلـك الأيـام التـي قضـيتها وقلبـي يحتــرق عليــك، أســيُعيد دروســك التــي أهملتهــا أيامًــا عــدة لتتســكع بالطرقــات طــوال اليــوم وتظنني جاهلة، لا أُدرك شيء.

لــم يقــوَ علــى جلــدها إيــاه بكلمــاتٍ مؤلمــةً، ارتمــى بأحضــانها باكيــا؛ لشــدة مــا لاقــاه مــن الهوان دون ذنب:

- آسف، أعِدُك ألا أراه بعد اليوم.

بُهتــت لقولــه وتطلعــت للســيد عــادل الــذي حــاول عبثًــا تهـدئتها أثنــاء ثورتهــا؛ لتسـمع منــه وتساءلت بعينين مضطربتين:

- هل...؟

لتصــمت كقلبهــا الــذي أَبَــى إلا صــمتها؛ ليــومئ برأسه أن أجل.

ظـن أنــه سـيلقى الوفـاء والـوُدَّ، فمـا كـان غيـر الجفـاء والهجـر؛ رَقـت لحالـه بعدما بـات مرتجفًـا وكـأن حُمـى أصـابته، احتوتـه بـذراعيها هامسـة إليه بصوتٍ مَشُوب بالحُزن:

- لا بأس حبيبي، لا عليك.

صــباح اليــوم التــالي اســتيقظت مــريم فزعــة علــى طرقــاتٍ تــدق بــاب منزلهــا دون هــوادة وكأنمــا تريـد تحطيمــه، ارتـدت ثوبهــا، وضــعت

حجابها وانطلقت لترى مَن الطارق بقلبٍ يرتجف، تدعو الله أن يكون خيرًا قادمًا لكنها وما إن رأت حنين وبتلك الساعة أمامها باكية، ترجو مساعدتها حتى استوطن القلب حُزنًا، مزقه، أخذت بيدها تحثها على الدخول، تُهدئ من روعها لتستفهم منها؛ فلا تكاد تفقه شيئًا لكلماتها المبعثرة؛ لاضطرابها ولنشيج بُكاءها إذ قالت آسفة:

- ساعديني...، اجعلـــــ...، أرجوكِ، لا احتمل...، دونهـ....

ثُم دنت تُقبِّل يديها ولم تزل راجية، فنزعتهما من قبضتها جَزعة لفعلها، لا تكاد تفهم ما ترمي إليه بحديثها؛ فكيف لها بمساعدتها! فعادت حنين متوسلة:

- أرجوكِ، سأفعل أي شيء، فقــ...؟

فقاطعتها مريم متسائلة:

- أُساعدكِ بماذا؟!، أنا لا أفهم عَمَّا تتحدثين...

فوضعت يديها موضع قلبها لعَلَّ أنفاسها أن تهدأ ويستقيم حديثها:

- ياسين، تركني وحيدة، تجادلنا البارحة، لم أشأ الرحيل عن وطني فَفَر بها.

حينها.. وحينها فقط أدركت ما ترمي إليه؛ فصغيرتها المعنية بكلماتها. فعلها من جديد؛ لِتُعاد ذكرياتٍ ظنت يومًا اندثارها...

ساد الصمت بينهما هُنَيْهَةً دون اختراقٍ يتبادلان نظراتٍ جِدُ حزينة حتى تلك اللحظة التي تنامى إلى سمعهما صوت ارتطام جسمٍ ما بالأرض، فقد كان كريم قريبًا للحد الذي استمع

فيـه لكـل همسـةٍ بَـدَرت عنهمـا؛ ليسـقط فاقـدًا الوعي، يلوم ذاته لِمَا أصاب شقيقته.

كـريم يسـتعيد وعيـه؛ ليُنيـر درب حياتهـا رغـم صُـعوبات تعتـرض، فـذات صـباحٍ وبينمـا هـي بجـواره بغرفتـه بالمَشـفى، تُراقـب أنفاسـه بقلـب مُنفطـر إذا بـه يفـتح عينيـه رويـدًا رويـدا لينفـذ ضـوء النهـار إليهمـا، لـم تُصـدق عينيهـا وظلـت تترقبـه فـي صـمت يُهيـأ إليهـا أن هـذا مـن نسـج خيالهـا إلـى أن همـس إليهـا بصـوته العـذب مناديا:

- أمي...

فانكبـت عليـه تُقبلـه بوجهـه تـارة ويديـه أُخـرى؛ لتعود وتُقَبل جبهتـه ومفـرق رأسـه غيـر مُصدقة أنــه قــد عــاد إليهــا، يكفيهــا أن تســمع صــوته ليطمـئن فؤادهـا الـذي مـا فتـئ الحُـزن يُرافقـه

بِفِـراق عزيـزٍ عـن دُنيـاهم الفانيـة، ولشـرودها تساءل حائرًا:

- أمي، أين باسل؟! ألم يأتي لزيارتي؟

لـم تتوقـع أن يـأتي سـؤاله سَـريعًا هكـذا، تلعثمـت حروفهـا واضـطربت أنفاسـها؛ كيـف لهـا بإخبـاره؟ أتُفصـح عَمَّـا أصـابه وبحالتـه هـذه؟ كيـف يُطاوعهـا قلبهـا لتفعـل بـه ذلـك؟، كيـف؟ لصـمتها الـذي طـال ولعينيهـا الحـائرتين المغرقتين بالدمع، سألها جزعًا:

- أمـي، مـاذا حـدث؟ أخبرينـي، أأصـابه سوء ما؟

مـاذا أقـول عـن نـبضٍ غـدا مفارقـا؛ ليسـتوطِنَّا حُزنًـا ممسـكًا بتلابيـب أفئـدتنا، مـاذا أقـول يـا عُمـري، أأُخبـرك بـأن الطيبـون رحلـوا قبلنـا، فـي رَكـب الـراحلين قـد مضـوا غيـر مـودعين أحبـائهم

بأمـل اللقيـا فـي حيـاةٍ باقيـة، بمـاذا أبـوح يـا نبضـي والحياة فانية.

(الفصل الحادي والعشرون)

خفقان نبض

أَلَّــحَ عليهــا، فعبراتهــا التـــي تهــاوت لحظـــة تلاقـــي أعينهمـــا فـــي ثنايـــا صـــمتهما لا تُـــوحي بـــالخير ومـــا زال يســـألها حتـــى أقـــرت بكـــل شـــيء وصوت نحيبها يشقه نصفين:

ـ باسل، مات والده.

بوجه يكسوه الفزع صاح باكيًا:

ـ لا.

بـــذات اللحظـــة التـــي أقبلـــت فيهـــا مواســـية إيـــاه لمصـــابهما؛ فـــأعرض بوجهـــه دافعًـــا يـــديها الحـــانيتين بيســـراه بينمـــا يتكـــئ علـــى مرفـــق يُمنـــاه مُحـــاولًا النهـــوض بقلـــبٍ يقطـــر ألمًـــا لفـــراق حبيـــبٍ كـــان يومًـــا بيـــنهم، يتخـــبط بـــين هـــذا وذاك، مُبعثـــرًا

مـا فـي طريقـه بأرجـاء غرفتـه فكـل مـا حولـه يـدور دون توقـفٍ، يكـاد يطرحـه أرضًـا لهـول مـا سمعه، يهذي مضطربًا بعبراتٍ تحرقه:

- لا، أبي لا يموت.

فهرولـت تأخـذ بيـده؛ لتُعيـده إلـى فراشـه مـن جديـد بعـدما كـاد يسـقط أرضًـا لشـدة مـا يُكابـده، فـأبى إلا الخـروج. مُسـندًا جسـمه علـى هـذا الجـدار المـؤدي للبـاب، يشـق طريقـه للخـروج بِخُطـى وئيـدة صـارخًا بهـا فيمـا تُحـاول عبثًـا إثناءه عما يفعله:

- ابتعدي.

إلا أنهـا مـا اسـتطاعت، بـل لحقـت بـه مكلومـة الفـؤاد فَزِعـةً، تُناديـه تـارة وتُعـرض أُخـرى، ترجـوه أن يعـود، فمـا زال فـي وَهّـن لغيبوبتـه التـي امتـدت أسـبوعٍ ونيـف، هرولـت إليـه

صارخةً لرؤيته طريح الأرض، يُحاول النهوض عبثًا، دنت منه، ضمته إلى صدرها ترجوه أن يهدأ ويعود معها فدفعها غاضبًا رافضًا مواساتها:

- كيف؟!

عادت تُحدثه فَصَّم آذانه عن السمع ونهض رغم آلام رأسه وبصره الذي لا يُنصفه بلحظاته هذه، مضى مُترنحًا غير مُدركٍ لِمَن حوله فجميع حواسه قد عزفت عن مساعدته بهكذا ظرف؛ لعينيه الباكيتين.. وقلبه المُرتجف من الخوف، لساقيه العاجزتين عن السير، هوى مرةً أو مرتين بدرب خروجه من هذا السجن المغمور بآلامٍ تفوق الحَدّ، ومع كل عثرةٍ يسقط صَرِيعها كانت والدته عُكازًا يستند

عليه وستبقى لآخر أنفاسها بدربٍ لم تتبين ملامحه بعيتك

وصلا عند الظهيرة وانفطار فؤادهما يدق دقًا؛ ليُفتح الباب على مصراعيه، ليعبر كريم بأنفاسٍ مُضطربةٍ وعينين تدوران بين هذا وذاك مِمَّن اجتمعوا بالبيت من الأهل والأصدقاء، يُواسونهم بِمُصابهم الذي لم يتوقعوا أنه واقِعٌ اليوم، بحث عن صديقه فما جاء إلا إليه، مضت الدقائق وكأنما تقذفُ جمرًا يحرق أفئدتهم إلى أن تنامى إلى سمعهم صرخاتٍ تَشق القلب شقًا فهرول نحو غرفته يُسابق دقات قلبٍ تقافزت في كل صوب، فتح بابه بقلبٍ تهاوى لصرخاته، وما إن رآه بِركنٍ بعيد ووالدته ملتحفة السواد، تحاول عبثًا مواساته بمصابهما حتى هرول إليه جزعًا ما

إن تلاقــت أعينهمــا الــذابلتين لكثــرة بُكائهمــا؛ ليتعانقــا ويلتحمــا كجســد واحــد لا يُمكــن انتزاعهمــا وإن حــاولوا؛ لــيهمس باســل إليــه مؤكدًا:

ـ لا، أبي لم يمت.

بـذات اللحظـة التـي اخترقـت فيهـا كلمـات صـديقه لُبَ فؤاده؛ تُمزقه:

ـ ليت أبي مَن مات.

لِيُطلقــه مــن بــين يديــه ويرســله بعيــدًا، مُعرضًــا عنــه مُغاضــبا فهــرول كــريم عائــدًا، لا يــدري مــا باله فجأةً، همس إليه مُضطربًا:

ـ باسل، ما بك؟، أقلتُ شيئًا أغضــ...؟

لتتهاوى يَدُ صاحبه تعصف بوجهه دون نذيرٍ، أعقبها بصرخاتٍ وعتابٍ لم يفهم مُبررها إلى أن قال ثائرًا:

- إياك وتمني موت أبَيك ثانيةً وإن جحدك فلا تكن عَصِيَّ القلب.

تداعت نبضات قلبه أمام كلماته وهوى جالسًا، بعينين تذرفان متسائلًا:

- وَلِمَ هو؟ لِمَ يتمنى موتي بكل لحظة؟ لِمَ ينبُذني وكأنما اقترفتُ ذنبًا بمولدي؟ لِمَ أُهان دائمًا؟!

صمتٌ استحكم تلابيبه فيما يُطالع صديقه الذي يذرف الدمع منتحبًا؛ لكلماته، ليده التي تَمنى بَترُها قبلما تمتد وتصفعه، كيف سيُخبره أنه وإن مات سيفنى القلب ويندثر كحاله الذي بات عليه لموت والده، كيف سيبوح بسر

بقاءه؛ أنه وبرغم افتراق دروبهما سيبقى له سندًا يُؤازره، كاد أن يفعل لولا بُكاء كريم مستطردًا:

- أين أنا منه! لَستُ مسئولًا عن مرضٍ ألَم بي دون إرادتي؛ لينبذني مثلما فعل.

فطأطأ باسل رأسه صامتًا، خجلًا لقوله بينما نهض كريم عابس الوجه، قائلًا:

- إن كنت لا تملك إجابةً؛ فلا تأمرني بالصمت، فاض كيلي وما عُدت أحتمل.

مساء ذلك اليوم ذهب باسل للاعتذار آسفًا، دق بابهم لتستجيب مريم مسرعة، انقبض قلبها لحظة رؤيته يتطلع إليها بوجهٍ مُكْفهِر يكسوه الألم فبادرته قائلة:

- باسل! مرحبًا بِك، تفضل.

- أيُمكنني رؤية كريم؟

- أجل، تفضل، سأدعوه في الحال.

مـا إن اسـتقر باسـل علـى مقعـده بغرفـة معيشـتهم حتـى دَلفـت إلـى كـريم، سـارت إليـه حيـث كـان يتوسـط سـريره جالسًـا، يضـم سـاقيه إلـى صـدره بقـوة مُتطلعًـا أمامـه بنظـراتٍ تائهـة نحـو الـلا شـيء، جلسـت بجانبـه تحثـه علـى النهـوض فـ باسـل ينتظـر إلا أنـه بقـى صـامتًا، شاردًا، ربِتت على يده.. راجية:

- هيـا حبيبـي، لا يُمكنـك التمـادي فـي خصامك له وقد جاءك مُعتذرًا.

فهمس دون وَعيًّ:

- لا أريد.

عادت ترجوه بشتى الطُرق ليخرج معها، فغدا صائحًا دون أن يتطلع بوجهها:

- لا أُريد رؤيته، لا أُريد.

لصرخات صديقه بالرفض نهض باسل فَزعًا، مضطربًا؛ أبخيرٍ هو أم من سوءٍ أصابه؟ لم تمض غير دقائق حتى خرجت مريم حزينة، آسفة؛ لتُفاجأ به واقفًا، يتطلع إليها مُضطربًا كاضطرابها، بعينين تغزوهما العبرات وبكلماتٍ مُتلعثمةٍ ها هو يُبادرها ليرفع الحرج عنها قائلًا:

- لا بأس، كنت فقط أَوَدّ رؤيته والاعتذار إليه قبلما نُغادر.

بُهتت لقوله وأقبلت تسأله بقلبٍ مضطرب:

- تُغادرا! إلى أين؟! وَلِمَ؟!

- ما عاد يُمكننا البقاء هنا، سنعود للأقـ...؟.

لتتلعثم كلماته مرة ثانية ما إن لاحت حروف مَوطنٍ ظن يومًا أنه لن يطأه بقدميه للمرة الثانية مُودعًا، ثم استطرد ما بدأه بقلبٍ يرتجف:

- ما عادت الكلمات تُجدي، أو الندم، فقط أقرئيه مِني السلام واعتذاري عَمَّا حدث.

- أنا آسفة، لا أعرف ماذا أصابه فجأة.

مع ساعات الصباح الأولى أقبلت مريم لِتُوقظ صغيرها ففوجئت به لم يزل على وضعه الذي كان عليه غير أنه أسند رأسه إلى رُكبتيه مُخفيًا وجهه كي لا ترى كم هو في وهَّن، لم يَنم، فصفعة صديقه وما حوته من أثر حطم فؤاده لم تزل، وصدى كلمات ما كان

ليُصدق أنها ستتبع يومًا من قلبٍ ذاق الألم ما زالت تُطارده، عواصف هوجاء عصفت به فبقي صحوًا ينتظر، لم تحتمل، هرولت إليه فزعةً، ضمته إليها بقلب مُنفطر، تسأله في جَزع:

- كريم، ما بِك؟ أأنت بخير؟

فبكى بين أحضانها مستسلمًا، لفقد من أحبهم:

- لا، لَستُ بخير.

ثُم رفع رأسه ليُمعن النظر إليها بعينين مرهقتين موضحًا:

- مَن قال أني كُنت كذلك يومًا.

لصدق كلمات نبعت من داخله، عادت تضمه إليها بقلبٍ مكلوم لِمَا آلت إليه حالته؛ ليغدو مستكينًا فيما تُمسد رأسه، تُربت على كتفه،

هامسة إليه بكلماتٍ لعلها تـرأب صدوعًا شتى، أحدثها صقيع الزمن غير أنها سُرعان ما صمتت فلديها من الأخبار ما ليس جيدًا وبصوتٍ يرتجف عادت تُخبره:

- كريم، هناك ما أَوَدّ إخبارك به.

بهذه الأثناء كان باسل يحزم حقائبهم الواحدة تلو الأخرى ويضعهم جانبًا حتى ما إن انتهى منهم جميعهم بدأ يحملهم اثنين اثنين ويُسرع خارجًا نحو سيارات تنتظر أسفل منزلهم لِتُقلهم لوجهتهم التالية حيث الأهل والأحباب ينتظرونهم، بينما كانت والدته تُحكم إغلاق جميع نوافذ وأبواب منزلهم لتبقى محتوياتها في مأمن وإن طال الأمدّ.

ما إن علم كريم برحيلهم حتى نهض فَزِعًا، هرول مسرعًا غير مُصدق إلى أن رآه واقِعًا،

فأمــام منــزلهم أبصــر ســياراتٍ ثــلاث تنتظــرهم، كانــت إحــداهما لنقــل جثمــان الســيد/عادل، الــذي لــم يتركــوا منــزلهم هــا هنــا إلا ليُــواروه الثــرى بجــوار مــن رحلــوا مــن آبــائهم، أمــا الســيارتين البــاقيتين ففــي إحــداها عــدد مــن أقربــائهم. والثانيــة سيســتقلها باســل ووالدتــه رفقــة عمــه الأكبــر الــذي رآه يــذرع الأرض جيئــة وذهابــا فــي غير صبرٍ، بانتظارهم.

بوســط ســيل مــن العبــرات كــاد ينهمــر هــا قــد لمــح صــديقه مُقــبلًا، حــاملًا حقيبتــين كبيــرتين تفوقــان قدرتــه، يُعــاني الأمــرين بحملهمــا ففــي كــل خطــوة يطأهــا تتعثــر قدمــه ويكــاد يســقط لــولا تَجلــده، هــرول إليــه جَزِعًــا يُعانقــه، صــائحا وباكيًا:

- لا تفعــل، لا تـــذهب، باســـل، أرجـــوك ابقى معي.

لتســقط الحقيبتـــين ويحتويـــه بذراعيـــه هامسًـــا وباكيًا:

- ليتني أستطيع.

فتشبث به بكل قوته رافضًا:

- لا، أرجوك، لا تتركني مثلهم.

فطأطأ رأسه آسفًا؛ لئلا يرى كم غدا متألمًا:

- ليت الأمر بيدي.

بينمــا همــا كــذلك إذ بِعَــم باســل يَرقِــبُ مــا يــدور بينهمــا عــن قُــرب ومــا إن تنــامي إلــى سمعه بُكــاء أحـدهما حتـى اقتـرب منهمـا لسؤالهما عَمَّـا يـدور بينهمـا؛ لكنــه مــا إن خطـى خُطوتــه الأولــى حتــى

فــوجئ بـــــ كــريم يــدفع باســل عنــه صــارخًا ومهرولًا:

- لا، لن تعود.

مكتبهـا مُنكبـة علـى ملـفٍ بـين يـديها تـؤدي مهـام عملها إذا بها تسمع مَن يُناديها، مازحًا:

- مرحبًـا بـذات العيـون الأربـع، أمَـا زِلـت ها هنا؟

فنهضت غاضبةً، صائحة:

- مَــن أنــتَ؟ وكيــف تجــرؤ علــى مُنــاداتي بذا...؟

لتتلعــثم كلماتهــا بــين شــفتيها مــا إن أبصــرته أمامها، يُطالعها باسمًا وقائلًا:

- لأنكِ كذلك.

فعادت لتلعثُمها:

- رؤوف، أنــــت!، كيــــف؟! أعنــــي.. متــــى عُدت؟!

ليُجيبها بينما يخطو خارجًا وهي في أثره، تلحق به، آملة في إعاقة تَحركه عن النفاذ إلى ما يرنو إليه:

- ماذا بكِ؟! ألستِ سعيدة بعودتي؟!

لتُجيبه مُضطربةً:

- لا، بلــــى، أعنــــي.. بــــالطبع ســــعيدةً؛ ولكن...؟

بعد زُهاء ساعة وبينما مريم بطريقها لولوج مكتبها إذا بإحدى الموظفات تُقبل إليها فَزِعة، تُخبرها بأن هناك مَن يعبث بمحتويات مكتبها وأنهم عاجزين عن ردعه فحدجتها بنظرة شكٍ عَمَّا إذا حاولوا بحقٍ أن يمنعوه؛

لتضطرب الموظفة لنظراتها وتُبادر بالمغادرة فيما أكملت طريقها بِخُطى رزينة إلى أن فوجئت بعددٍ من الموظفين يتجمعون أمام باب مكتبها المُغلق من الداخل بإحكام، عاجزين عن فتحه وصوت ضوضاء تنبعث منه، فدنت منهم مُستفهمة:

- ما الذي يجري ها هنا؟ وما هذه الجلبة؟

فتطلعوا إليها فزعين ليُبادرها أحدهم قائلًا:

- لقد عاد...؟

- مَن؟، مَن تعني؟

تلعثمت الكلمات بين شفتيه ليصمت كما الجميع؛ فاقتربت لتُمسك بمقبض الباب لتتأكد إن كان بحق موصدًا أم لا، ثم عادت تتطلع

إلـيهم تحـثهم علـى إبـلاغ الأمـن الـذي أتـى فـي الحال؛ وفُتح الباب عُنوة...

دَلِفـت إلـى مكتبهـا بقلـبٍ مضـطرب فـلا تكـاد تعلـم مـا ينتظرهـا؛ لتُفاجـأ بمحتوياتـه جميعهـا مُبعثـرة علـى الأرض دون هـوادة فيمـا ذلـك العائـد لـم يـزل عنـد الخزينـة عابثًـا بمحتوياتهـا، مُوليها ظهره.

(الفصل الثاني والعشرون)

ثم موت

عـامٌ مضـى دون بصـيص أمـل، حنـين تُكابـد فِـراق صـغيرتها، كيـف هـي الآن؟ أبخيـر حـالٍ أم تتـألم لنزعهـا مِنـيِّ؟ أتشـتاق لـي أم مـا عـادت

تـذكرني؟ أتختبـئ بمكـانٍ مـا؛ لتُنـاديني بصـوتها العذب.. أين أنا يا أمي؟

نهضـت مـن مجلسـها مترنحـة ومـا بقـى مـن ذكريـاتٍ تعصـف برأسـها فيمـا تسـير لغرفـة رفيـدة فمنـذ رحيلهـا وهـي سـكنها ومسـكنها، أوت لفراشـها الصـغير كسـنواتها التـي تُعد علـى أصـابع اليـد الواحـدة لعلهـا تـنعم بالراحـة وتطوف بعيدًا عن واقعٍ يقتلها.

لـم تمـض غيـر دقـائق حتـى سـمعت صـوت البـاب يُفـتح فـ مـريم حتمًـا قـد جـاءت لتطمـئن عليهـا، باتـت موقنـة فوقـع أقـدامها بـات قريبًـا وأزيـز مفاتيحهـا يختـرق أُذنيهـا؛ فمنـذ مـا حـدث وهـي تمـر مـن حـين لأخـر مسـتخدمة نسـخة أخـرى مـن مفاتيحهـا منحتهـا إياهـا لِتَـدلف إلـى المنزل وقتما تشاء.

فقبـل ثلاثــة أشــهر جـاءت تطـرق بابهـا تعلـم جيـدًا أنهـا بالـداخل فقـد هاتفتهـا منـذ دقـائق وهـي بطريقهـا للعمـل؛ لتطمـئن عليهـا فمـا كـان مـن حنين غير كلمات توديع وأغلقت هاتفها:

- ما عُدت أحتمل.

ليـدب الخـوف بقلبهـا ويسـتحكم منهـا، هرولـت إليهـا جزعــة تــدعو الله أن تكــون غيــر صــائبة. عنـدما لـم تلـقَ إجابـة ألصقت أُذنهـا بالبـاب لعلهـا تُنصــت إلــى مــا يــدور خلفــه، لا شــيء؛ لكنهــا مُوقنةً أنها بالداخل، نادت عليها:

- حنين، افتحي الباب لنتحدث.

ولِصمتٍ غدا مُجيبها، صاحت ثانيةً:

- حنـين، أعلـم أنـكِ بالـداخل، فـلا تراوغـي وافتحي هذا الباب اللعين.

ضــاربةً إيــاه بكلتــا يــديها لغضــبها؛ إلا أنهــا لــم تســتجب، وبقلــبٍ ينــتفض هرولــت مــريم عائــدة تستدعي حــارس العقــار الــذي أتــى مُهــرولا، بعـد محــاولات شــتى تمكــن برفقــة عــدد مــن الجيــران مــن فــتح بابهــا؛ لِتُفاجــأ كمــا الجميــع أنهــا ولشــدة يأســها قــد قطعــت شــرايين يــديها مُودعــةً حياتهــا البائســة خضــعت لعــلاج مكثــف ألزمهــا فِراشــها بالمشــفى شَــهرًا كــاملا؛ لتــدهور حالتهــا الصــحية بعدما امتنعت عن الطعام أيامًا عدة.

واليــوم هــا هــي تــأتي إليهــا كعادتهــا، تمكــث معهــا ســاعات طــوال تُحــدثها بأشــياءٍ شــتى لعلهــا تُــذهب بعضًــا مــن آلامهــا؛ لكــن كيــف يحيــا القلــب والنــبض مفارقــه؟! عزفــت عــن الكــلام فبمــاذا ســتبوح؟! أبغيــر آلام الفِــراق ولوعــة فؤادهــا

يبغــون تحــدثها وابتســاماتها المزيفـــة حتمًـــا تُمزقها، إنها جَدُ آسفة.

ولحالتها التي لا تُنْبئ بالخير، لم تبرح مريم مكانهـــا إلا و حنـــين برفقتهـــا، انطلقتـــا ســـويًا مغـادرتين منزلهـا الـذي لا يـأوي غيـر الجِـراح والألـم؛ لتمكث معها و كريم الـذي سيسعد كثيـرًا بوجودها.

مــن مُحــام، لثـاني، لثالــثٍ.. حــاول رؤوف دون كللٍ، انتزاع ما هو مِلكٌ لـه كما يَدَّعي، إلـى أن قــال آخــرهم بينمــا كانــا يجلســان ســويًا بمكتبه:

ـ أســتاذ رؤوف، مــن خــلال الأوراق التـي قـدمتها لـي والتـي تُثبت عكس مـا تدَّعيـه فـلا يُمكننـي غيـر تقـديم النُصـح لـك بـألا تستمر فـي عنـادِك الـذي قـد يسـلبك الكثيـر، فوالـدك

رحمـه الله قـد بـذل كـل مـا يملـك فـي سـبيل العلـم، ولـم يمـنح أحـدًا فِلسًـا واحـدًا كمـا تَـدَّعي، إنمـا السـيدة/ مـريم وجميـع العـاملين بالشـركة ينحصـر دورهـم علـى رعايـة تلـك التِّرِكـة ودعـم البحـث العلمـي بـذات المجـال كمـا هـو مـذكور بهـذا الملـف الـذي بـين يـديك، وهـذا مـا أكدتـه مـريم يـوم التقائهمـا بمكتـب والـده فبينمـا يعيـث بالمكتب فسادًا إذ دخلت إليه قائلة:

- لن تجد ما تبحث عنه.

لتتهـاوى الأوراق مـن بـين يديـه؛ وتسـتقر عنـد قدميـه لحظـة سـماعه صـوتها العـذب؛ ليسـتدير باسمًا، يُجيبها:

- لكني وجدتُك.

جحظت عيناها، غير مُصدقة أنه ها هنا الآن، ماثلا أمامها، هو كما هو، لم يزل بقامته الطويلة، بشعره المجعد، بصفاء بشرته لشدة بياضها المُشبع بِحُمرة، بأهدابه المُبعثرة لقلتها وعينيه البُنيتين يُحدج بها باسمًا وكأنما أبدًا لم يُفارقها لحظة؛ لِتُحدثه غير مُصدقة:

- رؤوف! ما الذي جاء بك؟ ثم ماذا تفعل بمكتبي؟

ظن لِبُرهة أنها ستنهار وتتهاوى بين يديه مُعتذرة عَمَّا مضى؛ لكن هيهات، هيهات، فالقلب مَلِئٌ بجروح لن تندمل، لم تنسَ اتهاماته، أنها يومًا لم تُبالِ بفيض حبه لها، لم تنسَ أبدًا يوم أن قذف خاتم خطوبتهما بوجهها غير آبهًا لبكائها، انتبه من شروده فيما تستطرد قائلة:

- رؤوف، لن أعيد كلامي هذا مرتين؛ فأنصت جيدًا، ستخرج من هذا المكتب ومن الشركة بأكملها ولن تعود إليها مُجددًا.

فظل يُحدق بها غير مُدركٍ من أين لها بهذه الجُرأة لتُحدثه هكذا! كيف له أن يفعل وهو المالك الفعلي لهذه الشركة وكل ما ينتج عنها؛ فهو الوريث الوحيد لوالده، علمت ما في صدره لتغدو مؤكدة:

- لا يحق لك التواجد هنا بأي صورة كانت، ما لم أشأ أنا بذلك، أفهمت.

عندما لم يحتمل زيف كلماتها ضحك ساخرًا:

- أحقًا، ماذا أصاب عقلك أنتِ! أخبريني، عن أي مكتبٍ وأي شركةٍ تتحدثين؟ أعن هذه؟!

فجلست على كُرسيها الوثير خلف مكتبها، قائلة:

- أعتقد أنكَ مازلت تجهل الحقيقة كاملة.

فعاد ساخرًا:

- وما هي؟

- أنِّي أصبحت الوصيَّة الفعلية على هذه الشركة وجميع ممتلكات والدك رحمه الله، كما لا أُخفي عليك أنه قد وهب كل ذلك للارتقاء بالبحث العلمي في مجال الدواء.

فصاح غاضبًا:

- هُراء، هذا محض افتراء.

ضاربةً سطح المكتب بيمناها ومُشيرةً بيدها الأخرى قالت مُحذرة:

- إيـــاك والتشــكيك بمصـــداقيتي ثُـــم منـــذ متـــى تعتـــرف بأُبوتـــه؟! ألســـت أنـــت مَـــن تجـــردت منـــــه لأهوائـــــك المغرضـــــة وقاطعتـــــه ســـــنواته الباقية.

فـــأراد أن يُقاطعهـــا فأردفـــت غيـــر آبهـــة لتـــردده الذي بدا في تلعثمه:

- ثُـــــم بـــــأي حـــــقٍ تـــــأتي الآن وتُطالـــــب بثروتـــه وأنـــت لـــم تواريـــه الثـــرى أو تتلقـــى عـــزاءه مثلمـــا يتمنـــى كـــل والـــدٍ عنـــدما تحـــين ســـاعته، آه، أخبرني، بأي وجه تفعل ذلك.

فاستجمع قواه وصاح غاضبًا:

- كفى.

- بل أنتَ كفى.

مشــيرة بيــدها صــوب البــاب المفتــوح علــى مصراعيه تستطرد ما بدأته:

- والآن اخـرج مـن مكتبـي، إيـاك ثـم إيـاك والتفكير بالعودة مُجددًا.

أمـام الشـرر المتطـاير مـن عينيهـا واللغـط الـذي بـات يسـري مـن حولـه علـى ألسـن جمـعٍ مـن المـوظفين ممـن اجتمعـوا ليشـهدوا علـى مـا كـان بينهمـا مـن جـدال مـا زال مُحتـدمًا، خـرج حانقًا، متوعدًا إياها صائحًا:

- سـنرى، لمَـن النصـر فـي النهايـة، سـنرى يا مريم.

ليعود لحاضره مستفهمًا:

- أما من مخرج لهذا المأزق؟.

فأومـأ المحـامي برأسـه أن لا، ثُـم عَقَّـب بعـد طـول تفكيرٍ:

ـ هنــاك حــلٌ أخيــر؛ لكنــه لــن يُفيــد كثيــرًا بحالتـــه...؟

فقاطعه قائلًا:

ـ وما هذا المخرج؟

فـنهض مـن مجلسـه خلـف مكتبـه وسـار نحـوه مُمسكًا كتـابٍ مـا بيمنـاه لـيجلس مقابلـه وقـد غـدا مستطردًا:

ـ إنـــه مـــا نُســميه دعـــوى بُطـــلان تصـرفات؛ لكنـي آسـف؛ فلـن أقبـل برفـع دَعـوى كهـذه، فوالـدك أقـر هـذا؛ قبـل وفاتـه بـأعوام وهـو بكامل وعيه وإدراكه جيدًا.

ـ أهكذا إذا.

لـم يـعِ مـا يعنيـه بكلماتـه هـذه إلا حينمـا رآه ينهض ثائرًا؛ ليصيح به غاضبًا:

- إن لـم تُقـم لـي هـذه الـدعوة غـدًا؛ فسأهجوك بمصداقيتك في النقابة وأمام الملأ.

فـنهض المحـامي فَزِعًـا لقولـه، غيـر مُصـدق مـا سـمعت أُذنـاه، ألهـذا الحـد بلـغ الجحـود منـه منزلًا؛ لِيُبادره دون ترددٍ:

- مـاذا تطننـي فـاعلًا، اخـرج مـن مكتبـي في الحال ولا تعد إلى هنا مُجددًا، إياك ثُم إياك.

(...)

- حسنًا، إذا كُنت تود ذلك فلا بأس أبي.

بهـذه الكلمـات حـدث كـريم ذاتـه لتجـاوز أيامـه الرتيبـة، المتشـابهة؛ فمنـذ رحيـل صـديقه مـا عـاد يملـك مَـن يُرافقـه لحظـة واحـدة، وحيـدًا فـي ذاتـه

وإن غـدوا جميعًـا بجانبـه، والدتـه تـزداد عصـبيةً لمـا تواجهـه طـوال يومهـا بعمـل يفـوق قـدرتها ومـا عـاد بإمكانهـا سـماع المزيـد عنـد عودتهـا متـأخرة وحنـين بصـمتها الـدائم ووحـدتها القاتلـة، فمنـذ أن جـاءت للإقامـة معهمـا وهـي تلـزم غرفتهـا، لا تُفارقهـا إلا النـذر القليـل، إمـا لقضـاء حاجتهـا أو ارتشـاف بعـض قطـرات المـاء لِتُبقـي علـى حياتهـا، تمضـي ليلهـا سـاجدة، باكيـة ، تُنـاجي ربهـا أن يُعيـد طفلتهـا، فمـا عـادت تطيـق الحياة دونـها.

أمـام هـذه وتلـك نفـذ صـبره، قـرر الرحيـل دون عــودة؛ فــذات صــباح بينمــا والدتــه بعملهــا و حنـين كمـا هـي منزويـة بغرفتهـا إذا بـه يجمـع بعضًـا مـن ملابسـه، يضـعها فـي حقيبتـه قبلمـا

يخــرجُ مُودعًــا إياهــا برســالةٍ مقتضــبةٍ تركهــا على سريرها، جاء في طياتها:

- آســفٌ أمــي؛ لكنــي لســتُ حجــرًا كمــا تظنــونني، أرجـوكِ لا تبحثـي عنـيَّ فلـن أعـود إلا وقد حان أجلي.

لتعصـف رسـالته هـذه بهـا كُليـةً؛ لتتنهـار باكيـةً وكـل مـا فيهـا يرتجـف بينمـا تُعيـد قـراءة كلماتـه التـي خطهـا بأناملـه الصـغيرة وقلبـه الغضَّ الـذي لا يعلـم شيئًا عن غـدر البشـر، أيـن تـذهب؟ وبِمَـن تستنجد بمُصيبتها هذه؟ هوت صارخة:

- يا صغيري، ماذا فعلت بحالِك؟!

هرولــت حنــين إليهــا جَزِعــةً، مترنحــةً مــا إن ســمعت صَــرخاتها؛ لــتجلس أمامهــا، تُطالعهــا بعينــين مضــطربتين، تُربِــتُ علــى قلبهــا بيــدين

تــرتجفين، تســألها فـــي غيــر صـــبرٍ بحـــروفٍ مُبعثرة:

- مريم، مَا بك؟، أخبريني، ماذا حدث؟

فتطلعــت إليهــا بعينـــين تــذرفان، تُمســـك يـــدها بقــوةٍ، عَلَّهــا تســتمد شــيئًا مــن جَلَــدِها، هامســـةً إليها بِقلبٍ يرتجف كارتجاف حروفها:

- بمــاذا ســأخبرها، أنــيَّ لــم أســتطع، الأمــر فاق احتمالي، آسفة.

ثُــم صــمتت بُرهــة تُطالعهـــا فـــي جــزع؛ لتعــود بعدها تُحدث ذاتها وسط ذهول حنين لقولها:

- آســـفةٌ، لـــن أُعيـــدها، أعيـــديهما إلـــيَّ، لا أحتمل الحياة دُونهما.

دَلِفــت لمركــز الشــرطة بقلــب مضــطرب لعــل هنـــاك مَـــن يســـاعدها ويُعيـــد صـــغيرها؛ لِيُـــثلج

صدرًا يتَّقد جمرًا وحنين من خلفها تلحق بها كظلها، تتطلع من حولها في اضطراب وكأنما تخشى من يُباغتها بما لا تود حُدوثه، وقفتا أمام ذلك الضابط العشريني القابع خلف مكتبه، قد غدت مريم باكيةً فيما تقص عليه مأساتها؛ ليُجيبها غير آسفٍ:

- لا يُمكنني فعل شيء قبل انقضاء أربعٍ وعشرين ساعة، سيدتي.

- أمجنون أنت.

فنهض من مجلسه فَزِعًا يتقد غضبًا، خطى إليها مستفهمًا بعدما كان لم يزل خلف مكتبه، لم يُحرك ساكنًا لحظات ضعفها، بُكاءها؛ لافتقاد عزيزها:

- ماذا قُلتِ؟!

وقفت شامخةً تُمعن النظر بعينيه الزجاجيتين، لا روح فيهما؛ لتقول غير آسفة:

- ما سمعت.

كاد يصفعها لولا حنين التي أحكمت قبضتها على يده، تنهره نهرًا أن لا يفعلها، حاول نزع يده من قبضتها فكم هي مؤلمة، بعد صمتٍ جال بينهم نزع يده آمرًا:

- ابتعدا، اخرجا في الحال وإلا وضعتكما بيديَّ هاتين في السجن.

حاولت حنين إطاعة أمره راجية مريم أن تفعل، فلم تبرح مكانها، تطلعت نحوها بعينين تبكيان لتعود وتنظر إليه؛ لتقول مُتحدية:

- عليكَ ببدء البحث عنه وإلا لن أبرح مكاني هذا...

فعاد ليجلس خلف مكتبه وكأن شيئًا لم يكن، متطلعًا لتلك الرسالة التي منحتها إياه بيديها لحظة دخولها؛ ليعود وينظر إليها نظراتٍ خبيثة، مشيرًا إليها بتلك الرسالة، قائلًا:

- أوتعلمين أن رسالةٍ كهذه تمنحني الحق لأزج بكِ في السجن، بتهمة الإهمال، إلا أنني سأرأف لحالك إذا ما خرجتِ من هذا الباب دون العودةِ مُجددًا.

فما كان من مريم غير أنها نزعت رسالتها من بين مخالبه، مُمسكة يَدُ حنين؛ لِتُغادرا.

أضناهما البحث أيامهما التالية، بحثا عنه بكل مَكانٍ خُيل إليهما أنه قد لجأ إليه، أصدقاءه برغم ابتعاده عنهم أيامه الأخيرة، كانوا من أولى أولوياتهم، رفقاء لعبته المُفضلة؛ إلا أنهم قالوا جميعًا:

- لا، لم نره مُطلقًا.

بوفـاضٍ خـال، وقلـوبٍ مُحطمـة عادتـا تَجُـران خيباتهمـا وكثيـر مـن النـدم؛ لتتنهـار مـريم باكيـة؛ ليتبدل حالهن وتصير حنين مواسية:

- كفـى حبيبتـي، بُكـاؤك لـن يُجـدي أو الندم.

- أيـن عسـاه يكـون؟ أخبرينـي، أيـ...؟

لـم تكـد تُنهـي كلمتهـا إلا والبـاب يُـدق فهرولـت فـي لهفـةٍ؛ لعلـه قـد عـاد؛ خَفـت رجاؤهـا مـا إن فعلـت وأبصـرت نبيـل أمامهـا، تسـارع نبضـها، لا تـدري لِـمَ أتـى! ظـل يَرقَبهـا بلحظـات صـمتها لتبـوح عيناهـا مُفصـحة عَمَّـا بهـا مـن اضـطراب؛ ليُخبرها بحروفٍ مُبعثرة:

- أسـتاذة مـريم، هنـاك مـا أَوَدّ اخبـارك بـه، بشأن كريم.

فتشـبثت بيديـه ترجـوه أن يحكـي فـي الحـال، تـنفس الصُـعداء وأخـذ يُحـدثها وكـل مـا فيهـا يرتجف لهول كلماته:

- جـاءني قبـل يـومين باكيًـا، يرجـوني أن يبقـى معـي، فـلا يُريـد العـودة إليـكِ بـأي حـال، أخبرنـي أنـه مـا عـاد يحتمـل تلـك الصـفعات، أنـه عـاجزٌ عـن البقـاء معـك، رجـاني ألا أُعيـده وإلا سـيُغادرني ولـن أعـرف لـه طريقـا؛ فـآثرتُ الصمت علـى الابتعـاد؛ لكنـي لـم استطع. وهـا أنـا ذا أمامك؛ لَعَلَّ هناك ما يُضمد جِراحه.

لـم تنتظـر وهرولـت تسـبقه، يكـاد قلبهـا أن يقـف، لا تـدري ألشـدةِ فرحهـا أم لِحُزنهـا؟ بينمـا نبيـل، حنين، يلحقان بها عاجزين عن مُجاراتها.

عند منتصف الليل دَلِفَ ثلاثتهم إلى الفندق، مريم ما تزال مُهرولةً بين هذا وذاك، نبيل يتبعها من غرفةٍ لأخرى يبحثان عن صغيرها الذي ما إن رأته مُلقى أرضًا بزاوية إحدى الغُرف متأوهًا حتى شهقت في لوعةٍ، جزعةً وباكية، رفعت رأسه عن الأرض، ضمته إليها آسفة إلا أنه فقد وعيه بين يديها لحظة تلاقي أعينهما، توقف قلبه عن عناده مستسلمًا؛ فتشبثت به، ضمته إلى صدرها صارخة:

- لا.

لن ترضى بأن يرحل دون مُسامحتها، نادته جَزعةً، هزته هزًا كي يفتح عينيه فما فعل؛ فأقبل نبيل فَزعًا لصرخاتها وما إن رآه على حالته التي عليها؛ لانقطاع أنفاسه حتى حمله

حمـلًا مهـروٍلًا بــه نحـو الخــارج لعَـلَّ هنــاك مَـن يُساعده.

نُقـل كـريم للمشـفى فـي حالــةٍ يُرثــى لهــا بعـد ســاعاتٍ طِــوال مــن فُحوصــاتٍ مُرهقـــة وُضــع بالعنايــة الفائقــة حتــى تسـتقر حالتــه فــالنبض لـم يــزل مضـطربًا فـي تــردده، لا يكــاد يســترد وعيــه إلا ويفقــده؛ لتــأتي النتيجــة مُعلنـــة عــن سِــجَال جديـد لـم يفتـأ يَخْفـت إلا ويحتـدم، عـاد مـن جديـد وآخر يُرافقه.

(الفصل الثالث والعشرون)

ثُم حياة

ذات مســاءٍ، بينمــا والدتــه والــدكتور/ مــراد، يقفــان عنــد رأســه، يتناقشــان بــإجراءت عــلاج جديـدة ينـوي اتباعهـا معـه إذا بـه يسـتعيد وعيـه ويفـتح عينيـه رويـدًا رويـدًا فكـم بـات واهنًـا، مـا إن أبصـرهما بجانبـه حتـى تطلـع إليهمـا فتـرةً ليســـت بالقصـــيرة لا يفقـــه حـــديثهما، أراد

النهـوض إلا أنـه لـم يسـتطع وغـدا متألمـا؛ فـدنت والدتـه تضـمه إليهـا فـي شـوق بينمـا أقبـل طبيبـه باسم الثغر ليفحص نبضه فنزع يده صارخًا:

- لا أريد، لِمَ لا يُفارقني؟

بعينـين مضـطربتين تطلعـت والدتـه نحـو طبيبـه الـذي توقـف عـن كـل شـيء إلا مبادلتهـا نظراتهـا بـأخرى أشـد اضـطرابًا وأكثـر ضـعفًا؛ ليعـود وينظر إليه مستفهمًا:

- كريم! ما الأمر؟ فِيّم غضبك؟

وبأنفاسٍ لاهثة، أجابهما غاضبًا:

- لا أريد، ما عُدت أحتمل.

جلـس بجـواره، همـس إليـه بكلمـاتٍ أشـد مـا يحتاجهـا بلحظـات اضـطرابه، لعَـلَّ هنـاك مـن خيـرٍ

بانتظـــاره، قـــال حازمًـــا واضـــعًا رأســـه بـــين راحتيه:

- بـل سـتحتمل، سـتفعل ذلـك وسـتنجح، لأجلك فقط.

أمـام هـذا وذاك لـم تجـد بُـد، وافقـت مُرغمـة، ليبـدأ صـغيرها رحلـة عـلاج جديـدة، طويلـة الأمـد، سيناضـل علـى جبهتـين مختلفتـين رغـم توحـد عـدوه، واضـعة كامـل ثقتهـا بطبيبـه الـذي بـات سـبيلها الوحيـد للأخـذ بيـده نحـو ذلـك الضوء آملين في شفاءه.

- لا بأس.

هكـذا قالـت تعبيـرًا عـن موافقتهـا، فتهللـت أسـاريره وبـدأ العـلاج فـي الحـال شـاكرًا إياهـا على حُسن صنيعها.

أيامًـــا معـــدودات خضـــع خلالهـــا للعـــلاج الكيميـائي والإشـعاعي فـي آن، لأيـامٍ بـدا واهنًـا، دائـم الـدُوار، بـين فينــةٍ وأخـرى تنتابـه نوبـات غثيان تُرهقه أيَمَّا إرهاق.

إلــى أن جـاءت والدتـه إليـه ذات صـباحٍ فَرِحـة تُعانقـــه، تُبشـــره أنـــه بـــات يســـتجيب لعلاجـــه، ضـاربًا بقدميـه راسـخًا؛ لتنهـار دفاعـات مرضـه أمامــه، ليغـدو شـاردًا، أيُصـدقها أم ينتظـر.. قـال فـــي نفســـه، هنـــاك مـــن الـــدفاعات التـــي ســـيلجأ صـديقي لاتباعهـا أيامـه التاليـة؛ لتـذهب فـرحتهم سُــدى، علــى أيِّ حــالٍ جاراهــا فــي بهجتهــا وســرورها طابعًــا قُبَّلَــة حانيــة علــى وجنتيهــا، فهذا جُل ما يستطيعه.

أدركـت مـا يـدور فـي خُلـده وتطلعـت بعينيـه واضعة رأسه بين راحتيها قائلة:

- انتهــى يــا صــغيري، عَمَّــا قريــب سيفعل ذلك.

فــارتمى بأحضــانها يُخبــئ رأســه؛ كــي لا تــرى عبراته، ونحيبه يُخالط كلماته:

- ليته يفعل.

- كُن جاهزًا، سنغادر اليوم.

فتهللــت أســاريره وتطلــع إليهــا بوجــه مُنيــرٍ كالشمس لحظة شروقها، قائلًا:

- أحقًا.

دعــت حنــين للخــروج معهمــا فَلَبَّــت دعوتهــا فَرِحــة، جلــس ثلاثــتهم حــول مائــدة دائريــة يتنــاولون غـداءهم بأحـد المَطـاعم الكُبـرى بوسـط القــاهرة، يلفهــم الســرور، تصــدح ضــحكاتهم ودعابــاتهم عاليًــا لينتبــه إلــيهم جُــل مَــن بالمكــان

إلا ذلك الشخص الجالس قريبًا منهم؛ لا تفصله عنهم غير مائدة واحده قد رحل زبائنها لتوهم؛ لتتضح الصورة له ما إن أشاح بوجهه نحوهم، إذ رأى مريم ضاحكة، باسمة فيما تتناول غداءها برفقة سيدةٍ أُخرى يَجهلها وفتى لم يفتأ في الثانية عشرة من عُمره واهنًا، رغب بشدة في الذهاب إليها وزجرها، متمنيًا صفعها لتهدأ روحه وتستقر آمنة؛ لكنه ما إن نهض ليفعل ذلك حتى تنامى إلى سمعه كَلماتٌ ألجمته مكانه، إذ سمع الفتى، يُناديها:

- أمي، كوني حذرةً، فهذا الطعام لا يُناسبك.

لتُجيبه باسمة:

- بلى، يُناسبني حبيبي، وسأتناول منه المزيد؛ لترى.

لـم يسـتطع البقـاء بمكـانٍ واحـد يضـمهما بعـدما عــرف مــن الأســرار الباقيــة بســراديبها، خــرج مُهرولًا، يُحدث ذاته يُعاتبها في جزع:

- هكذا إذا، هذا هو.

عنــدما يســلبنا المُحبـين بريـق قلوبنــا ونــبض فؤادنا،عنـــدما تنتهـــي الحكايـــة قبـــل ابتـــدائها، عنــدما تفتــرق الــدروب قبــل التقائهــا؛ فحتمًــا ودومًــا ســتبقى صــريع قلــوبٍ نُــزع حياؤهــا؛ لتبقى وحيدًا شريدًا في محرابهم.

بأنفــاسٍ لاهثــةً وصـل رؤوف لسـيارته القابعـة أمـام المطعـم تنتظـره؛ لتنطلـق بـه مسرعةً، تشـق طريقهـا وكثيـر مــن الــذكريات تعصــف برأســه، ليبكـي مثلمـا لـم يبكِ من قبل متأوهـا، مُعاتبًـا ذاتـه في لوعة، لا يُطيق صَبرًا أن يظل دونـها:

ـ لِمَ يا مريم؟ لِمَ، أَمِن أجل هذا الفتى ووالده ترحلين ناسية، أتطوين ذكرياتنا وتحرقينها غير آبهة، أين أنتِ؟ أين أنا؟ أيفترق قدرنا بهذه الحياة هكذا؟ آه يا مريم، آه.

(...)

للمرة الثانية عاد القهقري، عاجزًا عن العودة أو المُغادرة؛ جلس ياسين ذات ليلة بشرفة غرفته بذلك الفُندق العتيق بعروس المتوسط، يُجابه البحر، يُراقب أمواجه المتلاطمة وانعكاس ضوء القمر يُعانق صفحته وتلك النجوم المتناثرة تبدو على استحياءٍ بجانبه كلآلئ تُزينه، تحين منه التفاتةً بين فينة وأخرى نحو سريره حيث

رفيـــدة نائمـــة، يَـــذكر يـــوم أن حملهـــا مُحـــاولًا الفرار بها ليرحل عن الديار وماضٍ يُطارده.

بـين جنبـات مطـار القـاهرة وقـف فَزِعًـا كطِفـلٍ فقـد والـده؛ ليغـدو بعـد فينـةٍ باكيًـا، عـاجزًا عـن نـــزع روحـــه ففـــي هـــذه الأرض بقيـــت ســـاكنة، وصـــغيرته تُطالعـــه، لا تَعـــي مـــا يـــدور معهمـــا، عـــاجزةً عـــن كـــل شـــيء إلا تجفيـــف دموعـــه بأناملهـا الصـغيرة، تُقبـل رأسـه باسـمة؛ ليَنتهـي بهمــا المقُــام بــذات الفُنــدق الــذي أواه ســابقًا، وكأن الزمن يُعيد ذاته، مُحذرًا.

عامًـا مضـى وآخـر يُوشـك علـى الانتهـاء ولـم يـــزل مُتجـــاهلًا، تناســـى أمـــرهم ليَـــنعم بالحيـــاة وصـــغيرته التـــي لـــم تفتـــأ ليـــومهم باكيـــة، حـــاول جُهـده لتسـتعيد بهجتهـا فمـا اسـتطاع؛ فالصـغيرة جِـدُ عنيـدة كعنـاده؛ تسـاؤلات عـدة وآلام قلبـه

باتــت تصــرعه؛ يتــرنح متألمًــا، مُمســكًا رأســه بكلتــا يديــه، ليبــدأ بنوبــات صــراخ لا تـهــدأ إلا بســقوطه أرضًــا فاقــدًا الــوَعيَّ ليرحــل بعيــدًا، وحيــدًا فــي ســراديبه؛ لتبــدأ صــغيرته بالبكــاء كــل صــباح لشــدة فَزعهــا مــا إن تــراه علــى الأرض مُمــددًا، فــي سُــباته غــدا غارقًــا؛ تُهــرول إليــه خائفــة، ترتمــي بأحضــانه، تضــع رأســها علــى صــدره لعلَّهــا تســتكين وينــزوي ارتجافهــا؛ ليفــتح عينيــه بعــد طــول زمــن علــى شــهقاتها المتتاليــة ونحيبها الذي لا ينقطع.

بهــذه الأثنــاء عــادت حنــين لروضــتها تواســي حالهــا بعمــل يُبعــد عــن كاهلهــا فَراغًــا قــاتلا بعــدما كانــــت رفيــــدة جنتهــــا وملجؤهــــا بــــأرض الله الواســعة. وجودهــا بــين تلــك البــراعم الناميــة أثلج صدرها ولو هنيهة؛ لتستمر ماضية.

ذات صـباحٍ وبينمـا هـي جالسـةٌ بحـديقتها بـين زهورهـا تستنشـق شـذا عبيرهـا، ريثمـا يـأتي الصِـغَار لـتقص علـيهم حكايـةً جديـدة مـن حكاياهـا التـي لا تنتهـي إذا بهـا تسـمع مـن يُناديها بصوتٍ عذب ما زالت تَذكره:

- أمي.

لتستدير وَجِلـة وكـل مـا فيهـا ينـتفض، تخشـى أن يكـون مـن نسـج خيالهـا؛ لكـن مـا إن رأتهـا أمامهـا بفسـتانها الزهـري، بسـنواتها الثمـانِ، بخصـلات شـعرها الكسـتنائية قـد انسـدلت لـتلامس كتفيهـا، وملامحهـا الوديعـة التـي لـم تتغيـر كثيـرًا، حتـى هرولـت إليهـا تضـمها ضـمًا تُحكـم احتوائهـا؛ لتحملهـا بـين ذراعيهـا مـن فـرط سـعادتها وتـدور بهـا دورة كاملـة باكيـة، ضاحكة:

ـ آه، يا عُمري، كم كَبِرتِ، انظري لحالك، كيف أَصْبَحتِ.

انتبهت بعد هنيهة أنها بمفردها، تطلعت من حولها بقلبٍ مضطرب؛ لعلَّه هنا، يُراقبهما خِفيةً بلحظتهم هذه إلا أنه ما كان ليفعل إذ قالت رفيدة بصوتها الهادئ:

ـ ذهب يا أُمي.

لتستدرجها مستفهمة:

ـ مَن؟.

إلا أن الصغيرة لم تُجيبها وعادت ترتمي بأحضانها؛ لشدة شوقها. كان عليه البقاء لعدة أيام؛ كي يُنهي بعض المعاملات الورقية بشركته قبلما يُغادر دون رجعة، هكذا عاد بعد سنوات ليست بالقليلة، بقرار راسخ لن يحيد

عنـه مهمـا بـدا ضـعيفًا حينهـا. اتخـذ مكتبـه تلـك الأيـام سـكنه ومسـكنه، لـم يُفارقـه، يسـتقبل عـددًا مــن رجــال الأعمــال مِمّــن يرغبــون بشــراء شـركته الوليـدة بعـدما صـارت راسـخة القـدمين بمجـالٍ لا يعـرف للضـعيف سـبيلًا؛ لتـأتي فرصـة سـانحة مُقدمــة علــى طبــقٍ مــن ذهــبٍ كمــا يقولــون، لتنهــال عليــه الهــدايا مــن كُــل حــدبٍ وصــوب بعــدما غــدا موافقًــا دون تفكيــر فــي عواقب قرارٍ اتخذه مُرغمًا.

جلـس الطرفـان لإتمـام عقـدهم بمكتـب ياسـين يُرافقـه محاميـه فيمـا المشـتري الخليجـي بصُـحبة اثنـان مـن مُحـاموه، وَقَّـعَ ياسـين رغـم تـردده ومـا إن حـان دور المشـتري حتـى اقـتحم حـازم علـيهم مجلســهم صــائحًا بعــدد مــن المــوظفين ممــن تبعـوه للــداخل محــاولين إخراجــه عبثًــا وهــم

يرونـــه نازعًـــا نســـختي العقـــد مـــن بـــين أيـــاديهم، يُمـــزقهم إربًـــا، متطلعًـــا لوجـــوههم المُكفهـــرة، قائلًا:

- والآن، انتهى الاجتماع يا سادة.

نهـــض ياســـين والمشـــتري فَـــزِعين، كـــذا المحـــامون؛ لاقتحامـــه مجلســـهم وفعلـــه الغيـــر لائـق إلا أنـه لـم يُبـال وجلـس مُطمـئن الفـؤاد علـى ذات الكُرســي الــذي نهــض عنــه الخليجــي منــذ ثوان؛ ليعود ويتطلع إليهم، قائلًا:

- وإن يكن، انتهى كل شيء الآن.

ثُـم صـمت بُرهـة ريثمـا يضـع قـدماً فـوق أُخـرى، نــاظرًا باشــمئزاز للمشــتري الــذي يُبادلــه نظراتــه ذاتها؛ ليعود مُستطردًا:

ـ عُـد إلـى وطنـك، عَلَّـك تظفـر بغنيمـة أُخـرى، فصـديقي كمـا تـرى لـن يُغـادر، إنـه بـاقٍ ها هنا.

مـا إن رحـل الخليجـي مزمجـرًا، يتبعـه مُحـاموه بخطـواتهم المضـطربة كاضـطرابهم، كـذا الموظفـون انصـرف كـل مـنهم إلـى عملـه حتـى انطلـق ياسـين معاتبًـا صـديقه علـى إضـاعة فُرصـةٍ كهـذه مـن يـده، ظـل حـازم صـامتًا حتـى إذا نهـض، نهـض ثـائرًا، قـد عـلا صـوته ليسـمعه الموظفون بالخارج:

ـ مـاذا تظـن؟ أنـيَّ سـأقف مكتـوف اليـدين بينمـا تُـدمر حياتـك بيـديك ثانيـة! لا يـا صـديقي، زمن الجُبناء قد ولى ولن يعود بيننا.

ـ أنتَ واهم.

ـ بل أنتَ الواهم فينا.

هَـمَّ ليُعارضـه إلا أن صـديقه لـم يمنحـه فرصـة إذ ظل مُعاتبًا:

- الــزمن يمضــي والعمــر ينقضــي، وأنــتَ كمـا أنـت مازِلـتَ واقفًـا عنـد تلـك النقطـة، لـم تبرحها مطلقًا.

لــم يحتمــل ياســين صــدق كلماتــه وهــوى جالسًـا، يُكابـد أشـواقًا تكـاد تصـرعه؛ فـدنا حـازم منـه ومـا إن صـار نُصب عينيـه ليـراه باكيًـا حتـى قال آسفًا فيما يُمسك برأسه؛ كي يُطالعه:

- يــا صــديقي، هروبــك لــن يُجــدي، ثــق تمامًــا أننــا بجانبــك، مــريم، أنــا، حنــين، حتــى كريم، نحن جميعًا...؟

لـم يدعـه ليُكمـل حديثـه إذ أومـأ برأسـه مـرارًا أن لا؛ فوقــف حــازم عــابس الوجــه، ليُغــادره خـالي الوفـاض آسـفًا، فصـديقه علـى عنـاده لـم

يــزل؛ لكنــه سُــرعان مــا رجــع مــا إن أمســك بمقـبض بابـه فمـا جـاء إلا ليُخبـره، اسـتدار إليـه ثانيــة بينمــا هــو علــى حالــه الــذي كــان؛ ليُفصــح عَمَّا يختلج في صدره بصوتٍ مشوب بالحزن:

- كمــا تشــاء؛ لكــن فلــتعلم أن كــريم، راحلٌ مثلها.

(...)

- لا بــأس يــا أمــي، أنــا بخيــر، يُمكننــي الاعتناء بها.

كـان هـذا ختـام حـوار كـان بينـه وبـين والدتـه، كـذا والـدة رفيـدة التـي بـدت مضـطربةً، خائفـة، فكيــف لهمــا الــذهاب وحــدهما و كــريم لــم يــزل بِطَـوْر علاجـه سـائرا، علمـت مـريم مـا يـدور بِخُلدها فشدت على يديها باسمةً، مُطمئنة:

- لا بـــأس، ســـيكونان بخيـــر، لا تنزعجي هكذا.

- لكن...؟

- حنين، اهدئي، إنه بخير.

انطلـق الإثنـان يلهـوان بـذلك المتنـزه القريـب مـن منزلـه دون مرافـق لهمـا؛ لتبـدو الفرصـة سـانحة أمـام رؤوف الـذي عكـف علـى مُلاحقتـه منـذ أن رآه ووالدتـه بـذلك المطعـم، عازمًـا علـى مُصـارحته، اقتـرب منـه ووقـف بجانبـه لحظـة ركلـه للكـرة بعيـدًا لتُهـرول رفيـدة خلفهـا فَرحـة، ضـاحكة، عاقـدًا ذراعيـه خلـف ظهـره ليُبـادره قائلًا:

- مرحبًا، لا شك أنكَ كريم.

فتطلــع إليــه فَزِعًــا، يســأل ذاتــه كيــف علــم باسـمي؟! ليطرحــه خــارج عقلــه مُهـرولًا صـوب شــقيقته فيمــا هــي مُقبلــةً إليــه والكــرة بيــديها آمنة، فصاح به:

ـ ألا تَــوَدّ مُحــادثتي؟ أتخشــى الغربــاء كوالدك؟

توقــف دَهشًــا، قــد اســترعى اهتمامــه بقولــه، أمعــن النظــر إليــه متوجسًــا، إلــى أن أردف رؤوف قائلًا:

ـ كيــف حالــك الآن؟ لعلــك صِــرت بخيــر فقـد رأيتـك منـذ يـومين شـاحب الوجـه، اعـذرني فَلَـم اسـتطع مُصـافحتك حينهـا، فقـد كـان هنـاك مـا يشغلنــ...؟.

بُتــر حديثــه مــا إن اصـطدمت الكـرة بقدميـه خطئًــا لركـل الصـغيرة لهــا؛ فتظــاهر باللامبــالاة وابتســم

مُهــرولًا نحوهمــا مــا إن رآهــا مُمســكة بيــد شــقيقها، راجيــةً إيــاه أن يــرحلا، حــاول تــدارك الأمـر للإبقـاء عليـه مـا إن رآه يهـم بحمـل كُرتـه، صائحا:

- لا، لا يمكنكما الرحيل.

فتطلــع الاثنــان إليــه بنظــراتٍ حــائرة؛ ليعــود مستطردًا:

- أعنــي، ابقيــا معــي، فلــيس هنــاك مَــن يؤنس وحدتي.

فخطى مبتعدًا ممسكًا يد شقيقته، قائلًا:

- ليس الآن يا سيد.

عندها لم يجد بُد وصاح متسائلًا:

- كيف حال والدتك؟، عساها تكون بخير.

توقـف كـريم فجـأة فتوقفـت شـقيقته؛ ليبتسـم رؤوف فـي أسـاريره، لنشـوة انتصـاره بعـدما أبصـره عائـدًا، مؤكـدًا علـى رفيـدة أن تلـزم مكانهـا، وقـف أمامـه بُرهـةً يُطالعـه صـامتًا قبلمـا يسأله:

- أتعرف أُمي إذًا.

فلاحـت أمـام عينيـه تلـك الـذكرى لثلاثـة عشـر عـام قـد خلـت، يـوم أن نزعـت خـاتم خِطوبتهمـا؛ لتضعه بين راحتيه غير آسفةً، قائلة:

- لـيس هنـاك مجـالٌ لجـدالٍ عقـيم سـيُورثنا السقم.

لينتبه من شِروده على سؤال كريم:

- لِمَ لا تُجيبني؟

أومــأ برأســه أن أجــل، وتلــك البســمة لا تُبــارح وجهه، قائلًا:

- وَمَن لا يعرفها.

- وتعرف أبي.

- بالطبع.

هــرول كــريم فَزِعًــا، مضــطربًا غيــر منتبــهٍ لشــقيقته فيمــا تُهــرول مــن خلفــه فَزعــة، ترجــوه باكيــةً أن ينتظرهــا؛ لكــن دون فائــدة، وبشــق الأنفــس تمكنــت مــن الولــوج قبلــه؛ لتنهــار صــارخة، باكيــة بــين يَــديَّ والــدتها بمنــزل مــريم، حيــث تنتظــران عودتهمــا، فنهضــت والــدتها تضـمها ضـمًا، تَربِـتُ علـى كتفهـا بقلـبٍ يرتجـف، نــاظرةً إلــى مــريم غاضــبةً وكأنمــا تُعاتبهــا علــى مــا حدث قبلما تعرف أحداث نُزهتهما...

فنهضت مريم من فورها تتطلع حولها جَزعة؛ لوحيدها الذي لم يعد، لتعود وتتطلع صوب رفيدة بعينين تبرقين، تسألها بصوتٍ يرتجف:

- أين كريم؟ لِمَ لم يعد؟

ليغدو من خلفها مُجيبها، بسؤالٍ ما كانت لتُفكر به في حياتها:

- مَن أنا؟ مَن أنتِ؟

انهارت جالسة وكل ما فيها بصدقٍ يرتجف، عاجزة عن مُطالعة وجهه فما زال يتربص بها ينتظر إجابتها؛ بماذا تُفصح؟ أتُخبره لينهار كل ما حاولت جاهدة ليبقى شامخًا سنوات عُمره الخمسة عشر أم ماذا هي صانعة؟ آثرت الصمت على نبش ذكريات صارت طي الكتمان منذ زمن.

لصـمتها الـذي طـال، لتلـك العيـون المتربصـة بهـا، تنتظـر التـالي مـن أسـرارها، وقفـت مترنحـة فوقـف أمامهـا، لـن يقبـل برحيلهـا قبلمـا يعـرف حقيقتها الغائبة، فهمست إليه حزينة:

- ليس الآن.

فصاح معترضًا:

- بـــل الآن، ســـــتُخبريني بالحقيقـــــة.. ولا شيء غيرها.

- عن أيَّ حقيقة تتحدث؟!

فـأمعن النظـر بعينيهـا؛ ليعيـد سـؤاله مُشـددًا علـى كل حرفٍ يلفظ به:

- مَن أنا؟

- كريم ياسين النـادي.

فصاح غاضبًا:

- ليس هذا ما أعني.

فهرولت حنين بقلبٍ ينتفض نحوهما علّها ترأب صدعًا يتسع، بعدما كانت بموضع المتفرج لدقائقٍ خلت فأشار إليها مُحذرًا:

- ابتعدي، لا تتدخلي فيما بيننا.

عندها تبدل كل شيء، فـ مريم بدت مغايرة، هدأت أنفاسها، جَف دمعُها، وقفت شامخة ثُم جَرتُه جرًا صوب غرفتها وسط ذُهوله و حنين التي ظلت بموضعها لم تُحرك ساكنًا، فتحت دُولابها على مصراعيه؛ لِتُخرج صندوقًا خشبيًا كانت تُخبئه خلف ملابسها لسنواتٍ ماضية، وضعته بين يديه، مُجففة ما نَفَرَ من عبراتها بيدٍ مازَالت ترتعش، قائلة:

- هذا سيخبرك.

تاركــة إيــاه وصــندوقه بغرفتهــا، لعَـلَّ قلبــه أن يســتكين بمــا ينتظـره فــي ثنايــا أزمنــةٍ قـد وَلـت؛ لتـذهب وتجلـس وحيـدة بِشُـرفتها بعـدما غـادرت حنين مُضطربةً، حاملةً صغيرتها.

مضــى الوقــت رتيبًــا بينمــا تنتظـر حتــى تلـك اللحظــة التــي تتــامى إليهــا صــدى صــرخاته ونحيبــه الــذي لا ينقطــع؛ فأســرار صــندوقه ومــا يحويــه دفترهــا قاســية، جــاء إليهــا بأنفــاسٍ متســارعةٍ، باكيًــا، وقــف خلفهــا يُكابــد آلامــه، مشـيرًا إليهـا بـذلك الـدفتر وصـور عـدة لهـا، بـل لشـبيهتها، لصـاحبة ذات الوجـه الأنـور، ممـددةً فــي فراشــها بالمشــفى تحمــل صــغيرها بعــد سويعات مـن مولـده، طابعـة قُبلـةً وحيـدة مـا زال أثرها، سألها باكيًا:

ـ مَن هذه؟ مَن هذا؟ مَن أنتِ؟

ـ والدتك، أنتَ، أنـا.

(الفصل الرابع والعشرون)

سراديب الشجن

جلــس عنــد قــدميها باكيــا، عــاجزًا عــن إدراك مـا خلـف كلماتهـا، كلمـا هَـمَّ برفـع بصـره والتطلّـع إليهـا لسـؤالها تعثـرت الكلمـات بـين شـفتيه لتعـود أدراجهـــا، مضـــت الـــدقائق كســـنواتٍ الصـــمتُ سـيدها فيمـا همـا علـى حالهمـا الـذي كـان مـن الترقـب، كلاهمـا لديـه الكثيـر مـن التسـاؤلات يـود

طرحهـا.. والقلـب فـي عنـاده.. آبيـا؛ لتبـادره مـريم بصوتٍ متحشرج وكأنما تُنازع روحها:

ـ آسـفة، مـا كُنـت أَوَدَّ إخبـارك بوضـعٍ كهذا؛ لكن مـا بيـدي حيلـة، مـا دُمـت ستعرف فـلا بأس، كُل جُرح لا بُدَ يندمل.

بـدا كـريم منتبهًـا لكـل حَـرفٍ نبـعَ مـن قلبهـا مُغلفًـا بآهـات تُمزقـه، يَرقِـبُ حركاتهـا وسـكناتها، إذ قالت:

كـان ذلـك بمنتصـف أغسـطس مـن العـام 1995، إذ كانـت والـدتك حينهـا بِعُـرس إحـدى صـديقاتها، لـم تنتظـر حتـى الصبـاح رغـم إلحـاح رؤوف عليهـا إذ كـان يومهـا زميـل دراسـتها ويعمـلان معـا، تحـتم عليهـا الإنطـلاق غيـر آبهـة. مـن جديـد هنـأت صـديقتها بزفافهـا، قبلـت وجنتيهـا، عانقتهـا بقـوةٍ فكـم ستشـتاق لـدعاباتها

ومشاكساتها المزيفة، قبل مُغادرتها همست إليها باسمة، قد لاحت منها إلتفاتة نحو زوج صديقتها الجالس بجوارها، مزهوًا بحاله للفوز بقلبها:

- رفقًا بزوجك؛ فلن يحتمل دُعاباتك مثلما احتملتُها.

لتُطالعها العروس بنظرة عِتاب سرعان ما تبدلت لضحكات صاخبة مُزجت بسيمفونيات موسيقية هادئة معلنة عن حبور الحاضرين بزفاف حبيبين.

بِخُطى مُهرولة استقلت سيارتها القابعة منذ الصباح الباكر أمام قاعة الزفاف بانتظارها، انطلقت تشق طريقها بين جنبات شوارع تلك المدينة الشامخة بتصديها لكثير من الأهوال فيما مضى؛ مُعلنة أنها أبدًا لن

تنهزم أمام عبث مُحتلٍ غاصبٍ، ودَّعت العبق الباقي ها هنا بمدينتها السويس، بهدوئها وطيبة أهلها؛ لتعود للعاصمة برتمها السريع الذي لا يدع مجالًا للحالمين كي يتنفسوا ملء رئتيهم لحظاتهم، دقائقهم بما تحويه من سعادة تخطت ثنايا صخبٍ كاد يُفقدهم لذة حياتهم؛ لكن ما إن أعلن الليل انتصافه وقع ما لم يكن ببالها، إذ لاحت أمامها سيارة مسرعة من شارع جانبي لتصطدم بسيارة أُجرة كانت أمامها لا يفصلهما غير مترين أو ثلاث فقط؛ ولذعر تملكها صرخت في وجل:

- يا الله، ساعدنا.

حاولت قدر استطاعتها إيقاف سيارتها قبلما يسوء الوضع ويزداد تأزمًا، نجحت، بل كادت لتفعل لولا تلك السيارة التي اندفعت من خلفها

علــى حــين غِـرةٍ بعــدما عجــز صــاحبها عــن تــدارك المفاجــأة؛ لتصــدمها مــن الخلــف بقــوة، دافعـة بهـا للأمـام، ليُحـال كـل شـيء إلـى فوضـى عارمـــة، تكدســـت الســـيارات، الواحـــدة تلـــو الأخــرى فــوق بعضــها؛ ليختــرق ســكون الليــل صــرخاتٍ مُدويــة، واســتغاثات أُنــاسٍ بــاتوا فــي هلع.

مــرت الــدقائق ثقيلــة فــي رحــاب ليــلٍ حالــكٍ لا يُعلــم مــا يُخفيــه مــن الأحــداث التاليــة؛ فتحــت عينيهــا رويــدًا رويــدًا؛ لينفــذ إليهــا ضــوء خافــت صــادر مــن تلــك الســيارة التــي اســتقرت رأسًــا علــى عقــب أمامهــا؛ لتطالعهــا بنظــراتٍ مُذبذبــة فيمــا لــم تــزل بمقعــدها خلــف عجلــة القيــادة التــي اصــطدمت بهــا لحظــة ارتطامهــا؛ لتســتقر فوقــه ســاكنة حتــى لحظتهــا هــذه، رفعــت رأســها بــبطء

لآلامهـا، لـذعرها الـذي بـدا جليًـا علـى وجههـا، قـد اسـتعادت حاسـة السـمع لـديها بعـدما فقـدتها منـذ إفاقتهـا وكأنمـا قـد صُمَّت آذانهـا؛ لـئلا تسـمع أنَّات المصابين حولها.

تطلعـت حولهـا، عـاجزةً عـن اسـتيعاب مـا حـدث، غيـر منتبهـة لجبهتهـا فيمـا تقطـر دمًـا وقـد اسـتحال كـل شـيء حولهـا بلـونٍ أحمـر قـانٍ بعـدما تخلـل الـدم مجـال رؤيتهـا، يكـاد يصـل لعينهـا اليسـرى، يـود اختراقهـا؛ فمسـحت دماءها بغير اهتمام ومضت مُحاولة.

بأنفـاسٍ لاهثـة ومحـاولات شـتى، تمكنـت مـن فـتح بـاب سـيارتها الخلفـي؛ ليكـون نقطـة عبورهـا نحـو فضـاءٍ مـزدحم بسـيلٍ مـن الألـم.. ونزيـف دمٍ لـم ينقطـع، وسـط سـيارات كانـت تَعِجّ منـذ ثـوان بضـحكات، همسـات أصـحابها، سـارت

مترنحة فآلام ظهرها وثُقل رأسها يكادان يطرحانها أرضًا لتستقر ساكنة فوق ذلك الزجاج المتناثر حولها.

مضت غير أبهةً، علّها تكون بلسم شفائهم، رحل من رحل مودعين أحبائهم؛ فهذه زوجة تُرثي زوجها الراحل، تضمه إليها صارخة وباكية فيما نزيف رأسها لا ينقطع، وتلك أُمٌ ثكلى، تبكي صغيرتها فيما تلفظ أنفاسها الأخيرة بينما زوجها لم يزل في صدمةٍ مما يراه واقعًا، عاجزًا عن تخفيف جُرحها نقيض ما ادَّعاه سابقًا، هرولت إليها علّها تملك ما يُنقذها ويعيد نبض فؤادها؛ لكن الأوان قد فات ومضت لأجلها، عادت أدراجها وكل ما فيها يرتجف، بحثت عن هاتفها، لتستدعي مَن بيده إنقاذهم.

بدا رؤوف مضطربًا، لم يستطع البقاء بالحفل لحظةً بعدها، فوجئ بضيق يستحكم تلابيب فؤاده؛ فخرج مسرعًا لرُبما يستعيد اتزانه ويتنفس ملء رئتيه زافرًا ما يؤرقه؛ لكن أبدًا لن ينال مراده ليلته هذه إذ هاتفته لقاء تُخبره بمصابهم.

عادت مهرولة بما تحمله بين يديها من إسعافاتٍ أولية، لرُبما تُجدي نفعًا بمصابهم، كادت أن تسقط أرضًا ما إن أبصرته على حاله، لم يزل فاقدًا الوعي، مُعلقًا بمقعده رأسًا على عقبٍ كسيارته، يحول حزام أمانه بينه وبين سقوطه، سارت إليه بقلبٍ يزداد اضطرابًا كاضطراب خطواتها؛ لرؤيته مُضرجًا بدمائه. بأياد ترتعد حاولت افاقته، حاولت مراتٍ عديدة؛ فلم يستجب، كادت أن

تبكي لولا ذلك الضوء الخافت الذي لاح من بعيد لسيارات إسعاف جاءت تُضمد جراحهم، مسحت الدماء عن سكون وجهه، هامسةً إليه:

- تحمَّل، ها قد جاءوا، لا تستسلم.

بمساعدة أحد المسعفين تمكنت من وضعه أرضًا لتبدأ بإنعاش قلبه الذي توقف لحظة وصولهم، بين هذا وذاك بدأت بإرشاد المسعفين بأوضاع الجرحى حولها؛ لاتخاذ قرار علاجهم، أما عن ذلك المريض الذي بين يديها فكم كان عصي القلب؛ فبشق الأنفس استجاب لمحاولاتها وتدفق نبض فؤاده مُعلنًا بقاءه.

ضوضاء وصخب يعصفان برأسه المُثقل بالألم، ما هذا الظلام الذي يُحاصره وما بال

تلـك الأيـادي تحملــه! أيـن عســاه يسـير وكيـف يُبصــر دربــه وســط ربــوعٍ يجهلهــا، مُغمــض العينـين، مُكـبلًا، أيـن هـو؟! ومـا تلـك الأصـوات تُناديـه فـي جـزع، أتُـراه يسـتطيع؟ أتـراه قـادرًا علـى النهـوض بعـد سقوطه؟ أتُـراه يُبصـر النـور بعينيــه بعــدما ســادهما ظــلامٌ دامــسٌ؟ هــا قــد فعل.. فـتح عينيـه علـى اسـتحياء لشـدة مـا بـه؛ ليتسـلل نـور وجههـا مخترقًـا بريـق عينيـه قبلمـا يغلقهمــا مُجــددًا، حاولــت مــراتٍ ومــرات أن تُبقيه صحوًا؛ لكن لا أمل.

مـع بـزوغ ضـوء النهـار اسـتقرت آخـر سـيارة إسـعاف أمــام مستشــفى الســويس العــام حاملــةً مصـابهم الأخيـر ليـتم إنقـاذه، لـم تـتمكن لقـاء مـن إفـلات يـدها بعـدما أحكـم قبضـته عليهـا؛ مسـتمدًا قوته منها، فكم يخشى ظلامًا يُحاصره.

لـم تكـن إصـابتها جِـدُ خطيـرة؛ فـآثرت أن تُرافقـه علـى أن تتلقـى علاجًـا لا بـأس إن انتظـر، رفضـوا بدايـة؛ لكنهـا مـا إن أفصـحت عـن كونهـا طبيبـة امتيـاز وبمقـدورها المسـاعدة حتـى وافقـوا، بـدت إصـابته خطيـرة، اسـتغرقوا زمنًـا طـويلًا لإيقـاف نزيـف داخلـي أصـاب أعضـاءه، كـذا إصـابته بارتجـاج حـاد بـالمخ زاد حالته تأزمًا.

عنـدها اضـطرب كـريم وعـلا نشـيج بُكـاءه، متطلعًـا إليهـا هلعًـا وكـل مـا فيـه يرتجـف، فَربِتـت على كتفه في أسى، تُخفف عنه قليلًا بقولها:

- لا عليك يا صغيري.

فتعلـق بيـديها، متطلعًـا بعينيهـا، راجيًـا إياهـا استرسال حديثها فأردفت:

بحلـول الصـباح كنـت أُهـرول بـين جنبـات المشـفى، أكـاد أتعثـر بخطـواتي مـرة تلـو الأخـرى فيمـا أبحـث عـن شـقيقتي بقلـبٍ يكـاد ينفطـر كمـدًا وحُزنـا لمصـابها.. وقـد كنـت لحظتهـا أجهـل مـا بها.

مـا إن أبصـرتُها جالسـة بـذاك الممـر القريـب مـن العنايـة الفائقـة ورؤوف بجوارهـا يَربـت علـى قلبهـا بكلمـات تُطمئنهـا حتـى كِـدت أُصـرع؛ لرؤيتهـا مُضـرجة بـدمائها مـن مفـرق رأسـها حتـى أخمـص قـدميها؛ لكنـي سـرعان مـا انتبهـت أنهـا بخيـر عنـدما نهضـت لرؤيتـي أتطلـع إليهـا بعينـين شاخصـتين ووجـه شـحُبَ لونـه، ومـا تلـك الـدماء إلا لأولئـك المصـابين الـذين عملـت علـى تضـميد جِـراحهم؛ لـم احتمـل وجَلسـتُ مَوضـعها باكيـة، عـاجزةً عـن التقـاط أنفاسـي فـدنت منـيّ

مواســـية بينمـــا نهـــض رؤوف دهشًـــا؛ فـــرغم سـنوات عـدة رافـق شـقيقتي خلالهـا، لـم تُخبـره قـط أن لهـا توأمـا، وقـف أمامنـا تُـداعب وجنتيـه بسمةٌ عابرة؛ ليقول مازحًا:

- أمـا كـان مـن مناسـبةٍ أفضـل مـن هـذه؛ لتُفصحي عن شقيقتك.

إلا أن كلماتـــه لـــم تُضـــحكنا بـــأيِّ حـــال فمـــا إن انتهـى حتـى رأينـا الأطبـاء يُهرولـون مـن حولنـا صـــوب العنايـــة الفائقـــة حيـــث ياســـين لـــم يـــزل بغيبوبتـــه، لـــم انتبـــه إلا ولقـــاء تتـــبعهم مهرولـــة ورؤوف مـن خلفهـا، لـم أملـك مـن أمـري شـيء وتبعتهمـا مُرغمـةً، مـن خلـف نافذتـه الزُجاجيـة أبصـــرته مستســـلمًا لرحيـــلٍ بـــات وشـــيكا فيمـــا الأطباء يبذلون جُهدهم ليبقى بيننا.

منذ ما كان لم نره، إذ عاد ثلاثتنا بذات اليوم للقاهرة، عادت شقيقتي لتبعث البهجة بحياتنا، مرت الأيام هادئة إلى أن ظهر مُجددًا، لا أعرف كيف استطاع فعل ذلك! لكنه بصدقٍ قد فعل، ذهب إليها بالمشفى الذي تعمل به، كانت تهم بالخروج مُودعة زميلاتها بعد انتهاء دوامها عندما وقف أمامها غير مُباليًا بتلك الأعين المتربصة بهما وتساؤلات عِدة تنخر عقولهم إذ لم يعنيه غيرها، بل تكاد دقات قلبه تتقافز فرحًا بحضورها، لم تَعِ سببًا لمجيئه إلى أن قال باسمًا:

- تزوجيني.

لم تبالِ، لم تنطق ببنت شفةٍ وانطلقت مهرولة؛ لكنه أبدًا لم يدعها، هرول خلفها، تحدث إليها، استجداها لترأف بحاله إلى أن

وقفــت مُرغمــةً فيمــا المــارة يســيرون مــن حولهما لتقول كلمتها:

- اسمع أيها السيد...؟

- ياسين.

- مهمــا تكــن، لا تتــوهم كثيــرًا، عملــي هــو إنقــاذ المرضــى، أمــا إن ظننــت غيــر ذلــك بمســاعدتي لــك، فــلا شــك أن عقلــك قــد تضــرر بشدة وتحتاج لطبيب.

- موافق، فلتكوني طبيبتي كيفما تشائين.

شَــرُدَت مــريم طــويلًا بــذكرياتها ولــم تفــق إلا حينمــا تشــبث كــريم بيــديها، يســتجديها إكمــال حــديثها؛ زفــرت وبشــدة؛ فلــيس هينًــا أن تُعيــد مــا مضى من آلامها:

لم يكن الأمر هينًا عليهما، عجز ياسين عن مواصلة حياته كما كانت قبلما يلتقي بوالدتك، لم يملك دواءً لداءٍ ينخر داخله، يكاد يُهلكه بينما والدتك لا تأبه مطلقًا أو هكذا ادَّعت؛ لئلا ننتبه، استطاعت وبمهارة تحقيق ذلك إلى أن مرضت ذات يوم وبدأت تهذي، كأنما تُحادثه، لم أعِ سببًا لجفائها وادِّعاء عكس ما تضمره إلا بعدما تزوجا بعامٍ واحد، إذ كنت وقتها لم تزل جنينًا ينمو بأحشائها.

إنهالت العبرات من مُقلتيها تحرق كبدها ثم ما لبثت أن عادت تواصل سردها وكريم يتألم لألمها:

لم تبدُ بخيرٍ مُطلقًا، إذ كانت دائمًا واهّنةً، شَحب وجهها، قل وزنها، بين الفينة والأخرى تُصاب بنوبات قيئ لا ينقطع، ظننا بدايةً أن

هـذا لحملهـا بـك إلـى أن تمـادى الأمـر لإغمائـهـا ساعاتٍ طـوال دون سـببٍ ظـاهر، عجـز والـدك عـن رؤيتهـا تسـير لهلاكهـا دون مسـاعدتها، تحـدث إليهـا، توسـل كثيـرًا لتخضـع لفحوصـاتٍ دقيقـة كـي يعلمـون مـا بهـا؛ فأبـت مؤكـدةً أنهـا بخير، ليصيح غاضبًا:

- كيـف؟! وأنـتِ بحالتـك هـذه، كيـف تكونين بخير؟ كيف!

فاقتربت منـه ترجوه أن يهدأ إلا أنـه لـم يفعل بـل غدا ثائرًا فيما يُخبرها:

- ستخضـعين للفحـص غـدًا، شـئتِ أم أبيتِ.

- لا يُمكنكَ إرغامي.

- إن لـــزم الأمـــر ســـأحملكِ حمـــلًا، أتفهمين.

عنـدها لـم تسـتطع البقـاء علـى قـدميها، فكـل مـا حولها يدور وتدور معه:

- ياسين...

ولشـدة غضـبه لـم ينتبـه لاسـتغاثتها إلا عنـدما سمع ارتطامهـا بـالأرض فـي حالـةٍ يُرثـى لهـا مـا بـين الـوعي وفقدانـه، لـم يشـأ تصديق مـا سمعته أُذناه إذ قال الطبيب بعد فحوصاتٍ شتى آسفًا:

- آسـفٌ سـيدي؛ لكـن مـا بـين يَـديَّ مـن تحاليـل وفحوصـات يؤكـد أن زوجتـك مُصـابة بسرطان الدماغ.

مـا كانـت يومًـا كتلـك الفتيـات المُنعمـة، رغـم أن هـذا كـان باسـتطاعتنا وقتهـا، بـل أَبـت إلا أن

تكـون مسـئولةً عـن حـالهـا؛ فمنـذ نعومـة أظفارهـا وهـي كـذلك، حـاول أبـي اقناعهـا فمـا كانـت تسـتمع، لـم أتبـين أن هـذا كـان تمهيـدًا لِمَـا سـتجابهه فـي حياتهـا التاليـة إلا حينمـا رأيتهـا تقف كَسدٍ منيع لتحفظ حياتك مــ...؟.

- تحفظ حياتي! مِمَّن؟!

وبعينين تلوذان بالفرار، أجابته متلعثمة:

- من والدك.

بُهــت لقولهــا وَنهــض فَزِعًـا بأنفــاس مضـطربةً، يـومئ برأسـه رافضًـا كلماتهـا، لا يُصدق أنه قد فعل، فعادت مستطردة:

- لــم يســتطع رؤيتهــا متألمــة، تجــادلا كثيـرًا فآلامهـا جِدُ قاسية، إذ كانـت تصـرعها بكـل

لحظــةٍ تمــر دون تناولهــا لــدوائها، تحملــت.. لــم تشأ التفريط بك رغم ما تُجابهه.

هـدأت أنفاســه رغـم شـحوب وجهــه وشـخوص عينيــه البــاكيتين؛ ليعــود ويجلــس عنــد قــدميها متشــبثًا بيــديها، يرجوهــا أن تُكمــل، يُريــد معرفــة المزيد، جففت دُموعه بيدين ترتجفان، قائلة:

- أحبهــا كمــا لــم يُحــب أحــدًا زوجتــه؛ عجــز ياســين، عــن تقبــل واقعــه إذ أصَــرت هــي علــى الإبقــاء عليــك حتــى يحــين مولــدك ومــن ثَــم تبــدأ رحلــة عــلاجٍ تعلــم جيــدًا أنهــا ســتغدو دَربًــا من الخيال إن تأخرت.

صــمتت بُرهــة تُمعــن النظــر بعينيــه، تبحــث بــين ثناياهمــا عــن بقايــا شــقيقة راحلــة؛ لتعــود مستطردة، هاتفتني ذات يومٍ باكية:

ـ لا استطيع، كيف لي بنزع روحه بيديَّ هاتين وقد كُنت شفاءً لكثير من العلل.

توسلت إليَّ كي أُحدثه؛ لكنه أَبى إلا الإعراض راحلًا، هائمًا على وجهه للوعة فؤاده التي لمسناها بحق يوم وفاتها، كان هذا بعد يومين من مولدك إذ رأيناه مُهرولًا إليها فيما هي مُسجاة في فِراشها دون انتباه لوجودنا يُقبل وجهها الزاكي، يديها الحانيتين، باكيًا يرجوها البقاء فلا يُمكنه الحياة دونها.

لشرودها في ذكرياتٍ تُحيل قلبها رماد، فوجئت به يُعانقها في أسى، لا تعرف، ألحاله أم لحال والده؟

لم تشأ الإفصاح عن المزيد، يكفيه أن يعلم أنها ليست بوالدته أمَّا عدا ذلك فليس من حقها البوح به فوالده قادرٌ على التفسير، وما

إن نـهضـت وولتـه ظهرهـا راحلـةً حتـى باغتهـا بسؤال ألزمها مكانها عاصفًا بها:

- ورؤوف، ماذا بشأنه؟

انهالـت العبـرات مـن مقلتيهـا حارقـة فؤادهـا؛ لتسـتدير إليـه تُمعـن النظـر بعينيـه المضـطربتين، قائلة:

- هذا شأني أنا.

لـم يُغمـض لهمـا جِفـن ليلـتهم هـذه، مـريم بغرفتهـا، مُمـددةً بفراشـها لا تكـاد تُبعـد عينيهـا الشاخصـتين عـن سـقف غرفتهـا وكـأن هنـاك مـا تُراقبـه، شـاردةً بأحـداث يومهـا، بينمـا كـريم علـى حالـه الـذي كـان لـم يـزل، جالسًـا القرفصـاء بشـرفتهم مُمسـكًا دفترهـا، يُمعـن النظـر بصـور والدتـه، يُلامـس وجههـا بأناملـه لعلـه يستشـعر دِفءٍ باقٍ في صورها.

(...)

عند السابعة، خرجت من غرفتها بعينين مرهقتين تتهاوى جِفونها، مترنحة بعد ليلةٍ طويلة رحل سُباتها، دَلفت لغرفته تطمئن عليه فما وجدته، أصابها الاضطراب لحظة رؤيتها لفراشه خاليًا، لم يزل مُرتبا، بحثت عنه بأرجاء منزلهم؛ لعله بهذه الغرفة أو تلك، كانت شرفتهم آخر مكانٍ بحثت فيه، لعَلَّه مثلها لم يَنعم بليلةٍ هانئة وآثر البقاء بها وأيضًا دون أثر.

عند الظهيرة، وبينما كان ياسين مجتمعًا مع عدد من رؤساء أقسام شركته إذا بسكرتيرته تُقبل إليه حاملةً إليه هديةً مُغلفة ومزينة بلونٍ أسود قاتم؛ دُهش وبشدة كحالهم؛ فَمن يجرؤ على فعلٍ كهذا؟! وما يرمي إليه ذلك الأهوج

بإرسـال هديـةٍ سـوداء، نهـض مـن فـوره مُـتجهِّم الوجه، يسألها:

- ما هذا العبث؟ مَن أرسل هذه؟.

لِتُجيبه حائرة:

- لا أعلـم سـيدي، ذهبـت لنسـخ بعـض الملفـات الورقيـة.. وعنـدما عُـدت وجـدتها فـوق مكتبـي واسـمك مكتـوب بتلـك البطاقـة المُثبتـة عليها.

فتناولهـا زافـرًا وسـط ترقـب الجميـع، يتطلعـون لمعرفـة مـا تحويـه هديـةٍ كهـذه، مـا إن وضـعها فـوق طاولـة اجتماعاتـه وبـدأ بنـزع شـريطها المعقـود بإحكـام حولهـا حتـى بـدأت القشـعريرة تسـري منـه مجـرى الـدَمِ وتصـبب العـرق مـن جبينـه؛ لكنـه مـاضٍ فيمـا يفعلـه إلـى أن صـار كل شيءٍ نُصَّب عينيه واضحًا.

هــوى بمقعــده جالسًــا، عــاجزًا عــن التــنفس وتلــك العيــون مُعلقــة بمــا تحويــه هديتــه إذ كــان بــداخلها ذات الــدفتر ومــا يحويــه مــن خبايــا الــزمن وصــورًا شــتى، مــا زالــت صــاحبتها تُطــارده بأحلامــه إلــى يومــه، ومــا إن هَــمَّ أحــدهم ليُخرجه من مخبئه قائلًا:

- إنــه مجــرد دفتــر يوميــات وبعــض الصور.

حتــى انقــض عليــه، يســلبه مــن بــين أناملــه صائحًا بهم:

- اخرجــوا، اخرجــوا جميعًــا، هيــا، فِــيِّم تنتظرون.

فســارت بيــنهم همهمــات، يتســاءلون فــيَ حيــرةٍ، لا يعلمــون مــا أصــابه فجــأة!.. ولنظراتــه الحــادة هــا هــم يخرجــون مُطــأطئي الــرأس، أحــدهم تلــو

الآخـــر، ضـــاربين أكُفهـــم كفًـــا بكـــف، مندهشـــين لحاله.

ظـل ياسـين قابعًـا خلـف مكتبـه لسـاعاتٍ طـوال عـاجزًا عـن إبعـاد عينيـه عـن تلـك الطاولـة ومـا عليهـا مـن ذِكريـاتٍ يعلـمُ جيـدًا مقـدار ألمهـا، فتلـك الغِصّـة قـد عـادت مـن جديـد؛ لتُهاجمـه، تُـذره بكـل حـرف خُـط بهـذا الـدفتر، وبريـق عينيهـا البـاقِي بصـورها يُـذكره جيـدًا بوعيـدها لـه إثـر جِـدالٍ حـاد كـان بينهمـا قبـل يَـومٍ واحـد مـن وضـعها، أنهـا سـتعود لتنـتقم إن حـاول يومًـا إيذاء صغيرها، فلذة كبدها.

لـم يعـد إلا ومنتصـف الليـل؛ فقامـت تسـتقبله فـي لهفـة، لِتُفاجـأ بـه شـاحب الوجـه قاتمًـا، غـائر العينـين، مُنهـك القـوى، يخطـو إليهـا مُترنحًـا، لا يقـوى علـى التقـاط أنفاسـه؛ ليسـتقر أمامهـا دون

حـراكٍ مـا إن التقـت أعينهمـا وكأنمـا يرجوهـا أن تُساعده.

هـوت عنـد رأسـه، ضـمته إليهـا جزعـةً تهـزه هـزًا، نادتـه فـي وَجَـل، راجيـةً إيـاه ليفـتح عينيـه، مُعتـذرةً، آسـفة. حاولـت عبثًـا فــ كـريم لـم يـزل فاقدًا الوعي، لا يُدرك شيئًا مما يدور حوله.

هرولـت نحـو هاتفهـا، فـلا تملـك مَـن يسـاعدها بوقــتٍ كهــذا غيــره، بأيــادٍ مرتعــدة وصــوتٍ مبحـوح، هـا هـي تُحدثـه، راجيـةً إيـاه أن يُنجـدها فــ كريم ليس بخيرٍ مُطلقًا.

(...)

لم تكد تمضِ غير ساعة إلا ورؤوف أمامها، يسألها في غير صَبرٍ:

- ما بال كريم؟ ماذا أصابه؟

بـدا مضـطربًا مــا إن رآه مُلقــى علــى الأرض غيــر بعيــد عنهمــا، تكــاد ملامحــه أن تختفــي؛ لجهــاز الإستنشــاق المثبــت علــى وجهــه لأنفاســه الواهيــة؛ فهــرول إليــه يفحــص نبضــه جَزِعًــا فيمــا لــم يــزل فاقــدًا للــوعي، يتــابع حركــة بؤبــؤي عينيــه، قبلمــا يحملــه بــين يديــه مهــرولًا ومتسائلًا:

- منذ متى وهو على حالته هذه؟

ولشدة اضطرابها أجابته قائلة:

- لا أدري، لا أدري.

بعــد ســنواتٍ عجــاف امتنــع خلالهــا عــن ممارســة مهنتــه التــي طالمــا أحبهــا وأتقنهــا جيــدًا، هــا هــو يعــود مُجبــرًا؛ لشــخص لــم يُخيــل إليه يومًا أنه سيغدو طبيبه بعدما كاد يقتله.

نُقـل كـريم للطـوارئ فـي حالـةٍ يُرثـى لهـا؛ ليُـدخل إلـى العمليـات عنـد الثانيـة فجـرًا فـي محاولـةٍ مـنهم لإنقـاذه، يُـرافقهم رؤوف بعـدما بَيَّن لهم هويتـه كطبيب جراح فيمـا تشبثت مـريم بـذلك البـاب، تُطـالع صـغيرها مـن خلـف نافذتـه الزجاجيـة فيمـا هـو مُسـجى علـى طاولـة العمليـات والأطبـاء مـن حولـه يبـذلون جُهـدهم لينقذوه، تدعو الله أن يَمُن عليه بالشفاء.

مـع بـزوغ ضـوء النهـار، هـا هـم يُخرجونـه؛ لتلحـق مـريم مـن خلفـه بعينـين تـذرفان فيمـا ينقلونـه علـى سرير نقـال ليكـون مُستقره أيامـه التاليـة بالعنايـة الفائقـة، وُضـع علـى جهـاز للتـنفس؛ لقصـور رئتيـه عـن تأديـة وظائفهـا لتشـبعها بالـدماء، تسـأل مـن يُرافقتـه مـن

الممرضـــات عـــن حالـــه، لعَّـل قلبهـــا أن يهـــدأ، وتستكين صِراعاته بعد طول عِناد.

خـــرج رؤوف مـــن غرفـــة العمليـــات مُطـــأطئ الـرأس، آسـفًا علـى حـال صـغيرٍ لـم يفقـه شـيئًا بالحيـاة، يُعاتـب ذاتـه فهـو السـبب فيمـا آلـت إليـه حالتـه اليـوم، كيـف لـه أن يصـل لـذلك المسـتوى مـن الـدناءة ليعـود وينـتقم مـن طفـلٍ لـم يـزل متألمًـا مـن جميـع الجبهـات؛ ليـأتي هـو ويـدق المسـمار الأخيـر بنعشـه، كيـف لـه أن يـرد جميـل لقـاء معـه بإيـذاء صـغيرها أيَمَّـا إيـذاء، وإن بـذل ما بقي من عمره ليُغفر له ما فعل.

خرجـــت مـــن عنـــده لا تكـــاد تُبصـــر أمامهـــا؛ لفجيعتهـا بـــه، مترنحـــة، تُعاتـــب ذاتهـــا، مـــا كـــان عليهــا إخبــاره وهــو علــى حالتــه لــم يــزل بطــور علاجـه ماضـيًا؛ لكـن مـا بيـدها حيلـة، قـد سـبق

سيفُها العذل فمضت خانعة، سارت غير بعيد لتجلس بذلك المقعد المواجه لغرفته، تواسي حالها، تدعو الله أن يُلهمها الصَبر لتبقى شامخة. أمام هذا وذاك انهارت باكية، غير قادرة على احتمال لوعة فؤادها، صاحت في غير صبرٍ رافعة بصرها لأعلى، تسأله:

- لِمَ؟

لتعود لصمتها، تُخبئ وجهها بين راحتيها مسترسلة ببكائها بذات اللحظة التي جلس فيها رؤوف بجانبها، صامتًا، ساكنًا، يُكابد دموعه؛ كي لا تنتبه للوعة فؤاده، ظلا زَمنًا على حالهما الذي كان إلى أن هدأت؛ ليُبادرها مُعاتبًا:

- لِمَ لم تُخبريني؟

فتطلعت إليـه بعينـين شاخصـتين قـد جَـفَ دمعُهـا، لتنطلق مُعاتبة:

- وأيـــن كُنـــت طيلـــة تلـــك الســـنين لأخبرك، آه، أخبرني...؟

صـــمتت بُرهـــة لتعـــود مسترســـلة، واقفـــة، غاضبة:

- رحلـت مثلمـا فعـل الجميـع، تركتمـوني وحيـدةً وذاك الرضـيع نُجابـه قـدرنا غيـر آسـفين لحالنا.

لِـتُجهش باكيـة فيمـا يسـألها وعلامـات الدهشـة تبدو جلية على محياه:

- وياسين.....؟!

بصـــوت يغلبـــه البكـــاء غـــدت قائلـــة مُتطلعـــةً بعينيه:

- ما كان يومًا بيننا، ما زال واقفًا عند تلك النقطة، يوم رحيلها، يُرثي حاله وكأن ما في الكون من أحدٍ يُكابد مثله.

أخذت تقص عليه كل شيء منذ ما كان من إصابة كريم بسرطان الدم إلى إعراض والده عنه سنوات عمره التالية حتى لحظتهم هذه، قالت آسفة:

- أتُصدق أنه ادَّعى موته بينما لم يزل حيًّا، ذا قلبٍ نابضٍ.

فنهض غاضبًا، قد انتفخ وجهه واشتد حُمرةً لقولها الذي صَمَّ آذانه، غير مُصدق أنه وبتلك الخِسَّة قد فعل فعلته الدنيئة غير آسفٍ لحالهما الذي كانا عليه، سنواتهم الماضية، لم يستطع البقاء دقيقة أُخرى وذهب مُسرعًا غير آبهًا لندائها، فما تخشاه ليس بهينٍ.

كان ياسين على وشك الخروج من شركته برفقة مُحاميه حينما باغته رؤوف الذي ظل يَرقِبه لساعاتٍ طوال إلى أن آتته الفرصةً سانحة ليلكمه بقوةٍ أردته أرضًا، صائحًا به، غاضبًا:

- أيها النذل، ماذا فعلت بهما؟ أهذا عهدك الذي أقسمته لي ذلك اليوم.

نهض ياسين مشوش العقل، ممسكًا فكه فالضربةُ جِدُ مؤلمة، في حين هرول عدد من الموظفين مِمَّن شهدوا الواقعة ليكونوا حائلًا بينه وبين رئيسهم الذي بدا مشدوهًا لرؤيته ماثلًا أمامه بهيئته المعهودة، لم يزل سريع الغضب، متهورًا باتخاذ قراره.

كاد أن يُعيد الكرَّة مرة ثانية ما إن رآه ساخرًا من حاله إلا أنهم تكالبوا عليه وألقوه

أرضًا ليمر رئيسهم آمنًا مُطمئنًا نحو سيارته التي ما إن فتح بابها حتى غدا رؤوف في أثره مُمسكًا بتلابيب ردائه، دافعًا إياه بقوةٍ ليصدمه بسيارته مرارًا وتكرارًا بينما الموظفون يُحاولون عبثًا تخليصه من بين يديه؛ ليُمسك رأسه نهاية ليطرحه أرضًا بكل ما أُوتي من قوةٍ، صارخًا به:

- هذا لأجل مريم، أما كريم، لقاء، فذاك حِسابٌ آخر.

(...)

قبل الغسق بقليل هرول الدكتور/ مراد فَزِعًا ما إن علم بالخبر، سأل هذه وتلك، بحث بين جنبات المشفى إلى أن وقف ساكنًا ما إن لاحت أمام عينيه بذلك الممر المؤدي للعناية الفائقة فيما تبدو متشبثةً بواجهة غرفته، تُطالعه من

خلـف نافذتــه الزجاجيــة فــي غيــر صــبر، ســار إليهـا يُقـدم خطـوة ويُعـرض عـن أُخـرى حتـى مـا إن غدا أمامها؛ سألها:

- أســتاذة مــريم، مــاذا حــدث؟ مــا الــذي استجد لتتفاقم حالته هكذا؟

مـا كـاد يُـتم سـؤاله حتـى هـرول إليـه فَزِعًـا مـا إن رآه جالسًـا فـي سـريره، يهـم بـالنهوض دون كامـل وعيـه، غيـر منتبـه لِمَـا هـو متصـل بـه مـن أجهـزةٍ طبيــة تُبقــي علــى حياتــه، حملــه علــى العودة مُحذرًا:

- إياك أن تفعل هذا مجددًا، أفهمت.

إلا أنــه لــم يُنصــت، حــاول أُخــرى وثالثــة غيــر أن طبيبـه كـان لـه بالمرصـاد ليبقـى سـاكنًا، نـزل عـن رغبتـه وقـد اشـتد سُـعاله، يكـاد يفتُـك بـه وبِجُرحـه الـذي لـم ينـدمل بينمـا هرولـت مـريم إليـه وَجِلـةً،

تُقبلـه بـين عينيـه بقلـبٍ مضـطرب فتشـبث بيـديها راجيًـا إياهـا بصـوتٍ يرتجـف أن تُخرجـه مـن هنـا فَرَبِتَـت علـى كتفـه، تُمعـن النظـر إليـه بعينـين مضطربتين، تطمئنه:

- سنفعل، ريثما تتحسن حالتك.

- لا، الآن يا أمي.

فضـمته إليهـا، تُمسـد رأسـه بيـدين ترتجفـان وعبـراتٍ تنهمـر، مـرددة كلمتـه وقـد ظنـت أنـه مـا عـاد سيدعوها بهـا مـا بقيـت لهـا الحيـاة؛ لقسـوة ما وجد.

بـات ياسـين ليلتـه يُكابـد آلامًـا مبرحـةً ألمـت بكتفـه الأيسـر لاعتـداء رؤوف عليـه دون هـوادة، لـم يغفـو لـه جِفـن لكلماتـه النابيـة التـي مـا تـزال تَصُّـم أذنيـه وطيـف لقـاء، رفيـق ليلـه، كلمـا ولَّـى وجهـه وِجهـة كانـت لـه بالمرصـاد؛ لكـن

علــى غيــر عادتهــا كانــت باســمة الثغــر؛ فــدَبَّ الــذُعر فــي قلبــه وانكَــبَّ علــى دفترهــا يقــرأ مــا خطتــه بأناملهــا الحانيــة، بكــي كثيــرًا وانتحــب لوقع كلماتها ففي القلب غصة وعتاب لم يزل.

بــرغم كوننــا كائنــاتٍ هشــة تنــدثر كانــدثار نسيم الحيــاة، هــا نحــن نُكــابر، نُفــاخر أننــا المنتصــرون علــى قلــبٍ قــد مــات بفعــل أيادينــا نحــن؛ لتتجــرد قلوبنــا الخاويــة مــن نــبض يبعــث علــى الحيــاة؛ لننــزوي غيــر آبهــين بمــا عاثتــه أنفســنا مــن فســاد أدمــى قلوبنــا؛ لنحــرق كــل حــيِّ أمــل يومًــا فــي النجاة.

عنــد الصــباح، بــدا كــريم مضــطربًا علــى غيــر عادتــه، لــم يتنــاول دواءه.. أبَــى كــل شــيء لحــين خِروجه؛ قد غدا صائحًا:

- لا أريد، أخرجوني من هنا.

فـاجتمع عـدد مـن الأطبـاء، يُحـاولون إثنـاءه عـن عنـاده مـن بيـنهم د/ مـراد الـذي أَبَـى المغـادرة لحـين اسـتقرار حالتـه إلا أنـه فاجـأهم بأنفـاس مضطربة، قائلًا:

- لا، أخرجوني، ما عُدت أحتمل.

فهرولـت مـريم تضـمه إليهـا فَزعـة، حاولـت عبثًـا التحـدث إليـه فمـا كـان يسـتمع، وضـع كفيـه فـوق أُذنيـه؛ كـي لا يفعـل، قـد أرهقـه كثيـر حـديثهم؛ ليعود راجيًا:

- أخرجيني من هنا.

- لكن؛ جُرحك لم يندمل بعد.

فأومأ برأسه:

- لا يهم.

أصابه الصمت ما إن دَلِفَ رؤوف إليهم بعدما استمع لِجُل حديثهم فيما هو مُتكئ على الباب خلفهم، يُنصت لكل حرفٍ نابعٍ منه، غدا مشدوهًا، يتطلَّع إليه تارةً فيما هو مُقبل نحوه وأُخرى لـ مريم فيما لم تزل جالسةً بجواره، ماضيةً بحديثها إليه غير منتبهة لاقترابه، تعجز أنفاسه عن المضي قُدمًّا في رئتيه ما إن رآه يستقر بجانبها، مُتطلعًا إليه؛ ليُصاب بنوبة سُعالٍ شديدةٍ؛ ليتبدل حاله من سيء إلى أسوأ، يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة فيما الأطباء يبذلون جُهدهم؛ لتستقر أنفاسه وتهدأ بعد جُهد جهيد، ليُغمض عينيه مستسلمًا.

يَومٌ آخر مضى دون جديد أمل، كريم على حاله من الإعياء والألم، الأطباء عاجزون عن مساعدته دون استقرار حالته، فاقترح رؤوف

نقلــه لمستشــفى خــاص ليتلقــى الرعايــة اللائقــة إلا أن مريم أَبَت قائلة:

- بل سننتظر.

- إلى متى؟

بانقضــاء يــومين، هــا قــد بــدأ يســتعيد وعيــه، لــم تتبــين صــوته فيمــا هــي جالســةً بجــواره، يرجوها في غير ملل، إلى أن سمعته هامسًا:

- أمي.

دنــت منــه طابعــةً علــى وجنتيهــا بســمة خجلــة، مسدت رأسه بقلبٍ منقبض، ترجوه أن يهدأ:

- لا بأس، اهدأ.

فأَبَى إلا أن يُخبرها:

- أخرجيني من هنا.

وأمام إلحاحه الذي لم يفتأ يهدأ إلا ويعود مُجددًا انهالت العبرات من مُقلتيها فَزِعة، هرولت إليه حيث لم يزل جالسًا بذلك الممر القريب من غرفته، ينتظر وقفت أمامه قائلة:

- فلنخرجه.

لم يكد رؤوف يسمع حديثها حتى هَبَّ واقفًا، رافقها لغرفة كريم الذي ما إن رآهما سويًا حتى جاهد ليجلس مُعتدلًا للقائهما؛ فهرول ليأخذ بيده كي يُساعده، أجلسه على كُرسي مدولب ثُم بدأ يدفعه خارجًا تتبعهم مريم بقلب مضطرب.

ما كادوا يصلون للممر المؤدي لمكتب الاستقبال حتى انتبه عدد من الأطباء لفعلهم؛ لينشأ جدال حاد بينهم ورؤوف، الذي حاول عبثًا طمأنتهم.

بين هذا وذاك نهض كريم عن كُرسيه دون انتباههم، سار نحو بوابة الخروج مترنحًا وما إن غدا قريبًا للحد الذي يجعله خارج أسوار هذا المكان حتى فُوجئ بوالده مُقبلًا نحوه بِخُطى مضطربة وعينين استحالتا حُمرة بعد صفاءهما وكأنما بات ليلته باكيًا.

هَمَّ ليعود أدراجه إلا أنه كان قريبًا للحد الذي مَكَّنَهُ من الوقوف أمامه مُعتذرًا عَمَّا مضى:

- آسفٌ بُنَيِّ، لم أستطع.

لم يُعيره أيَّ اهتمام ومضى بالاتجاه الآخر بِخُطى مضطربة كاضطراب فؤاده، فعاد يلحق به، راجيًا إياه:

- كريم، أرجوك.

فصرخ غير آبهًا:

ـ ابتعد.

انتبهـت مـريم لصـرخاته، تطلعـت مـن حولهـا فـي غيـر صبر إلـى أن رأتـه مُقـبلًا نحوهـا بوجـه مضـطرب وأنفـاسٍ لاهثـةٍ فيمـا ياسـين يلحـق بـه، يُحـاول عبثًـا إرضـاءه؛ فهرولـت إليـه بينمـا رؤوف لم يزل في جداله.

تواجـه ثلاثـتهم عنـد مكتـب الاسـتقبال، كـريم فـي المنتصـف موليًـا ظهـره لوالـده الـذي لـم يفتـأ آسـفًا، يتوسـل إليـه أن يغفـر ذلاتـه؛ ليُجيبـه ساخرًا:

ـ لا تفعل...

ثُـم صـمت بُرهـةً، وكـأنمـا يسـتعيد بعضًـا مـن ذكرياته؛ ليستدير إليه مُستطردًا:

ـ تمنيت موتي، رجوتني لأبتعد، مُحملًا إيَّاي كل سوءٍ أصابك وها أنتَ اليوم تعود آسفًا، بأيّ وجه تفعل ذلك، أخبرني؟!

عندما لم يلقَ اجابةً، صاح غاضبًا، بصوت زلزل كيانه:

ـ آه أخبرني، بأيَّ حقٍ رحلت.. وبأيَّ وجه عُدت.

بعينين تذرفان وقلب يرتجف، اقترب ياسين ليستقر أمامه آسفًا على ما مضى من آلامٍ لم يزل أسيرها؛ فاضطرب كريم ما إن رآه يذرف الدمع منتحبًا.. واستسلم لعناقٍ تمناه من صميم فؤاده بموضعٍ غير هذا؛ فما إن أحس باقتراب أجله وانقطاع أنفاسه حتى تشبث به بقوة؛ عَلَّه يستشعر دِفء فؤاده بعد طُولِ غيابِ، هامسًا إليه بقلبٍ ينتحب:

- أوتعلم أبي، لم أُبغض شخصًا كبُغضي لك، ولم أرغب بأن يحملني علي الأعناق حينما تحين ساعتي، سِواكَ.

كادت أنفاسه أن تقف ما إن دَبَّ بقلبه وقع كلماته، تشبث به لئلا يسقط أرضًا؛ لكن هيهات، هيهات، صرخات متتالية صَمَّت آذانهم؛ ليتوقفوا عن جِدال، لا يُجدي نفعًا بوقتهم، هرول الجميع فزعين يسبقهم رؤوف الذي ما إن رآه ممددًا على الأرض فاقدًا الوعي، دون حراكٍ بين يديَّ والده الذي غدا هلعًا لِمَا أصابه فيما مريم جاثيةً على رُكبتيها باكيةً لحاله حتى دنا منه، حمله في غير صَبرٍ، صارخًا فيمن حوله، مُهرولًا لإنقاذه:

- لعل هناك من نبض...

لعلها البداية، مَن يدري...!

تمت بحمد الله